لوران جونيل

وستكتشف الكنز الذي بداخلك

رواية

مكتبة 1212



المركز الثقافي العربي

استيقظوا فجأة

ستجدوا الكنز الذي بـ مكتبة

لقد سألت نفسي السؤال

لم لا أصور هذه الرواية

هناك من يسعد مع كل كتاب

كيف بهذا الكتاب ؟!

مع خالص المودة

لوران جونيل

وستكتشف الكنز الذي بداخلك

العنوان الأصلي للرواية:

Laurent Gounelle
Et tu trouveras le trésor qui dort en toi

© Kero, 2016
All rights reserved

مكتبة
t.me/soramnqraa

I9 6 23

الكتاب

وستكتشف الكنز الذي بداخلك

تأليف

لوران جونيل

ترجمة

محمد المزديوي

الطبعة

الأولى، 2017

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-865-7

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

لوران جونيل

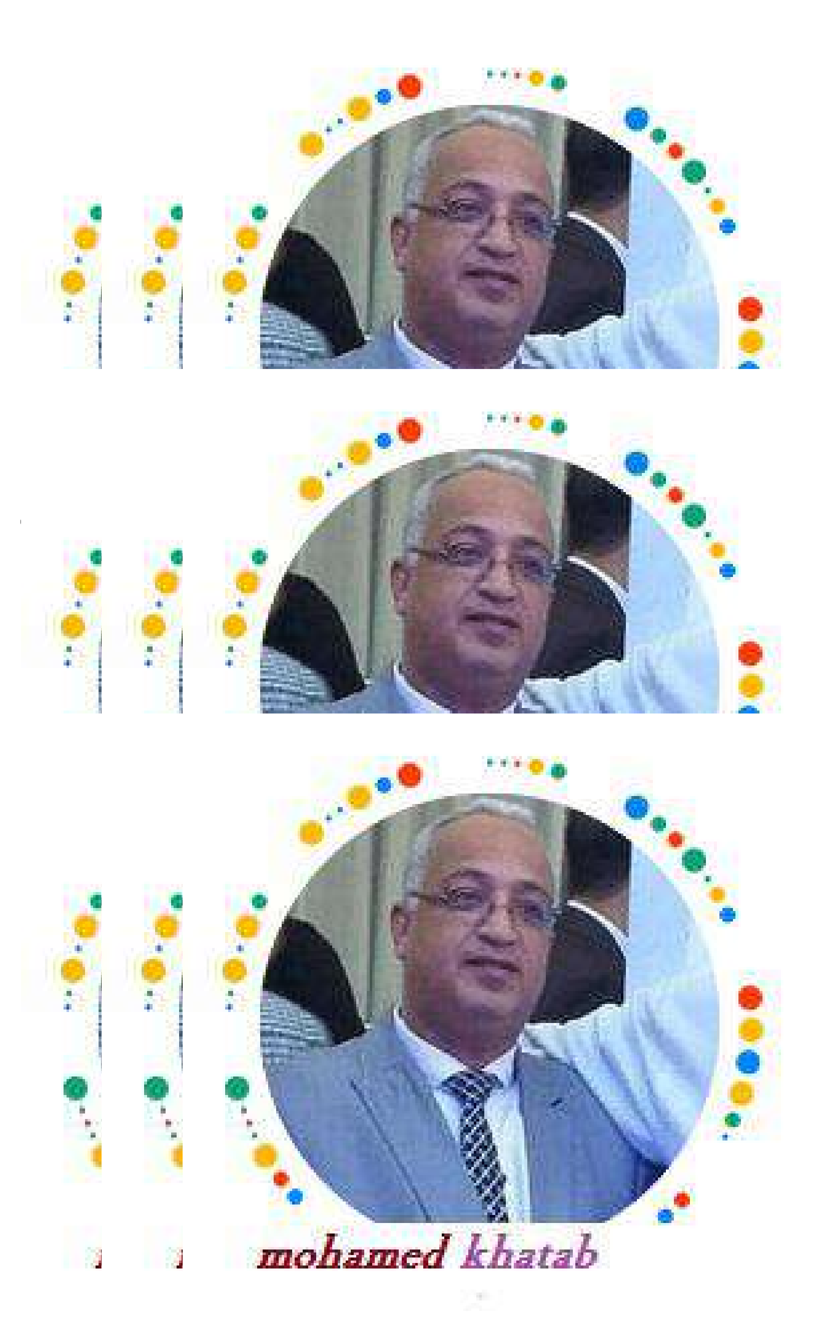
مكتبة | 1212

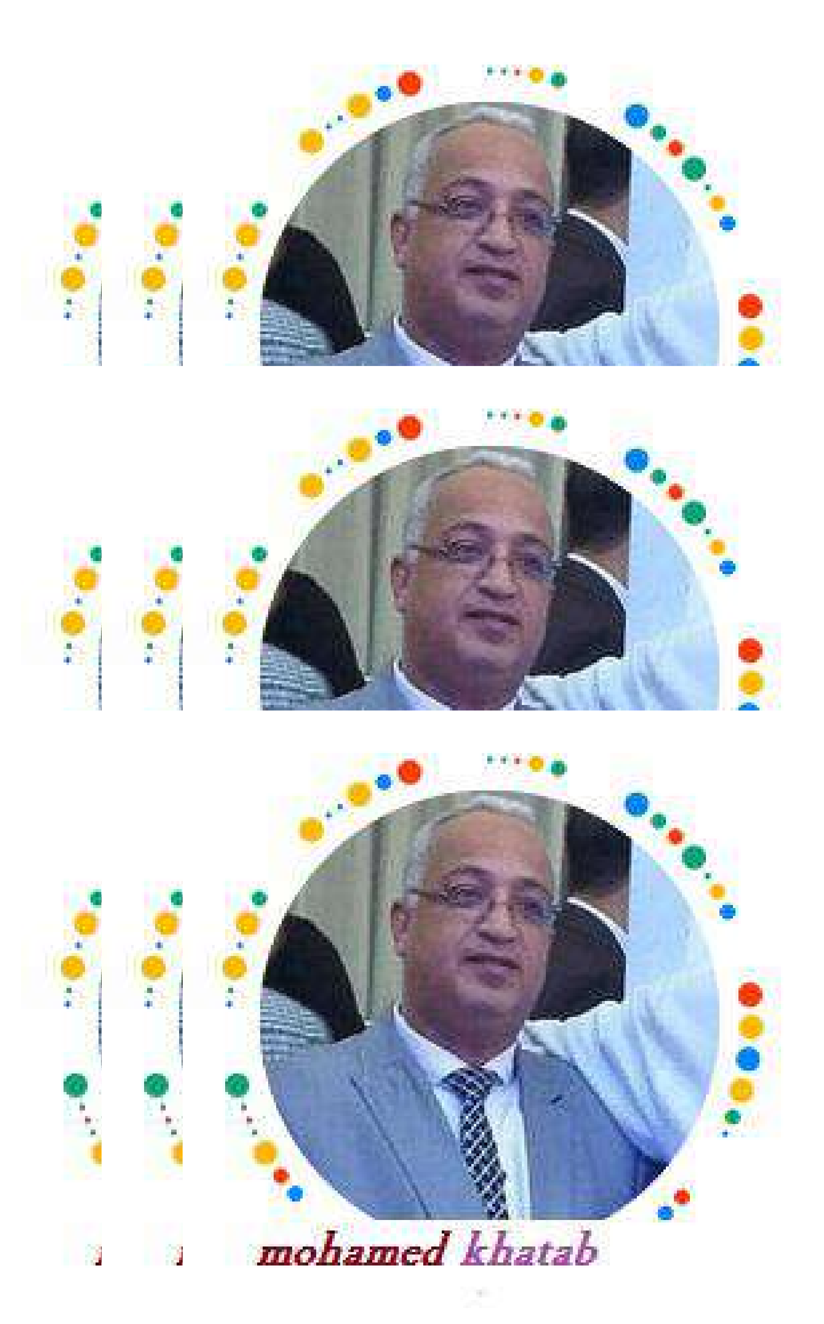
وستكتشف الكنز الذي بداخلك

رواية

ترجمة: محمد المزديوي




mohamed khatab


mohamed khatab

ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذي يؤدي
إلى الحياة، وقليلون هم الذين يجدونه.

متّى VII، 14

الجزء الأول

وَلاَ تُشَاكِلُوا هذَا الدَّهْرَ،
بَلْ تَغَيَّرُوا عَنْ شَكْلِكُمْ
بِتَجْدِيدِ أَذْهَانِكُمْ.

رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية، XII، 2



1

لم تستطِع أليس أن تحبس تنهيدة ارتياح وهي تُعيد سماعة الهاتف إلى مكانها. تمّ اختيار المكتب المختصّ في التواصل، الذي تشتغل به، من طرف القطريين في الانتقاء الأوّلي. عُرضت المناقصة بشكل متكتّم منذ ستة أشهر. كانت الوكالة القطرية الدولية للترويج تبحث عن شريك غربي ليشتغل على تلميع صورة البلد وإزالة الشكوك حول تمويلها للقاعدة.

خمسة، خمسة مكاتبَ تمّ اختيارها في الانتقاء الأولي، مكتبين أميركيين، واحد إسباني، واحد ألماني، والفرنسي. نسبة الفوز واحد على خمسة. كانت أليس أكيدة من نجاحها.

تنفّست بعمق وتمدّدت على كرسيها. أدارت الكرسي نحو الواجهة الزجاجية الكبيرة في مكتبها والتي كانت تعكس صورة المرأة النشطة، بذلة مفصلة بدقّة تتناقض مع الشعر البني الطويل المجعد. أطفأت مصباح المكتب فانمحى انعكاس صورتها. في الطابق الثالث والخمسين من برج مونتبارناس، كان المرء يخال نفسه معلقاً في السماء، سماء نهايةِ ظهيرةٍ داكنة تتلاشى فيها بعض السّحب المتفرقة. عند سفح البرج، المدينة الصاخبة والحيّة، بعض الأنوار

التي بدأت تضيء تقريباً في كلّ مكان من آلاف المباني التي تمتدّ على مرأى البصر وتأوي ملايين الناس. في ساعة الخروج من المكاتب تلك، كانت الطرقات تزدحم بالسيارات، وتمتلئ الأرصفة بنقط صغيرة ضئيلة تتحرّك ببطء. نظرت أليس إلى تلك الجماهير وهي تبتسم. يوجد أناس يجب إقناعهم، توجد تحدّيات يجب مواجهتها، توجد إثارة يجب اختبارها... منذ أن أصبحَت ترتاد دورات التنمية الذاتية عند توبي كولينز، اكتسبت ثقة بالنفس أتاحت لها الحصول على بعض الرضا في العمل على الرغم من أجواء المنافسة المتوترة.

تنفست مرة أخرى وأحسّت بالاسترخاء. في تلك الساعة، كان تيو مع المربية في البيت. كان بول سيتأخر في العودة، مثل كلّ ليلة. ربما ستكون قد نامت عندما ستحطّه سيارة الأجرة أمام المبنى. بماذا ستعيش سيارات الأجرة التي تشتغل ليلاً لولا الخروج المتأخر من مكاتب المحامين؟

تحيا العطلة، قالت لنفسها، كي يكونوا مع بعضهم. إذا فاز فريقها بالعقد القطري، ستحصل على علاوة، هذا أكيد، أو مكافأة كبيرة. لا يمكن أن يرفضوا لها ذلك. حينئذٍ ستمنح نفسها رحلة عائلية كبيرة. لمَ لا أستراليا، صراحة؟ أستراليا... حلم مراهقةٍ، لم يتحقّق بعد.

رنّ الهاتف، كان والدها.

- أنا في المكتب، بابا.

- حبيبتي، هل ستأتين إلى كلوني، في نهاية الأسبوع؟

- أجل، بلا شك.

- إنه خبر جيد! هل سيأتي بول أيضاً؟

- إن لم يكن عنده شغل كثير، من نوع جولة الزبائن في فرين أو فلوري-ميروجي. وإذا قَبِلَ التغيّب عن درس الرسم يوم السبت، شغفه الوحيد بالإضافة إلى السجون.

- أبلغيه سلامي، قال وهو يضحك. لقد التقيت جيريمي هذا الصباح. يبدو بحال سيئ للغاية. والدته قلقة، وهي تحدّثني عن ذلك طيلة الوقت. لو جئت في نهاية الأسبوع، ربما كان بإمكانك أن تحاولي مساعدته.

جيريمي بحال سيئ؟ غريب أنها لم تلحظ ذلك خلال نهاية الأسبوع الأخيرة في بورغوندي. جيريمي... بقامته الممشوقة، وشعره الأشقر الداكن، وعينيه الزرقاوين الصافيتين، وملامحه الدقيقة والوديعة التي توحي بكثير من الطيبة. تراءت لها طفولتهما معاً في كلوني... المطاردات في الدير، الرهانات المتعدّدة التي كانا يطلقانها، دائماً مع المكسب نفسه: قبلة يوم رأس السنة. والضحك الصاخب بين كروم العنب خلال موسم الحصاد، عندما كانا يختبئان لتذوّق العنب بدلاً من جمعه. قبلتهما الأولى بطرف الشفتين في سن التاسعة - بمبادرة منها، وهو، الذي احمرّ مثل طماطم العم إدوارد. كانا يحلمان بالسفر معاً إلى الطرف الآخر من الأرض، هناك حيث يسير الناس ورؤوسهم إلى أسفل، إلى أستراليا. أستراليا دوماً...

مسكين جيريمي، كانت حزينة لأنه ليس بحالٍ جيد. كان الجميع قد اندهش من قراره الراديكالي. بعد دراسات تمّت على ما يبدو من دون قلق، تخلى عن كلّ شيء، هكذا بعد أن حصل على شهادته الجامعية في التنمية المستدامة، غيّر مساره تماماً...

جيريمي. كان دائماً موجوداً إلى جانبها. ساندها عندما فقدَت والدتها وأفضل صديقة لها تباعاً، قبل عدة سنوات، قبل أن تلتقي

بول. كان الحداد قد أثار عندها أزمة وجودية حقيقية. وهو أنصتَ إليها بصبر ملاك، وقدَّم لها الدعم العاطفي، مساعدة حقيقية.

أرادت أن تساعده بدورها، أن تفعل شيئاً من أجله. أجل، لكن ماذا؟

أخذَت نفساً عميقاً، وتطلَّعت إلى الجماهير عند قدميها. وظيفتها كانت إدارة الأزمات، وليس العلاج النفسي.

* * *

صرّ الباب الثقيل على مفصلاته، متردّداً في أن ينفتح. تسلّل جيريمي خارجاً وتركه ينغلق في صوت مكتوم كأنه باب سجن. اتّجه يميناً في زقاق نوتردام واستنشق الهواء العليل في ذلك اليوم الجميل من شهر مارس. تحت قدميه، كانت الأرضيات تأخذ لوناً ذهبياً في الشمس.

في زاوية شارع سانت أوديل، بدا مقرّ المالية الخالي من الزينة بنوافذه المشبَّكة نائماً قبالة محل **تابا دي زار** الذي وصل فيه صف الراغبين في شراء أوراق اللوتو إلى حوالي اثني عشر شخصاً. بعد الضريبة الإجبارية، الضريبة الاختيارية.

واصل جيريمي السير في الزقاق إلى شارع لامارتين، الشارع الرئيس في هذه المدينة الجميلة الصغيرة، كلوني، ذات الجدران الفاتحة والواجهات الملوّنة. أحصى بشكلٍ تلقائي ستاً وثلاثين زبوناً يشربون القهوة على شرفة مقهى **لا ناسيون**. القهوة تحافظ على الذهن متيقظاً دون أن توقظه بالفعل.

بعيداً شيئاً ما، في طابور الانتظار أمام اللوتو في كشك السجائر الثاني، أربعة عشر شخصاً يستعدون للرهان على الحظ من أجل تحسين ظروف حياتهم المعيشية.

عدّ جيريمي اثنين وعشرين زبوناً عند **دوباكيي**، مموّن اللحوم الذي كانت تتسرّب من محله روائح قادرة على إغراء أعتى نباتي، وأيضاً حوالي اثني عشر يتذوقون قطعة جبن مع كأس من النبيذ عند **بانيي فواياجور**.

عاد أدراجه واستلم الشارع. كانت الشمس المنخفضة تظهر عضادات الحجر المنحوت القائم والركائز والأعمدة وتيجان الأعمدة وغيرها من عناصر واجهات العمارة الرومانية. الكثير من الناس أيضاً عند وولف، اختصاصي العيون الممتاز، من دون شك باحثين عن رؤية أفضل. لكن هل سيرون بشكلٍ أوضح في حياتهم؟

كان هناك ثلاث وأربعون شخصاً يجلسون في شرفة **جرمان**، بائع الحلويات والشوكولاتة الذي تصل سمعته أبعد من بوجوليه. ابتسم جيريمي. يستسلم الإنسان لشغف الأكل عندما لا تفكّر روحه سوى في ترضية الجسد.

انحرف جهة اليمين في الشارع الرئيس ناحية الدير، مرّ أمام مقهى **لو كافي دو سنتر** الذي يعود ديكوره إلى الحقبة الجميلة، حيث أحصى ثمانية وعشرين زبوناً متفرقين بين الشرفة والصالة. هواة النبيذ يبدون أيضاً أكثر عدداً في **سيليي دو لاباي**. عندما وصل إلى ساحة الدير، دار حول شرفة **براسري دو نور** الشاسعة، المليئة -على الأقل سبعين زبوناً-، ثم مشى في شارع 11 أغسطس 1944، شارع ميرسيير وشارع دو لا بار. وكالة الأسفار تَعِد زبائنها باكتشاف آفاق جديدة، الشيء الذي جعل جيريمي يبتسم.

قبالته، كان هناك أيضاً جمهور في **أو بليزير دي فان**، مكان آخر يقدِّم النبيذ، هذا السائل الذي يُغير حالة الوعي دون أن يتوصل أبداً إلى السمو بها.

يُفضي الشارع على بُعد بضعة أمتار أخرى إلى ساحة الكنيسة المشمسة. بعض أبناء الرعية يثرثرون في الفناء. حياهم جيريمي في مروره ثم دفع الباب المبطن. انغلق خلفه في صوت مكتوم كأنه منفاخ بينما كان يدخل إلى الفضاء البارد.

في الداخل، تتخلل الجو المظلم رائحة حجر رطب لوّنه البخور. اجتاز جيريمي صحن الكنيسة من الجانب المنخفض وتوجّه إلى المذبح الرئيس. لم تزعج خطواته الصمت الذي كان يسود في المبنى. تسلل إلى الموهف ثم انتظر في الظلام. رنّت الأجراس واستمع إلى رنينها، حتى آخر رنة دوت طويلاً تحت الأقبية الحجرية العالية. توجّه ببطء نحو المذبح المقابل للجمع. كانت الأعمدة التي تتطاول نحو القباب، وتسحب النظر والفكر نحو الأعلى، تنتصب الواحدة بمحاذاة الأخرى في اصطفاف جليل، ملتقية في أقواس ضخمة على طول صحن الكنيسة. كلّ شيء في الكنيسة كان يبدو عملاقاً، يرسم فضاء شاسعاً في جوّ مقدّس. الجوانب المنخفضة وحتى الجزء الأوسط من الصحن كانت مظلمة، لكن عندما يرفع المرء عينيه يجد الضوء، ضوء ساطع يغرق القباب بوضوح غير طبيعي.

نقل جيريمي بصره بين جمع الأوفياء.

اثنا عشر.

اثنا عشر شخصاً أخذوا أماكنهم على الكراسي.

متفرقين في الصفوف الأولى.

بدأ القداس.

2

بعد القداس، رافق جيريمي أبناء الرعية إلى الفناء. كانت الشمس تنعكس على الأرضية المشكّلة من بلاط مترابط بشكل سيئ وتضيء الواجهات التي تعود إلى القرون الوسطى الموجودة في الساحة الصغيرة. أحاطت به سيدتان متقدِّمتان في السن وتبادلتا معه الحديث حول بعض الأعمال الخيرية. اقترب منه فيكتور، صانع النبيذ المتقاعد، وقدَّم له علبة.

- تفضل، أيها الأب، دعني أهديكَ هذه.

كان الجميع في كلوني يعرفونه. كانوا يطلقون عليه «صاحب القصر». كان يُرى من بعيد بفضل هيئته المهيبة رغم أنه لم يعُد يساير الموضة، سترة من التويد تحمل شارات في الظهر، ملامح بارزة، شعر أبيض متمرد على طريقة كارايان(*). بعد أن أصبح أصمّ تقريباً، أصبح يعوض ذلك النقص بإظهار بعض السلطة لا تُخفي كرمه الفطري، وبعض الزيادة في الوزن تتيح له احتلال الفضاء رغم قامته المتواضعة.

(*) كارايان: قائد أوركسترا نمساوي (1929-1989).

فتح جيريمي العلبة.

- ساعة؟

- لا ترَ في هذا أية رسالة! لأني فقط لاحظت أنك لا تضع واحدة.

- لكنها ساعة جميلة...

- كيف؟

جاء صديقه إتيان لمساعدته رغم تأتأته. كان إتيان نحيفاً وقصيراً، له ملامحَ وديعة، كان يسرّح شعره العاجي على الجانب، وكانت له نظرة تعبّر عن لطف عميق. اجتماع أصمّ ومتأتئ كان أقلّ هزلية ممّا يبدو: كانت إعاقة إتيان الواضحة في المحادثات الخاصة، تخفّ عندما يضطر إلى رفع صوته كي يسمعه فيكتور.

- جناب الأب يقول لك... إنها... ج... جد جميلة! صاح في أذنه.

- آه... فرنسية، صنعت في فرانش-كونتي. إحدى آخر...

كان إتيان موظفاً سابقاً في صناعة النبيذ. كانت السنوات قد محت المسافة الطبقية، ومنذ التقاعد، كان فيكتور يقبل حتى أن يخاطبه بصيغة المفرد. كانت تحدث أحياناً مشادّات تافهة تجعل فيكتور يصبّ جام غضبه عليه، لكن ذلك كان يُضحك إتيان، الموهوب في التقليل من سوء سلوك رئيسه السابق. كانا هما الاثنان قد سلّما زمام أمور العمل للجيل الجديد. كانت ابنة صاحب القصر الكبرى قد عقدت شراكة مع ابن إتيان. في زمن الأبوين، كان النبيذ لاسعاً -كانت الألسن الخبيثة تقول إنهما لم يكونا يغسلان البراميل بشكل جيد- لكنه كان يُباع بشكلٍ جيد في حقبة كان فيها الفرنسيون يستهلكون النبيذ العادي. اليوم، لم يكونا ليستمرا. اشتغل الولدان

بجد لتحسين الجودة وكانا قد توصّلا إلى ذلك بفضل جهودهما المتواصلة. أصبح المنتج الآن يحظى بشعبية كبيرة في المنطقة، لكن سمعته بالكاد تتجاوز ماكون.

- شيء لطيف، قال جيريمي وهو يرفع صوته كي يسمعه الرجل.

- من عند براديل، شارع مرسيير أحد الساعاتيين الذين لا يزالون يعرفون كيف يفكّون ساعة من أجل إصلاحها...

- مرحباً، أيها الأب، قالت جيرمين وكورنيليا تقريباً في صوت واحد.

كانت جيرمين وكورنيليا امرأتان مسنّتان معروفتان بالقيل والقال، وكان الجميع يطلق عليهما لقب «المتزمتتان». جيرمين، عينان متّقدتان، شعر مصبوغ بالأسود، أنف قوي ومقوّس قليلاً، كانت مُولعة بارتداء التنانير الطويلة المشكَّلة من عديد من القطع من المخمل الداكن ترفقها بجوارب بيضاء تذكر بجذور شعرها. كورنيليا، كانت تذوب في المنظر الطبيعي بشخصيتها الشاحبة وكذلك بمظهرها: شعر مصبوغ باللون البيج المصفرّ، سترة باللون البيج، تنورة تميل إلى الطول بطيّات كثيرة باللون البيج، خفّان من الجلد البيج مليئان بالمسامير. كانت تسترسل أحياناً إلى حدّ أن تربط رأسها بحزام من القطيفة الخضراء.

حياهما جيريمي، ثم استأذن ودخل الكنيسة. اجتاز الصحن وهو يكنس بنظره كلّ المقاعد الفارغة، وعندما وصل إلى الموهف خلع رداء الكاهن. أثار انتباهه صوت أقدام مكتوم وحفيف طفيف من القماش. كانت واحدة من الراهبات اللواتي يعشن جماعة في جناح بيت القسيس. اقترب وسلّمها العلبة. قال لها:

- بيعيها وقدّمي ثمنها للفقراء.
أمسَكَت الأخت العلبة وهي تبتسم.

تذكّر كاهن آرس، الذي عاش في القرن التاسع عشر، كان الكاهن قد تصدَّق بساعةٍ تلقاها هدية. بعد أن علم صاحب الهدية بذلك قدَّم له أخرى، ثم أخرى، إلى أن فهم أن الكاهن لن يحتفظ بها أبداً. حينئذٍ قرَّر أن يعيره واحدة وأحسّ أخيراً بالرضا وهو يراه يضعها. كان جيريمي غالباً ما يعتبر كاهن آرس مُعلمه.

ولج جيريمي الدرج الضيق الذي يتصاعد في شكلٍ حلزوني ويقود إلى برج الجرس وصعد جميع الدرجات حتى وجد نفسه فوق برج الجرس، في المساحة الصغيرة في الهواء الطلق تحت القبة. غالباً ما كان يصعد لينعزل هناك، ليفكِّر قليلاً ويأخذ نفسه.

جلس على الحافة. الهواء العليل كان يعبق برائحة الطبيعة والأشجار. كانت الرؤية من هناك تشمل أسقُفَ كلوني، أَسْقُفاً يغطيها قرميد قديم تذكِّر ألوانه بقشرة فواكه الحب الحمراء، قرميد مسطح وقرميد دائري يذكِّر بالجنوب القريب. أحمر يتناقض مع الأزرق الساطع في السماء. من فوق، كانت الرؤية تصل إلى التلال التي تغطيها الغابات والتي تحيط بمدينة القرون الوسطى.

اثنا عشر شخصاً...

كان شاباً، وكانت الحياة أمامه، أن يكرِّسها لإقامة القداس من أجل... اثني عشر شخصاً. أخذ نفساً عميقاً صامتاً. هو الذي كان يرى نفسه يقود الناس على طريق الصحوة، يغذّيهم روحياً، يقودهم إلى الفرح... اثنا عشر شخصاً. لامَ نفسه على الفور بسبب تلك الفكرة، ألم يكن الكبرياء هو الذي يجعله يشتكي بهذا الشكل؟ ألم يكُن يحلم بأن يجلب نحوه جمهوراً وافراً من الأوفياء؟ هزّ رأسه.

لا، صدقه كان واقعياً، دوافعه خالصة، خالية من أية مصلحة شخصية. موهبة حقيقية. لكن كيف يمكنه أن يحقّق موهبته أمام حضور غير موجود؟ اثنا عشر فرداً في الرعية، أغلبهم عجزة، نصفهم يأتي بحُكم العادة، والنصف الآخر بسبب خوف خرافي، مع اقتراب ساعة الوفاة...

تبع جيريمي بعينيه طيران طائر طارَ فوق السقوف واختفى وراء برج جرس الدير الذي يمتدّ في السماء الزرقاء. الدير، أو بالأحرى ما تبقى منه. هُدِمَ جزء كبير منه خلال الثورة، استغله القرويون كمصنع حجر... عندما نعلم أنه كان في الماضي واحداً من أكبر المراكز المسيحية، من نظام ديني يسود على ألف ومائتي دير في كلّ أوروبا، يضمّ نحو عشرة آلاف راهب. كانت سلطة الدير مهمة، ترتبط مباشرة بالكرسي الرّسُولي وكان عددٌ من البابوات ينحدرون من كلوني. ماذا تبقى من ذلك اليوم؟ اثنا عشر وفياً ضائعين في كنيسة مهيّأة لأن تستقبل أربع مائة شخص.

استنشق الهواء النقي بعمق. في الأسفل، في الأسفل تماماً، كان الناس يظهرون بشكلٍ مصغّر وهم يمرون في الشارع التجاري والشوارع الجانبية. نظر إليهم مطولاً، وهو يفكّر في كلّ الأرواح التي يودّ أن يوقظها، لو فقط يأتون إليه. لكن من أجل هذا نحتاج إلى قفزة من الوعي، وابل من الوعي، الحدس بأنّ هناك شيئاً آخر غير المال والملذات العادية، والتسوق، وألعاب الفيديو، والجنس، والتلفزيون... هل لا يزال ذلك ممكناً؟ ارتسم لديه انطباع أنه أحد أخيري ممثلي ديانة في طريقها للانقراض، وكان إحساسه بعدم جدواه في ذلك المضمار يثقل عليه.

كثيراً ما فكر في زيارةٍ قام بها إلى أحد مناجم الفحم. كان ذلك

عندما كان لا يزال يتابع دراسته الجامعية في التنمية المستدامة. لم يكُن مدير المنجم يستوعب أنه يدافع عن طاقة من الماضي. واصلَ الرجل كأنّ شيئاً لم يكن، وتحدّث عن نشاطه كأنه يجهل أنّ عدد زبائنه يتضاءل أكثر فأكثر، وكذلك عماله، وأنّ منجمه في النهاية كان معرّضاً للاندثار. كان جيريمي قد أحسّ ببعض الشفقة تجاهه. واليوم، هو يتساءل إنْ لم يكن في الوضع نفسه. عدا أنّ الفحم كان ضاراً بالنسبة إلى الناس. كان المنجم يُنزِلهم إلى أحشاء الأرض وعندما يخرجون مساء، كانوا سوداً تماماً. أن يختفي ذلك ربما يكون دلالة على تطور إيجابي. لكن الروحانية، هي، ترفع الناس، تسحبهم نحو الأعلى. إذا اندثرت، ماذا سيبقى؟

تنهّد جيريمي. كان يشعر بالعجز، بالإحباط، بانعدام الهدف، ومع ذلك من ناحية أخرى، كان يقبل اكتئابه. في مكان ما، في داخله، كان يتنبأ بذلك، من الظلام الحالك ينبع الضوء.

3

انغلقت الأبواب بعد أن دخلت جارة الطابق الأسفل وواصل المصعد هبوطه. شقراء، مظهرٌ اشتغلت عليه، كي لا نقول عنه مصطنع. حدَّقت أليس في الأعداد المضيئة وهي تشعر بالغضب، ضغطت على يد ابنها الصغيرة. لماذا ابتسم زوجها بذلك الشكل لتلك الفتاة؟ من السهل على المرأة أن تكون جميلة عندما لا يكون عندها طفل ترعاه، عندما تستطيع أن تخصِّص نصف مرتَّبها للثياب، وساعة ونصف الساعة في الصباح من أجل الزينة. وزوجها الذي يقع في الفخ. شيء لا يُحتمل.

انفتحت الأبواب في الطابق الأرضي. أدارت الفاتنة كعبها العالي خارجة، كانت تعلق حقيبة يدٍ صغيرة تحمل علامة غوتشي على كتفها. سحبت أليس ابنها وحقيبتها دلسي نحو موقف سيارات الأجرة. تبعها بول، يحمل حقيبة سفر في يد، وهاتفه المحمول في اليد الأخرى، يقرأ بريده الإلكتروني أو الصحافة على المباشر خلال السير.

بعد ساعتين، كانا يركنان السيارة التي استأجراها في محطة القطار فائق السرعة في ماكون قرب بيت والدها، في كلوني. كان

البيت يعود إلى القرن الثامن عشر، نوافذ بيضاء مرتفعة على شكل مربعات، مصاريع باللون الأخضر بروفانس، وواجهة جميلة من الجير الوردي الفاتح تغطيها نباتات الوستارية. هرع تيو وتحمّس ضاغطاً على الجرس. فتحَ الجدّ الباب فتسلّل الطفل بين ساقيه.

- الأرجوحة تهمه أكثر مني، قال العجوز وهو يضحك. هل كانت رحلتكم جيدة؟

قبَّلت أليس والدها. صافَحَه بول. في كلّ زيارة، كانت سعيدة وهي تجده يتمتّع بالسكينة رغم تقدّمه في السن. كان وجهه مشعاً، ترصّعه العديد من التجاعيد وتمتدّ حول بؤبؤين أزرقين، تحت شعر أبيض رقيق.

دخلا وسلّما على مادلين، والدة جيريمي، التي كانت تمسك فنجان شاي في يدها. اختفى بول في الطابق مع الأغراض.

- لن أبقى، قالت مادلين وهي تنهض. سأترككم لوحدكم.

- لكن، لا، ابقَي! قالت أليس.

- لن أزعجكم بحكاياتي. كنت أتحدث مع والدك عن همومي بشأن جيريمي. أنا قلقة من أجله، تعرفين...

توجّهت نحو الباب.

- حدَّثني أبي قليلاً عن ذلك.

عندما وصلت إلى الباب، استدارت العجوز ونظرت إلى أليس، وهي تفكر، وابتسامة حزينة على شفتيها.

- عندما نعرف أنه كان ممزّقاً بين حبه للرب وحبه لك... علاوة على أنه كان يبجّلك كمعبودة! لو فقط اخترتِ أنت، لم يكن ليكون في هذا الوضع.

أحسّت أليس بالذهول ونظرت إليها وهي تنصرف.

- هل تشربين الشاي، عزيزتي؟ ناداها والدها من الصالون.

- سآتي.

مرّ كل شيء في ذهنها بسرعة كبيرة. حضرتها ذكرى شيء حدث قبل عدة سنوات، مجرد ذكرى باهتة، كان جيريمي قد حاول إثارة اهتمامها في الواقع. لكن بطريقة خرقاء. لكن هي لم تلعب بمشاعره، لم تمنحه أملاً، كانت جدّ مرتبطة بصداقتهما، لم تسمح أن تتطور العلاقة على مستوى آخر. لم يكن ردّ فعله سيئاً، لم يُظهر أيّ عاطفة معيّنة، واستمرّت صداقتهما بالفعل كأنّ شيئاً لم يحدث. مجرّد انجذاب عابر، خَلُصت إلى القول. في سن يفكّر فيه المرء أنه يقع في حبّ كلّ مَن يتعامل معهم بسهولة. كانت بعيدة عن أن تتخيّل أنه كان متيَّماً بها إلى تلك الدرجة. في أيّ فترة حصل ذلك؟ ربما قبل دخوله إلى المدرسة الدينية، في الواقع.

عضّت أليس على شفتيها بعصبية.

فكَّرت في الأزمة الشخصية التي عاشتها، في وقتٍ لاحق، وقت الحداد. بعد وقت قليل من ذلك، في نهاية المطاف. كان جيريمي قد ساندها، استمع إليها، ساعدها... كأنّ شيئاً لم يكن، رغم حبّه المحبط.

- تفضلي عزيزتي، الشاي.

- شكراً بابا.

قرَّبت أليس فنجان الشاي بشكلٍ تلقائي إلى شفتيها وأحرقت لسانها. عمياء، هذا ما كانت عليه. عمياء عن مشاعر جيريمي في الماضي، والآن هي عمياء عن اكتئابه. كانت تلتقي به بانتظام، خلال نهايات الأسبوع في كلوني، دون أن تلحَظ شيئاً أبداً. لا شيء. شغَلَتها حياتها المهنية عن أقرب أصدقائها...

اكتشفت فجأة أنها كانت أنانية. تذكَّرت بقلبٍ منقبِض الحرارة التي استقبل بها زوجها. رجل قديس، جيريمي. هي بدورها يجب أن تساعده، أن تفعل شيئاً من أجله. أيّ شيء، كي يتحسّن حاله. هو يستحق ذلك، وهي تدين له بذلك.

* * *

إلى أين تأخذينني؟ سألها جيريمي ضاحكاً. لستُ معتاداً على أن أختطف عند خروجي من الكنيسة!

انطلقت السيارة البوجو الحمراء المستأجَرَة بسرعة كبيرة عبر الطريق الزراعية وهي تخرج من كلوني.

- إلى شابيز. **سان مارتان**.

- نذهب إلى شابيز فقط من أجل الغداء؟

- هيا، إنها ليست نهاية العالم، سنصل خلال ربع ساعة. سننعم هناك بهدوء أكثر ممّا هو متاح هنا في كلوني حيث الجميع يعرفك.

- هل ستلحق بنا عائلتك؟

هزّت أليس رأسها.

- بول يستريح في البيت. هو يعلّم تيو مبادئ الرسم، شغفه الوحيد بعد القانون.

بعد عدّة دقائق، كانت السيارة الصغيرة تجتاز الريف كثير التلال، بساتين الكروم المتوّجة بالتلال المشجّرة. أنزلَت أليس زجاج النافذة. تسرّب الهواء المعطّر إلى الداخل.

ركنت السيارة في مدخل القرية الهادئة وتجوّلا سيراً على الأقدام قبل أن يجلسا في الشمس على شرفة **سان مارتان**، مباشرة قُبالة الكنيسة الرومانية ذات القبّة المربّعة المنتصبة نحو السماء.

كانت شابيز قرية أصيلة ذات بيوت عتيقة من الحجر، بعضها يغطيها الجير على الطريقة القديمة والألوان الهادئة، منمّقة في كثير من الأحيان بصالات عرض وغرفٍ علوية تغطّيها نبتة الوستارية أو الجريسات.

- هل تأتين هنا في كثير من الأحيان؟ سألها جيريمي.

- غالباً، أجل. أعشق هذا المطعم!

أحضر لهما النادل في الحال نبيذاً أبيض مختاراً. في البورغوندي، من العادة أن يُشرب كفاتح للشهية.

رَفَعت كأسها.

في صحة خطيئة الشَّرَه التي سنرتكبها اليوم. قرعت كأسها بكأسه وارتشفت جرعة. ممممم... رائع.

- أفترض أنه أفضل من نبيذ القداس؟

اكتفى جيريمي بالابتسام.

عمّ الصمت.

- لقد التقيتُ والدتَك...

لم يُبْدِ أيّ ردّ فعل.

- هي... قلقة من أجلك.

- الأمهات يشعُرن دوماً بالقلق.

صمت.

من الجهة الأخرى من الشارع، رنّ جرس الكنيسة رنة واحدة، واستمرّ صوت الصدى فترة طويلة، إلى أن خبا شيئاً فشيئاً. عمَّ القرية هدوء كبير، وطغى إحساسٌ بأنّ الوقت قد توقف. في نهاية شهر مارس، كان الهواء بارداً، لكن الشمس الساطعة تدفئ الوجوه بلطف، كما كانت تدفئ الحجارة الشقراء في برج الجرس.

انتظرت لحظة طويلة بصمت، ثم أعلنت:

- أنا أيضاً قلقة بشأنك.

- كلّ شيء على ما يرام، أجاب بسرعة كبيرة.

قطّبت أليس.

- جيريمي، لا يحتاج المرء لأن يكون طبيباً نفسياً كي يرى أنّ الأمور ليست على ما يُرام...

بقي صامتاً في البداية، لكن مهارة أليس تغلّبت في نهاية المطاف على تحفّظه. أسرَّ لها باستيائه، وغياب الدافع عنده الذي يرجع في المقام الأول إلى تقلّص عدد المؤمنين الشيء الذي يحدّ تماماً من وظيفته ويجعلها تقتصر في نطاق تافه يُشعره بأنه عديم الفائدة. تحدّث أيضاً عن عجزه، انطباعه أنّ رسالة المسيح لا تمرّ، وأن جزءاً من أبناء الرعيّة لا يدرجونها في حياتهم اليومية.

تركته أليس يتحدث، لا يسعها سوى أن تتعاطف مع بطالته، مَن في الواقع، يستطيع أن يواصل القيام بمهمة فائدتها غير أكيدة؟

عندما انتهى، عمَّ الصمت، ولم يأتِ شيء في البيئة الهادئة ليكسره. بَدَت الكنيسة المقابلة نائمة، رغم أنّ الشمس كانت تُنيرها بسخاء.

- أستطيع أن أفعل شيئاً من أجلك، قالت أليس. لو سمحتَ لي، سأعيد النظر بشكلٍ كامل في استراتيجية التسويق خاصتك. إنها وظيفتي.

- استراتيجية التسويق خاصتي؟!!

كادَ يختنق.

- هذه ليست كلمة فاحشة، وأنت تعرف...

- الأمر يتعلق بكنيسة، أليس، وليس بشركة. وليس عندي شيء أبيعه.

- أريد فقط أن أدرس الطريقة التي تتحدث بها إلى الناس، وأرى كيف يمكن أن أكيِّفها مع توقعاتهم.

- مع توقعاتهم؟ قال من مسافة معينة.

- اسمع، توجد بالتأكيد وسيلة لأن نفعل شيئاً، والوصول إلى التأثير في الناس بالتصرف بشكل مختلف.

رفع جيريمي حاجبه وابتسم بحزن.

- أنا متأثِّر للُطفكِ، لكن كيف يمكنكِ أن تساعديني في هذا المجال الذي هو مجهول بالنسبة لك تماماً؟ أنت حتى غير مؤمنة...

قطّبت أليس.

- لا مشكلة، كذبت. أنا متعوّدة على التدخل في مجالات غير معروفة. إنها خصائص مهنتي. أنا بحاجة إلى قليل من الحيلة فقط.

أمام هيأته المرتابة، أضافت:

- هل تعتقد أني متخصِّصة في اللازانيا؟ في الشطائر المدهونة؟ في السيارات؟ لا. لكن ذلك لم يمنعني من أكون مستشارة فيندوس في فضيحة اللازانيا بالحصان، فيريرو للفَتالات في نوتيلا، وفولكس فاغن بالنسبة إلى التزوير في قضية الانبعاثات الملوثة.

- أشكركِ لتشبيهي بالحالات الميئوس منها...

أجبرت أليس نفسها على الابتسام، ثم أخذت كأسها وارتشفت رشفة وهي تنظر إلى جيريمي.

- على أيِّ حال، هذه الأمثلة التي تذكرينها هي مشاكل ناجمة عن بيع منتجات. هذا شيء ملموس، مادي. أنا لا أعتقد أنكِ موهوبة في الأمور الروحانية. الروحاني لا علاقة له بالمادي.

أحسَّت أليس بالغيظ إلى درجة كبيرة. مَن يعتبرها؟ مجرّد واحدة تصلح فقط للاهتمام بالعجين والدهن؟

هي التي كانت فخورة جداً بوظيفتها كمستشارة، هي التي كانت تحظى بالاحترام في مجالها، هي التي كانت تفاوض من أجل الحصول على عقدٍ دولي ضخم. هي التي كانت تشتغل يومياً على صياغة نصائح تخصّ آلاف العملاء...

- ذكِّرني كم عدد المؤمنين الذين يأتون عندك؟

هزَّ كتفيه دلالة العجز.

- لا شيء يمكن فعله. إنها قضية خاسرة، انسي.

شعرَت كأنها طفلة تعتقد نفسها قادرة على أن تعبُر البحيرة سباحة، ولكن الآخرين يُفهمونها بأنها مخطئة تماماً.

آخر مرة توقع لها شخص الفشل كانت عندما دخلت إلى مكتبها متدرِّبة. يومها تجرّأت على تقديم مقترحات من أجل أحد العملاء، في حين أنه كان من المفترض أن تكتفي بتحرير تقارير الاجتماعات. تمّ تذكيرها بلُطف بحجمها، لم يكُن اقتراحها متماسكاً، لن يوافق عليه العميل. ألحّت، مقتنعة بقيمة أفكارها، وناضلت كي تحصل على حقّ تقديمها للعميل. هذا الأخير لم يكتفِ بقبولها، لكن تنفيذها حقّق نجاحاً باهراً. انتهت فترة تدريبها بالتشغيل.

أنا لا أعتقد أنك موهوبة في الأمور الروحانية.

شيء يصعُب تحمّله...

- امنحني شهرين، وسأجد طريقة نضاعف بها عدد الأوفياء!

رفَعَ عينيه.

- لا أرى كيف يمكن أن تقومي بذلك، وحتى لو... المرور من اثني عشر إلى أربع وعشرين لن يغيِّر شيئاً كثيراً، تعرفين...

نظرَت مباشرة في عينيه.

- مائة! تلتزم باتِّباع نصائحي، وسأجلب لك مائة شخص إلى الكنيسة!

تنهَّد بحزن.

- أنتِ مخطئة، أليس. شيء مستحيل. أنتِ تتوهّمين تماماً. لسنا في سوق الشغل، هنا.

ما تفعلينه في الأعمال التجارية لا يسري على الكنيسة.

كلما شكَّك في مقدرتها، كلّما شعرت بالرغبة العاصفة لإظهار مواهبها.

- أنا أراهن على تمكّني من ذلك.

- لا أرى كيف ستتصرفين، على ماذا يمكن أن تركِّز نصائحك...

- لا يزال الوقت مبكراً لأقول لك. لكني سأجد كيف، إنها وظيفتي.

لم يُجِب بشيء.

- تراهن؟

- مع ما يتمّ جمعه من تبرعات، بماذا تريدين أن أراهن؟

منَحَتْه أفضل ابتساماتها.

- قبلة رأس السنة!

ابتسم بطريقة حنينية وانتهى بأن تمتم:

- موافق!

صبَّت النبيذ لكليهما وقرَعت كأسها بكأسه.

سكبت جرعة وهي تحسّ بالرضا لأنها تمكَّنت من إقناعه.

الآن، يجب أن تشمِّر عن ساعديها. تساءلَت عن الكيفية التي

ستتعامل بها مع المسألة. كان المجال جديداً بالنسبة لها، والتحدي أكبر، كما قدَّر جيريمي ذلك. لكن المشكل الرئيس كان في مكان آخر...

كيف ستعترف له بذلك؟

شربت جرعة أخرى.

هي لم تكُن ملحدة فقط، ملحدة بحقّ، لكنها كانت أيضاً حساسة لكلّ ما له صلة بالدين. كانت تمقت الممارسات الدينية، وتشعر بعدم الارتياح بمجرد أن تطأ قدماها إحدى الكنائس.

4

طيب، في البداية، يجب أن تحصل على الكتاب، لتعرف عن ماذا يتحدّث بالضبط. لكنها لن تتفحّصه في الحافلات، ولا وهي تنتظر عند الحلاق، أو عند طبيب الأسنان، وأقل منه في مكتبها. قراءة ورقة الشركة أو ملف زبون، لا مشكلة، لكن أن تُخرج الكتاب المقدّس، في العلن، شيء غريب، ستحسّ ببعض الخجل. . .

ثم وجَدت الحل، بعد أن حصلت على نسخة بواسطة المسح الضوئي للكتاب الذي يتركه بول مرمياً في البيت كلّ مساء، بعد أن تحسَّست قليلاً كي تضبط شكله، طبعت غلافاً، حصلت على تمويه كامل.

مساء يوم الاثنين في المكتب، بعد أن اضطرّت للبقاء إلى حدود السابعة مساء كي تلمّع صورتها رغم عدم وجود أيّ نشاط، أخرَجَت من حقيبتها كتاباً أحمر، مختوماً من دار النشر دالوز، مع عنوان كبير بالأبيض، القانون المدني، وبحجم صغير مقتطف من المادة 716 سلط عليه الناشر الضوء في زاوية: «تعود ملكية كنزٍ ما لمن يجده في عقاره الخاص. . .». في الداخل أيضاً، المظهر الخادع نفسه، صفحات رقيقة شبيهة بالأصلية، شكل النصوص نفسها المصفوفة

على طريقة الأعمدة. كان يجب أن يستغرق المرء في قراءتها كي يكتشف التحايل، حيث سيجد الشريعة بدل التشريعات.

بعد ساعة، سقطت شبهُ متهالكة على مكتبها، وعيناها مستغرقتان في القراءة، عضَّت أليس على شفتيها بعصبية، على حافة اليأس. لو لم تكن قد فرضَت على نفسها مهمة مساعدة جيريمي، لكانت ضحكت. وجدت النص أخرقَ، محزناً، نسيجٌ من الحماقات، لا رأس لها ولا ذيل، مفاهيم لا يمكن تطبيقها، هذا عندما لا تكون منحرفة...

كيف يمكن أن تفي بوعدها؟

طُوبَى لَكُمْ إِذَا عَيَّرُوكُمْ ، يقول المسيح.

طيب. أن تعبِّر، هذه هي السعادة، لا؟ نحلم بذلك كلّ يوم...

طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ.

صحيح هذا، لماذا يُتعب المرء نفسه على مقاعد الكلية إلى سنّ الخامسة والعشرين ليكوّن عقله ويقوّي روحه، في حين يكفي ألّا يتوفر المرء على عقل وروح ليكون سعيداً! على أيّ حال، شيء معروف: من دون عقل، لا أحد يشكّ في مصداقيتك، لا أحد يحاول استغلالك، لا أحد يسخَر منك...

لَوْ ضَرَبَكَ أَحَدٌ عَلَى خَدِّكَ اَلْأَيْمَنْ فَأَدِرْ لَهُ اَلْأَيْسَرْ.

بطبيعة الحال... كيف لم أفكِّر في ذلك من قبل؟

قَبْلَ السُّقُوطِ تَشَامُخُ الرُّوحِ.

هيه، كأنه آخر إصلاح في الإعدادية.

مَا أَعْسَرَ دُخُولَ ذَوِي الأَمْوَالِ إِلَى مَلَكُوتِ السموات.

سبب وجيه ليحاول المرء أن يصبح غنياً، قالت أليس في نفسها: لستُ مستعجلة على الذهاب إلى السماء! إذاً، باختصار، كي يكون المرء سعيداً، يجب أن يكون مغفّلاً، أن يتعرَّض للإهانة، أن يترك الناس يدوسون على قدميه، أن ينحني، ويصبح فقيراً. برنامجٌ كامل.

قَبْلَ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيم، أَنَا كَائِن.

قبل أن يكون إبراهيم... أنا كائن؟؟؟ هنا... قواعد النحو لم تكن من اختصاصه.

عِنْدَمَا سَتَجْعَلُونَ الاثنين وَاحِدْ...

طيب، ولا الرياضيات.

لِيَكُونَ الْجَمِيعُ وَاحِدًا، كَمَا أَنَّكَ أَنتَ أَيُّهَا الآبُ فِيَّ وَأَنَا فِيكَ.

كأننا أمام تلقيح متبادل بين حلزونين خنثيين.

عِنْدَمَا تَتَعَرَّوْنَ دُونَ أَنْ تَشْعُرُوا بِالخَجَلْ، فَتَخْلَعُونَ ثِيَابَكُمْ وَتَضَعُونَهَا تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ وَتَدُوسُونَهَا، عِنْدَئِذٍ سَتَرَوْنَ ابْنَ الحَيِّ...

كان يريد فتح نادٍ طبيعي؟ إذاً على ماذا نلوم الكرادلة الذين رأيناهم السنة الماضية عراة في ساونا للشواذ في روما؟

- هل لديكِ مشاكل قانونية؟ سألها رشيد، زميلها الذي يشاركها المكتب.

هزّت رأسها لكنها تشنّجت قليلاً على قانونها المدني.

- هذا من أجل أحد العملاء.

- على ماذا تشتغلين في هذا الوقت؟

- شيء قديم يجب إحياؤه من جديد.

- آه . . . من نوع شارانتيز(*)؟ أنا أشتغل من أجل دوراليكس، نماذج من الزجاج عمرها على الأقل أربعون سنة، من دون أي تطوير. هذا أسوء ما يوجد، من ناحية الملفات. أنا أفضّل بشكل أكبر ملاحقة الفضائح، إنه أكثر إثارة. كم عمره، الشيء الذي تشتغلين عليه؟

قطّبت أليس حاجبيها.

- ألفَي سنة تقريباً.

- أووف. . . لا بد أنه متهرئ شبشبك!

جَبَرت أليس نفسها على الابتسام واستأنفت قراءتها.

أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لَاعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ. . .

في تلك اللحظة، دخل أرنولد، مسؤول قسم محاسبة الزبائن، إلى المكتب. كان أرنولد من نوع الرجال «أنا على حق»، رجل سيئ المعشر. أسمر بعينين خضراوين، كان سيكون شاباً وسيماً لو لم تكن شخصيته تُضفي عليه تلك البشاعة.

- لقد عبثت في إعلان ساعات ملف إيكيا، قال لها.

رفَعَت أليس عينيها. كانت هي ورشيد قد اشتغلا على الأقل

(*) شارانتيز: شبشب تقليدي فرنسي يُصنع في منطقة شارانت.

شهرين على الفضائح الغذائية إيكيا، خاصة تلك التي تخصّ بيع ستة آلاف فطيرة بالشوكولاتة تحتوي على مواد برازية.

- كيف هذا؟

- لقد صرحتم عن كيلومترات تخص أياماً ساعاتُها لم تدخل ضمن المحاسبة، قال بنبرة شديدة الاحتقار.

صمت. تبادلت أليس مع زميلها نظرة خرساء.

- نحن نسجّل الكيلومترات في اليوم الذي نقوم بها فيه، قال رشيد.

- آه نعم؟ تقطعان كيلومترات في اليوم الذي لا تشتغلان فيه من أجل العميل؟ غير منطقي.

«غير منطقي» كانت العبارة التي يطلقها طيلة الوقت كي يجعل مخاطِبَه يحسّ أنه مغفل.

لم تُجِبه أليس وحاولت التركيز على النصّ كي تتفادى أن تدخل فيه.

بَارِكُوا لَاعِنِيكُمْ.

- أنا لا أدري، قال رشيد. ربما نكون قد قطعنا الطريق في اليوم الذي سبق الموعد كي نصل في الوقت المحدد باكراً في الصباح؟

- أنت لا تدري، لا تدري... وكيف سأدري أنا إذاً؟

نظرت إليه أليس ينصرف وهو يلهث، وألقت بصوت خفيض:

وَصَلُّوا لِأَجْلِ اَلَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ.

- ماذا تقولين؟ سألها رشيد وهو ينفجر ضاحكاً.

- لا شيء، لا شيء... إنه من أقوال المسيح في النص. لا يمكن أن تفهم...

- عزيزتي، المسيح واحد من الرّسل الخمسة أولي العزم في الإسلام.

هيا طيب. لم يكن ينقص سوى هذا. بالنسبة إلى هذه الأوقات، إنها أفضل وسيلة لإعادته إلى مكانه...

- تخيّلي لحظة، استطرد رشيد، أنك تشتغلين في قسم المحاسبة وأنك تحتكين بأرنود طيلة اليوم. لا إنه الجحيم بعينيه، أن يكون رئيسك...

- لاحظ، يجب أن تنظر أيضاً إلى فريق المجانين الذين معه. هم يقودون إلى الجنون.

- أجل، لأنه يختار مساعديه بشكل رديء أيضاً.

المسيح أيضاً كان يختار مساعديه بشكل رديء، قالت أليس في نفسها، من اثني عشر تلميذاً، واحد لم يكن يفهم شيئاً أبداً، وانتهى به الأمر إلى إنكاره، الثاني خانه، وكلّ الباقين هربوا كأنهم لصوص بمجرد أن بدأت الأمور تسوء! لا أحد ظلّ وفياً له... ولم يكن زعيماً أيضاً، كان يشتكي طيلة الوقت من عدم قدرته على إيصال عقيدته لتلاميذه.

أغلقت أليس الكتاب المقدّس ودفعته عنها بحركة. أحسّت بالإحباط التام. لأول مرة في تاريخها المهني، تحسّ أنها أمام مهمة مستحيلة.

تنهّدت. بالقرب منها، كان رشيد قد بدأ مكالمة هاتفية. أدارت كرسيها واستدارت نحو الواجهة الزجاجية. من بحر السقوف الرمادية الباريسية تظهر هنا وهناك قبب أجراس، المآثر الأخيرة لديانة تُحتضر. بشكل غريب أحسّت في مكان ما في داخلها بنوع من الارتباط بتلك البنايات، أبعد من أهميتها المعمارية، حتى وإن كانت

تكره أن تطأها بقدميها. بلا شك نفحة من الانتماء إلى الحضارة التي تنحدر منها.

تنفّست بعمق.

باستحضار كلّ إرادتها، باستجماع كامل شجاعتها، بتعبئة كلّ مهاراتها، ربّما توصّلت إلى حلّ؟ بعد كلّ شيء كانت قد نجحت في إعادة الزبائن إلى مطاعم إيكيا بعد أن كانوا قد أطعموهم فطائر بالبراز!

5

هللوا من الفرح!

هللوا من الفرح!

جلسَت في أقصى ركن في كنيسة نوتردام في كلوني، كانت أليس تحبس بصعوبة نوبة الضحك التي اعترتها وهي تستمع إلى الأناشيد الدينية. لأنها كانت تتماسك بصعوبة أحسَّت ببعض التقلّصات في أضلاعها.

كانت المتزمتتان الثرثارتان، جيرمين وكورنيليا، اللتان كانت ثيابهما ستجعل كاثوليك فرساي يبدون كأنهم رعاع الدائرة 93، ترددان بهيئة مستوحاة:

فَرَحاً أَفْرَحُ بِالرَّبِّ

تَبْتَهِجُ نَفْسِي بِإِلهِي.

أن تتنفس، يجب أن تتنفس كي تزيل فتيل الأزمة، بجرعات صغيرة، لو نفخت رئتيها بالهواء، يمكن أن تنفجرا بضحكة رنانة.

هللويا، الرب عالٍ عالٍ للأبد!

هيا افرحوا، هيا انشدوا له بمجد!

كانت سحنة جيريمي المكتئبة تتناقض مع مرح اللحن الغنائي.

نهتف نسبّح اسمك ونغني معلنين حبك.

كانت الرغبة في الضحك مع ذلك مفيدة، بعد الضيق الذي أحسّت به كما يحدث في كلّ مرة عند الدخول إلى كنيسة، ذلك الإحساس غير المريح بأنها ليست في مكانها، وذلك الصراع الداخلي: ترسم علامة الصليب وتعيشها كحركة نفاق، أو لا تقوم بها وتحسّ أن الآخرين يعتبرونها كافرة.

غنوا ورنموا افرحوا

هللوا وأخبروا بعجائبه!

كانت أليس قد عُمّدت عند مولدها بحسب رغبة والدها، تمشياً مع التقاليد أكثر منه عن إيمان حقيقي، ورغم تحفّظ والدتها الكبير التي كانت تحمل في داخلها كره والدتها هي التي تربَّت عند أخوات عانَيْنَ من سلطة الأم العليا الفظيعة، كانت هذه الأخيرة قد احتفظت بأسوأ الذكريات. انتهت صلة أليس بالديانة عند التعميد. لم تتلقَّ تربية دينية، لا شيء. كانت قد أصبحت ملحدة على نحوٍ طبيعي.

عظيم هو ربنا وعظيم القوة سمعوا صوت سبحه.

نتقدم أمامه بهتاف وحمد فهو ملذ.

فجأة خطرت فكرة بذهن أليس فأخرجت قانونها المدني لتتحقَّق. رغم أنها قرأت العهد الجديد ثلاث مرات كي تتشبّع به - عادة قديمة في المكتب. ها هو، لقد وجدته! إنه في إنجيل متّى، الإصحاح السادس، الآية 6. كان المسيح يوصي بأن يصلّي المرء وحده في بيته وليس في أماكن العبادة. على أيّ حال هو نفسه لم يكن يرتادها: «**أَمَّا أَنْتَ فَمَتَى صَلَّيْتَ فَادْخُلَ إِلَى مَخْدَعِكَ وَأَغْلِقْ بَابَكَ وَصَلِّ إِلَى أَبِيكَ الذِّي فِي الْخَفَاءِ فَأَبُوكَ الذِّي يَرَى فِي الْخَفَاءِ يُجَازِيكَ عَلَانِيةً**». إذاً لماذا يذهب أوفياء المسيح هؤلاء للصلاة

جماعة في كنيسة؟ غريب. ثم أخذ جيريمي الرعية لقراءة مزمور:

ارحمني يا الله حسب رحمتك،
حسب كثرة رأفتك امح معاصي.
اغسلني كثيراً من إثمي، ومن خطيتي طهرني.
لأني عارف بمعاصي، وخطيتي أمامي دائماً.
إليك وحدك أخطأت، والشر قدام عينيك صنعت.

ثم استرسل في موعظة حول الخطيئة الأصلية وحول طبيعة الإنسان الخطّاءة التي نتجت عن ذلك. هذا رغم أن المسيح لم يتحدّث في الكتاب المقدّس ولو لمرة عن الخطيئة الأصلية، كانت أليس واثقة من ذلك. وهو حتى لم يُشِر إليها ولو بطريقة غير مباشرة. ولا مرة واحدة. لماذا هذا التغيّر؟

من أقصى الكنيسة حيث كانت تجلس، كانت تتمتع برؤية عامة على الصحن والمذبح. إذا رفع المرء عينيه، سيرى عدداً كبيراً من الوجوه المنحوتة في الصخر. كان أحدهم شهيراً في كلوني: بيدو بيرلو، شخصية بثلاثة وجوه تحت إكليل واحد.

كان أعضاء الرعيّة يمثلون حفنة من الأشخاص الضائعين في ذلك الفضاء الشاسع. خلفهم، العديد من الكراسي الفارغة التي تبعث على اليأس. يميناً، كان هناك معترف من الخشب الداكن، جدّ مغبرّ. مجرد رؤيته كانت تجعل أليس تحسّ بضيق، دون أن تعرف لماذا.

مباشرة خلفها، نشرات دينية مكدَّسة فوق طاولة. على إحداها، صورة البابا تحت بريق الفاتيكان.

هرب المسيح عندما أرادوا أن يجعلوه ملك اليهود، وفي وقتٍ آخر كان قد قال لأحد الرومانيين: «**مَلَكُوتِي لَيْسَ مِنْ هَذَا العَالَمْ**».

أمّا الفاتيكان فهو رسمياً دولة، والبابا، ملك، له بلاط، ورعية، وكنز. مملكته تنتمي فعلاً إلى هذا العالم...

تذكَّرَت وصول جيريمي إلى فناء الكنيسة، قبل القداس. كان الأوفياء قد حيّوه «صباح الخير، أيها الأب» كلّ بدوره، الشيء الذي لفت انتباهها. تصفَّحت قانونها المدني ووجدَت بسرعة ما أدهشها. كان المسيح ينصح: «**لَا تُطْلِقُوا عَلَى أَحَدٍ عَلَى الأَرْضِ اسْمَ الأَبِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ لَكُمْ سِوَى أَبٍ وَاحِد، أَبُوكُمْ الذِّي فِي السموات**».

قطّبت أليس. ديانة غريبة تُجهِد نفسها لفعل عكس ما يقوله رسولها.

أيها الرب سيدنا،

ما أمجد اسمك في كل الأرض.

تواصل الإنشاد. واصلت أليس تصفّح كتابها المقدس. في إنجيل لوقا، الإصحاح السادس، الآية 46، يسأل المسيح تلاميذه: «**لِمَاذَا تَدْعُونَنِي «يَا رَبّ، يَا رَبّ» وَأَنْتُمْ لَا تَفْعَلُونَ مَا أَقُولُهُ لَكُمْ؟**».

* * *

بعد القدّاس، اجتاز جيريمي وأليس مركز المدينة على القدمين وذهبا إلى حديقة قصر البلدية التي تشرف على الدير القديم. تنتصب أشجار الأرز المعمرة في السماء الزرقاء، تنحني أغصانها الجليلة نحو الأرض كأنها تحيّي المتنزهين باحترام. سارا بصمت، داست أقدامهما العشب في لمسة بالكاد مسموعة. كان الهواء المنتعش برائحة الربيع، يعطي الرغبة بالتنفس ملء الرئتين. إلّا أن أليس تماسَكَت، وهي تحسّ بأنها حُصِرَت في المهمة التي فرضَتها على نفسها. الضحك ملء الفم كان ذكرى بعيدة. الآن وهي أمام مهمّتها، اعتراها مرة أخرى شعور بالعجز. كيف يمكن أن تجلب

رجال اليوم للمشاركة في هذا النوع من الاجتماعات التي نسمّيها القداس؟ بدا لها ذلك فوق طاقتها. كان الإنشاد سخيفاً، العظات تُشعرُ بالذنب، وكلّ الباقي مملّ حتى الموت. كل هذا على خلفيةٍ من الحزن بسبب سحنة جيريمي المكتئبة.

اجتاز سنجاب شريط عشب أمامهما ثم سارع إلى الهجوم على شجرة أرز.

طيب. فلنبدأ من البداية.

- ما هو هدفك، ككاهن؟

- عفواً؟

- ما هو الهدف من كلّ هذا؟ القداس، كلّ ما تفعله...

أخَذَ نفسه.

- أن أقدِّم للناس الخبر الجيد.

- أيّ خبر جيد؟

- الخبر الجيد في الأناجيل.

- و... ولو قلت كلّ هذه الأشياء باللغة العادية؟

عقد جيريمي حاجبه.

- أجل، واصلت، ماذا تريد أن تقدِّم للناس، في النهاية؟

- أريد أن أقدِّم كلّ الحقائق التي تحدَّث عنها المسيح والتي أوصَلَها تلاميذه كتابة.

- طيب. حسناً. و... أيّ ربح يمكن أن يجنيه الناس منها؟

كادت ترتكب خطأ كبيراً بتحدّثها عن **ربح المستهلك**. تشويهٌ مهنيّ لم يكن ليستسيغه... كان الأمر أسهل مع رئيس شركة. لو كان يصنع جلايات صحون، سيحثان بسهولة عمّا تقدّمه للناس، ربح

الوقت، اقتصاد في الماء، أو تلميع الزجاج. بينما هنا، كانا في مجال غير محسوس. . .

من سؤال إلى سؤال، توصَّلت إلى خلاصة شخصية حرصت على ألّا تعبِّر عنها بصوت مرتفع، لو دمج الناس رسائل المسيح، سيكونون أسعد. صعب التصديق، بالتأكيد، خاصة، بعد أن قرأت الكتاب المقدس، لكن طيب، هي لم تكن أبداً مسؤولة عن رضا العميل النهائي، لحسن الحظ. أن تُخرج الجلاية الكؤوس دون أن تكون لامعة أو تتعطّل بعد ثلاثة أشهر لم يكن مشكلها.

– أتعرف، قالت بعد لحظة تفكير طويلة، كي تجذب إليك أناساً جدداً، سيكون من الأفضل ألّا تتحدث عن الله كثيراً خلال القداس.

– ماذا؟

كاد جيريمي يختنق.

– في عصرنا، لا يؤمن أغلبية الناس بالله، لذلك لا داعي لأن تصدمهم من البداية. . .

– أصدمهم؟ لكن عن ماذا تريدينني أن أتحدث؟ عن الفيلم الذي عرض ليلة أمس في التلفزيون؟

جيريمي، الذي كان عادة متحفّظاً، لم يستطِع إخفاء هيأته المروعة، وندمت أليس على خَرقها.

تابعت وهي تنتقي كلماتها بعناية.

– يمكن أن تركِّز في وصايا المسيح على ما يمكن أن يقدّم لهم شيئاً ينفعهم في حياتهم هم. أخيراً. . . إذا كان هذا هو الحال قالت لنفسها.

– بدأت أتبيّن ما تريدين قوله. رؤية نفعية للروحانية. تركز على الفردانية.

أكّدت بأن هزّت رأسها، ابتسامة متأسفة على شفتيها.

استأنفا سيرهما بصمتٍ في الحديقة. كان جيريمي يفكر. ثم انتهى إلى القول:

- المشكل هو أنّ الروحانية هي عكس مقاربة من هذا النوع، نحن نعيشها عندما نرخي قبضة المصلحة الشخصية كي ننفتح على ما يتجاوزنا، على ما هو أكبر منا.

قطّبت أليس.

- مارست الرقص في الماضي. لا أحد يستطيع إبعاد رجليه بشكلٍ كبير من المرة الأولى. في جميع الأحوال، نحن ننطلق من المكان الذي وصلنا إليه، ثم نتقدم ببطء...

لم يُجِبْ جيريمي، وأحسّت أليس أنها حققت نقطة.

قاما ببعض الخطوات ثم جلسا في مدرج الخضرة.

- أريد أن أقترح عليك شيئاً، ماذا لو توقفت عن الحديث عن الخطيئة خلال عظاتك؟ هي تخلق شعوراً بالذنب وتزرع الرغبة في الهروب بأقصى سرعة ممكنة.

هزَّ جيريمي رأسه.

- كيف يمكن أن أتجاوز هذا الموضوع، في حين أنّ المسيح قد مات كي يطهّرنا من خطايانا بالتحديد؟

هزّت رأسها بارتياب.

- المسيح لم يقُل ذلك أبداً، رغم أنه أعلن عدّة مرات عن موته الوشيك. ثم هو لم يكُن مهووساً مثلك بالخطيئة. تلامذته يصفونه بأنه شخصٌ يحبّ الحياة، يحبّ الطعام والشراب...

- لا يمكن أن تكوني جادة وأنت تقولين شيئاً من هذا القبيل.

فتَحَت الكتاب المقدّس.

- ستري. وضعَت ملاحظات... اسمع هذا. البشير متّى يقول عنه: «هو رجل يحب الطعام الجيد والشراب».

لم يُجِبْ جيريمي. بينما أضافت:

- لقد جعلتم منه شخصاً عديم الجنس ومحتشماً، في حين أنه لم يكن ينصح الأزواج بالامتناع ولا بالكبت. بالعكس، كان يقول لهم: «لا يسْلِب أحدكم الآخر»! هو نفسه كان يترك المحظيات يداعبن قدميه بشعورهن. المسيح خاصتك كان عكس زاهد معقد...

بقي جيريمي صامتاً. ربما تأثّر بأدلتها. لا يجب أن يفلت منها خلال الطريق.

- أريد أيضاً أن أتطرّق إلى اختيار الأغاني...

عقد حاجبيه.

- تقصدين بلا شك التحدّث عن الأناشيد الدينية؟

- أجل.

لا يجب أن تغيظه. استطردت:

- أتذكر أني سمعت غناء غريغوريا عندما كنت صغيرة. كان جميلاً، كان... أخّاذاً. لماذا استبدلتم ذلك من أجل... ألحانكم الدينية؟

انفجر جيريمي من الضحك.

- قطعاً أنتِ محبَطَة! تنتقلين من رغبة مدهشة في الحداثة إلى رجوع تقليدي إلى الوراء!

- لقد كانت ساحرة أكثر من هذه التي تنشدونها اليوم، لا؟

بالإضافة إلى أنها منوِّمَة ومخدّرة للقدرات الدماغية، بالضبط ما يلزم، فكرت في نفسها.

- لكن الناس لا يفهمون اللاتينية! لا أحد سيفهم معنى الكلمات.

- ربما كان ذلك أفضل، فكرت أليس التي تذكّرت النصوص التي أنشدوها خلال القداس قبل دقائق.

- في جميع الأحوال، اعترف أن موسيقاكم الحالية فقيرة من الناحية الفنية بشكل محيِّر. لا يمكن أن يشعر المرء بشيء وهو يسمعها، سوى بالملل. نحن بحاجة إلى موسيقى تلمس الروح... خذ، باخ، مثلاً! اسمع يسوع فليدُم فرحي، وستحسّ في الحال أنك تُنقَل إلى بعد آخر. بمجرد أن أسمعها أحسّ بروعتها حتى أن عينيَّ تمتلئان بالدموع.

هزّ جيريمي رأسه.

- نستعملها في الأعراس خاصة.

- لا يهم! ما يهم حقاً هو أنها تسحبكَ إلى عالم آخر، تجعلك تؤمن بواقع آخر... كنت تتحدث قبل قليل عن الانفتاح على شيء أكبر من النفس، إذاً عندما تسمعها تحسّ أنك تتصل بخلق الكون! بالخالق نفسه! باخ، كان يدفع إلى الإيمان أكثرَ الملحدين مادية، وأكثر الشيوعيين ماركسية!

- لكن...

- في جميع الأحوال لن تأخذ الناس إلى مستوى آخر من الوعي فقط بأناشيدك التافهة!

تحمَّل جيريمي الضربة لحظة، وندِمَت أليس على اندفاعها. هي التي كانت قد قرَّرت ألّا تجرحه...

عمّ الصمت، أحسَّت به ثقيلاً. حولها كانت الحديقة خالية.

ولا حتى نفحة هواء كي تنعش الجو بحفيف أوراق. بدَت أشجار الأرز كأنها تتأسَّف من أجلها.

- فليكن بالنسبة إلى جان سيباستيان باخ، انتهى إلى القول.

تبسَّمَت أليس من الرضا، لكنها أحسَّت بقليل من الإعجاب، لا يوجد كثير من الناس على الأرض قادرين على الالتحاق بوجهة نظرك بعد أن كانوا قبل دقائق مغتاظين من كلامك. ذلك يدلّ على شهامة أكيدة...

نظرت إليه دون أن تقول شيئاً. كان يجلس بطريقة جانبية وكانت عيناه ضائعتين في قمم أشجار التنوب، بعيداً على التلال. خسارة أن رجلاً يتوفّر على هذا القدر من النبل الفكري يبدو تعيساً بهذا القدر، في حين كان سيتمتّع بلا شك بقوة خارقة لو كان يشع فرحاً فقط.

ألم يكن هذا هو الخطاب العصيب الذي كان عليها أن تقدّمه له؟ كيف يمكن أن يجذب الناس إلى كنيسته كي يقدّم لهم كلاماً من المفروض أن ينيرهم، إذا كان هو نفسه غير متنوّر؟ لكن كيف يمكن أن تخبره ذلك دون أن تقضي عليه؟ كيف يمكن أن تدعوه ليشتغل على نفسه، على تطوير ثقته بنفسه، على أن يتعلّم أن يحب نفسه، دون أن تهينه؟

- هل سبق أن سمعتَ بتوبي كولينز؟

- لا.

- هو يقدّم دورات دراسية في التنمية الذاتية. عظيم، أودّ أن آخذك عنده ذات مرة...

ليس غريباً أنه لا يعرفه، قالت أليس لنفسها. لماذا سيهتمّ المرء بتنمية الذات إذا كان يعتقد أنّ الخلاص بين يدي الله وحده؟

- تبدو مستغرقاً في التأمل، قالت له.

أجبر نفسه على الابتسام.

- باتّباع نصائحك، أتساءل ما إذا كنت قد أفقد روحي، فقط كي أجذب الناس إلى العبادة.

لم تُجبه، لكنها لم تفارقه ببصرها. كان يبدو مهموماً، في الواقع، مرتبكاً، مثل شخص فَقَدَ البوصلة. كان بصره يحدّق في أنقاض الدير. خلال بضع لحظات، أحسَّت بالذنب، لامَت نفسها لتدخّلها في وظيفته في حين أنه لم يطلب منها شيئاً.

ثم، بتفقّدها لردود فعله، أحسَّت تدريجياً بأنه يستعيد ثقته.

- بماذا تفكر؟ سألته.

- بكلمات المعلم إيكهارت.

- مَن هو؟

- عالمُ لاهوت مسيحي عاش في القرن الثالث عشر. كان أستاذاً في السوربون.

- وماذا كان يقول؟

تنفَّس جيريمي ببطء، كأنه يتنهد.

- ربما كان يجب أن نهجر الله كي نجد الله.

6

قاعة مليئة بالكامل، على الأقل ثمانمائة شخص. مصابيح قوية تكنس الخشبة بضوء قوي. موسيقى قوية وجذابة، مثل العادة. جالسة على كرسيها، ضمن المشاركين، كانت أليس تحسّ أنها مأخوذة.

أطلق ظهوره على الخشبة سيلاً من الهتافات المتحمّسة والتصفيق. تقدَّم العملاق الأشقر، الذي يبلغ طوله حوالي مترين، في بذلة أنيقة، ياقته مفتوحة، بمزيج من الثقة والاسترخاء على عادته، بينما كشفت ابتسامته عن أسنان ناصعة البياض. نظرت إليه أليس بلُطف دون أن تصفّق، كما لو أنّ الصداقة التي تطوَّرت بينهما تعفيها من طقس العرفان الذي تركته للجموع المجهولة. قبل ربع ساعة، كانت قد أخذت معها جيريمي إلى الكواليس حيث كانت فخورة بأن تقدِّمه إليه، فخورة بأن تكون صديقة توبي كولينز الشهير، البابا في التنمية الذاتية.مكتبة .. سُر مَن قرأ

حيا توبي كولينز القاعة ثم بدأ بسرد حكاية لطيفة أضحكَت الحضور. كان يتحدّث بفرنسية كاملة تقريباً. كان موضوع اليوم احترام الذات، موضوع كان يهمّ أليس بشكلٍ خاص. ألقت نظرة

قلقة ناحية جيريمي الجالس بالقرب منها. الآن فقط تحقّقتُ من الفرق الشاسع بين التأمل الحميم لقدّاسه وهذا العرض على الطريقة الأميركية الذي سحبته إليه. خشيت فجأة أن يحسّ أنه ليس في مكانه. لم يكن قد أظهر أيّ ردّ فعل إلى حدّ تلك اللحظة. على الأقل لم يكن يبدو عدائياً. أو ليس بعد.

قال كولينز:

- أحتاج إلى متطوّع، من أجل لعبة...

ارتفعت حوالي مائة من الأيدي تلقائياً ضمن الجمهور. كان الجميع يعرف أنها فرصة أن يكون المرء حقل تجربة لتوبي، خلال عرض.

- ... في الحساب الذهني.

كلّ الأيدي نزلت مرة واحدة، الشيء الذي تسبَّب في موجة من الضحك بين الحضور.

- كنت أعتقد أن فرنسا كانت بطلة العالم في الرياضيات! أين ذهب الأبطال؟

انقسمت القاعة إلى مجموعة تضحك ومجموعة تنظر إلى أقدامها خوفاً من أن يتمّ اختيارها. نظر كولينز إلى عرض الخشبة، ثم توجّه إلى امرأة شابة تجلس في الصف الأول.

- أنا متأكّد أنك بارعة في الحساب.

هزت رأسها بحزم وضحك الجمهور.

- تعالي! سنشجّعك، قال متوجهاً إلى الجمهور، الذي صفق، مرتاحاً.

نهضت وصعدت إلى الخشبة وهي تحمرّ. سروال جينز رمادي وقميص أبيض، سمراء شعرها بطولٍ متوسط.

- نهارك سعيد، قال بابتسامة كبيرة. ما اسمكِ؟

- جولييت.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- مرحباً بك، جولييت.

ابتسمت ابتسامة خجولة.

- سأطرحُ عليك أسئلة حسابية ذهنية جدّ بسيطة. ارتاحي، لديك الوقت الكافي لتجيبي. موافقة؟

أومأت بالإيجاب.

- لكني ضعيفة في الرياضيات، أنا أحذرك...

- موافق، قال لها بصوت لطيف. لسنا بصدد تقييم مستواك، هي لعبة فقط، كل شيء سيظلّ بيننا. علاوة على ذلك يوجد في هذه القاعة سبعمائة وتسعة وتسعون شخصاً يحسون في هذه اللحظة نحوكِ بالعرفان لأنك صعدتِ على الخشبة في مكانهم.

- ضحكَت وبدا أنها تسترخي قليلاً.

- إذاً، كي نبدأ، كم يساوي مجموع 24 و13؟

- 24 + 13؟ أوه... 24 + 13...

- خذي وقتك.

- طيب... 38؟ لا... 39؟

- لست بعيدة. تذكّري: في البداية نجمع الوحدات 4 + 3، تعطي سبعة...

- 7.

- برافو. والعشرات، 2 + 1...

- طيب، 3. أوكي: 37.

- آخر.

- لا! توسلت.

لكنه واصل دون أن تفارقه ابتسامته الجذابة.

- 17 + 19.

- آه الآن... الأمر أكثر صعوبة.

حمراء مثل الفوانيا، عضّت على شفتيها.

- ركّزي بهدوء.

- لا أعرف... 34؟ لا، لن أتوصّل إلى الحل. لقد أخبرتكَ: أنا ضعيفة في الحساب. لا داعي لأن تلحّ.

- طيب، سأتوقف عن تعذيبك...

استدارت المرأة الشابة كي تنزل من فوق الخشبة.

- انتظري، جولييت.

توقفت فجأة.

- لا ترغبين في التوقف على فشل.

- صراحة، بلى! أفضّل أن أظلّ هنا.

ضحك مَن في القاعة. أليس أيضاً، كانت تساندها من كلّ قلبها.

- الفشل مقبول في الحياة، إذا تعلمنا منه شيئاً. لكن هنا ماذا تعلمت؟

- أنني ضعيفة في الرياضيات! أنني لن أتقدّم أبداً من أجل ميدالية فيلدز...

الضحك من جديد في صفوف الحضور، لكن كولينز هزّ رأسه.

- لا، هذا لم تتعلّميه هنا، بما أنك قلته قبل البدء في اللعب... متأسف، لكن لا يمكنكِ أن تنصرفي دون أن تتعلمي شيئاً.

تنهّدت وشبكَت ذراعيها. لم تكن تشعر بالخجل، بل بالاستياء. كولينز، كان ينتظر بصبر، ويبدو دائماً في حالة استرخاء.

- لقد تعلَّمتُ، أنه لا يجب أن أشارك أبداً في هذا النوع من العروض!

ابتسم لها كولينز بلطف.

- هل تقبلين أن نُعيد الكرة تحت الإيحاء، مجرد نشوة خفيفة؟

في البداية بدت جولييت كأنما فوجئت. تردَّدت بضع لحظات، ثم في النهاية هزت رأسها.

- لا أستطيع أن أكون أكثر سخافة ممّا كنتُ عليه.

- الفشل لا يجعل المرء سخيفاً. لكني أريد أن أجرب شيئاً.

- طيب.

- إذاً، اجلسي، قال لها وهو يشير إلى أحد الكرسيين الموجودين على الخشبة.

جلسَ بالقُرب منها.

- كيف تحسّين؟

- عشتُ أياماً أكثر أبهة...

بعض الضحك في القاعة.

- إذاً اجلسي بطريقة مرتاحة، واسترخي. لستِ مضطرة لإغلاق عينيك، وربما أحببت ذلك... أنت جالسة على هذا الكرسي، ويجب أن تسترخي...

صوت توبي كولينز، الذي كان عادة ثابتاً، نحا بالتدريج نحو درجة أخفّ، رتابة بطيئة، ثم أكثر بطئاً، وهي تنزل شيئاً فشيئاً في المقاطع الجهورة، إلى أن تعطي الرغبة في التثاؤب. أغلقت جولييت عينيها.

- تحسين بكلّ نقاط الاتصال بالكرسي مع جسدك... من فوق إلى أسفل... تسمعين صوتي... وتتركين نفسك تستسلم... بهدوء... بلطف... بعمق أكثر فأكثر للاسترخاء...

كان ينطق كلّ مقطعٍ لفظي كأنه سينام قبل أن ينتهي من النطق بالكلمة، بصوت عميق، اهتزازته تحسّ في البطن، كأنها ترن، على إيقاع تنفسه.

- طيب... نعم... هكذا...

حثّ تشجيعه جولييت على الاسترخاء وواصلَ خلق نشوة خفيفة، جامعاً منافذها السمعية، مصيغاً تطمينات فضفاضة بما يكفي كي تماثل معيشها الداخلي كيفما كان، ومشوشاً معالمها بالتدريج. كان بارعاً في تقنيته، حتى أنّ أليس أحسَّت، رغم كونها متفرجة، بأنها تنزلق في حالة أخرى من الوعي.

- وبينما أنتِ تحسين أنك مسترخية أكثر فأكثر، قولي لي كم يساوي 26 + 12... حسب إيقاعك، بهدوء...

- 38.

كان صوتها هادئاً وواضحاً.

- هذا جيد جولييت، قال توبي بنبرة عميقة وبطيئة. هذا جيد... أخبريني الآن كم يساوي 39 + 13...

- صمت بسيط.

- 52.

- جيد جولييت، جيد... و53 + 18؟

رانَ صمت أطول، لكن وجه جولييت لم يكن يعبِّر عن أيّ شعور سلبي، ولا أية مخاوف.

- 71.

- برافو جولييت. الآن، حسب إيقاعك، عندما تكونين مستعدة، يمكن أن تعودي تماماً بيننا.

بعد لحظات، فتحت جولييت عينيها وابتسمت. صفق الحضور.

- التنويم بالإيحاء ليس سحراً، قال كولينز. هو مجرد حالة متغيّرة من الوعي. حالة تكونين فيها متحرِّرة من فرامل عقلك، متحرِّرة من مخاوفك وشكوكك، بدرجة جيدة تجعلك تصلين إلى مواردك تماماً. أقول مواردك: أجوبتك عن أسئلتي جاءت منكِ، فقط منك. من قبل قلَّلتِ من قدراتك، وانعدام التقدير منعكِ من استخدامها.

أقرَّته جولييت.

شكَرَها توبي على مشاركتها وعادت إلى مكانها على التصفيق مرة أخرى.

نهضَ وخاطب الحضور.

- غياب التقدير الذاتي يمنع من الوصول إلى الموارد. عندما أتحدث عن الموارد، أعني كلّ قدراتنا الفكرية، والعلائقية، والبدنية، كلّ مهاراتنا، كلّ القوى التي نتوفر عليها في داخلنا، لكن التي لا نستعملها دائماً. ستتعجّبون من ملاحظة أنكم تتوفرون على موارد أكثر ممّا تعتقدون.

توقّف لحظة استراحة قبل أن يتابع، كأنما كي يدَع المعلومة تنتشر. عمّ القاعة صمت القبور، في حين نتحقّق من الفوضى التي يسبّبها الحكم القاسي الذي نصدره على أنفسنا بطريقة اعتيادية.

تعرَّفت أليس على نفسها في هيأة النقد الذاتي، ولامت نفسها على كبح جموح قدراتها، وقطع مواردها.. لكن فجأة، أدركت أنها متلبّسة بفعل جريمة الحكم!

- الخبر الجيد، قال كولينز، لأنه يوجد خبر جيد في هذه القضية، هو أنه على العكس المعرفة بالموارد تُطَوّر تقدير الذات، الشيء الذي يتيح الوصول بشكل أفضل إلى هذه الموارد، وبالتالي النجاح والإحساس بالفخر من الذات، إلخ... إلخ. إنها حلقة حميدة! السؤال الحقيقي...

قام باستراحة أخرى، بلا شك كي يجذب الانتباه.

- السؤال الحقيقي هو: كيف يمكن تحفيز هذه الدائرة الحميدة انطلاقاً من وضعكم الحالي، كيف يمكن أن أشغّل المضخة؟

ألقت أليس نظرة على جيريمي. كان يبدو مهتماً، الشيء الذي طمأنها.

- هكذا كما ترون، التقنية التي أقترحها ترتكز على خاصية مدهشة لجهازنا العصبي: هو لا يفرّق بين الحقيقي والافتراضي.

كنست عينا كولينز القاعة.

- أنتم لا تصدقونني؟ جيد. أغلقوا أعينكم... هيا، أغلقوا أعينكم كلكم... طيب.

الآن افتحوا أفواهكم... تخيّلوا أني أقرب ليمونة من شفاهكم، لقد تصرّفتم كما لو أنكم تتلقون عصيرها الحامض فعلاً في أفواهكم. وها هو جهازكم العصبي قد تصرّف فعلاً. الأشياء الافتراضية لها تأثير الأشياء الحقيقية نفسه علينا.

أخذت أليس تفكّر في كلّ الشباب الذين يمضون أمسياتهم يقتلون افتراضياً آلاف الناس في ألعاب الفيديو. أي تأثير يمكن أن يكون لذلك عليهم، على شخصيتهم في طور التكون؟

- التقنية التي أقترحها من أجل تشغيل مضخة الثقة في النفس ترتكز على هذه الميزة لجهازنا العصبي. الفكرة هي كالآتي: بدل أن

تناضلوا من أجل إقناع أنفسكم أنكم تتوفرون فعلاً على موارد تمكّنكم من إنجاز الأعمال التي لا تجرؤون على القيام بها لأنكم تعتقدون أنكم غير قادرين عليها، أدعوكم إلى أن تتصرفوا كما لو أنكم قادرون على ذلك. قوموا بحلم يقظة، تخيّلوا أنكم تستطيعون أن تفعلوا، ثم تخيّلوا أنكم ترون أنفسكم تفعلون ذلك. ستفاجَؤون بما يحدث.

توقّفت نظرة توبي على شخص جالس في الصفوف الأولى.

- تبدو مرتاباً.

لم يسمع الجواب بوضوح، لكن توبي أعاد صياغته من أجل الحضور.

- تتساءل كيف يمكن لهذا الشيء أن يعطيك القدرات التي لا تملكها. طيب، الفكرة ليست في إعطائك قدرات جديدة، لكن تمكينكم من استعمال تلك التي لا تستغلونها أبداً رغم أنكم تتوفرون عليها في داخلكم. التقدير والثقة يتيحان تحرير كلّ قدراتكم باستعمال كلّ مواردكم بشكلٍ جيد. لكنني أتحدث كثيراً: الأفضل هو القيام بالتجربة. خذوا راحتكم في الجلوس.

هو بنفسه عاد على كرسيه.

- إنها لعبة سيقوم بها كلّ واحد مع نفسه، إذاً في سرية تامة. أدعوكم للتفكير في وضعيتكم المهنية، في مشاريعكم لو كانت عندكم مشاريع، وأودّ أن تسجّلوا على ورقة مبلغ الدخل الذي تأملون به خلال ثلاث سنوات، الحدّ الأقصى الذي تعتقدون أنكم قادرون على تحقيقه خلال ثلاث سنوات، وكذلك مساركم لتحقيق ذلك. سأترككم تفكرون لحظة. . .

نظر إلى ساعته وصَمَت.

تبادلت أليس نظرة مع جيريمي وابتسمَت له. لم يكن التمرين مناسباً لوضعه وكانت محرَجَة من ذلك قليلاً.

قرّرت مع ذلك أن تقوم بالتمرين من أجل نفسها. أخذَت نفساً عميقاً. أقصى مستوى ستحققه خلال ثلاث سنوات... ليس سهلاً تقديره... تأمّلت دخلها الحالي. طيب، فلنتخيل أنها حصلت على العقد القطري. ستحصل إمّا على منحة كبيرة، أو زيادة. فلننطلق باعتبار الزيادة. لم تحصل عليها منذ سنتين. لا يمكن أن يرفضوا لها 5 أو 10% من الزيادة، نظراً إلى ضخامة العقد... فلنقل 10%. هذا سيكون من أجل السنة الأولى. بالنسبة إلى السنتين التاليتين... في أفضل الحالات، يمكن أن تُحَصّل عقداً من هذا النوع كلّ سنة، وستُكافأ في كلّ مرة بزيادة 5 أو 10%. سيعطي في الإجمال خلال ثلاث سنوات أجرة أكبر بـ 30% من أجرتها الحالية. ستكون في أفضل الحالات، وفي طموحها.

سجلت ذلك في ورقتها وألقت نظرة فضولية من فوق كتف جيريمي. على مفكرته كان قد سجّل مبلغ التبرعات الذي يأمَل أن يجمعه من أجل الأعمال الخيرية خلال ثلاث سنوات. وجدت أنّ ذلك مهم أن يحسّ بالدور الذي سيلعبه في ذلك المجال.

- الكلّ مستعد؟ سألهم توبي كولينز وهو ينهض.

قام ببعض خطوات نحو الحضور.

- هل سجّلتم جميعكم أقصى دخل يمكن أن تحققوه بعد ثلاث سنوات؟

كنست نظرته القاعة.

- طيب. إذاً عندي خبر سيئ من أجلكم...

صمت في القاعة.

- لن تربحوا أبداً أكثر.

تثاقَل الصمت أكثر.

- إنه الحدّ الذي وضعتموه. وكما تعرفون، نحن لا نتخطى أبداً الحدود التي نضعها.

بلعت أليس ريقها. كان محقاً، هي تحسّ بذلك.

- ربما تقولون إنّ المرء يجب أن يكون واقعياً، أنكم لم تختاروا سقف الدخل عبثاً، وأنه نتيجة دراسة موضوعية لوضعيتكم، وشهاداتكم، ومساركم، وكفاءاتكم... لكن نحن، الأميركيين، عندنا تعبير نَصِفُ به كل هذه التبريرات. هل تعرفون ما هو؟

بقي الحاضرون صامتين. كان الوحيد الذي ابتسم.

- هراء!

اتسعت ابتسامته.

- هراء! كل هذا، هراء! إنها فقط تبريرات جمودكم، ومخاوفكم، وشكوككم أو أيضاً إحساسكم بالذنب لتحقيق نجاح أفضل ممّا فعل آباؤكم أو لا أعرف مَن أيضاً.

لم تعُد أليس تجرؤ على النظر إلى جيريمي. كانت تأمل ألّا ينحو توبي هذا المنحى، البعيد تماماً عن انشغالات وقِيم صديقها.

- الآن، قال توبي، عندي خبر جيد...

تعلّق الحضور بشفتيه.

- سنفجّر هذا السقف! سنجعله يتطاير شظايا! اسمعوني جيداً.

هذا الطلب الأخير كان زائداً.

- ستأخذون المبلغ الذي سجلتموه... ستضربونه في ثلاثة. هذا هو الدخل الذي ستحصلون عليه بعد ثلاث سنوات!

أخذَ يضحك.

- أرى أنكم لا تصدّقون. أحتاج على الأقل ساعتين مع كلّ واحد منكم كي أحرِّركم من قوقعة فراملكم النفسية. إذاً سننتقل إلى الأكثر بساطة. هذا ما ستفعلونه: خذوا هذا الدخل الذي ضربتموه في ثلاثة وتصرّفوا **كما لو** كان حقيقة. حاولوا إقناع أنفسكم أنكم ستربحون ذلك بالفعل. تطلّعوا إلى المستقبل، تخيّلوا أنفسكم بعد ثلاث سنوات، كما لو أنكم كنتم فيها الآن، وتخيلوا أنفسكم تربحون هذا الدخل، اشعروا بنتائج ذلك، استمتعوا بالوضع، ثم انكبوا على الثلاث سنوات التي انقضت افتراضياً والتي قادتكم إلى هذا الوضع وانظروا إلى الطريق الذي قطعتموه: ماذا فعلتم، ماذا باشرتم كفعل كي تصلوا إلى ذلك؟

استمتعت أليس وهي تتخيل نفسها تحصل على تلك الأجرة، وهي تتظاهر بأنها تصدق ذلك. بطبيعة الحال، كان ذلك محمِّساً... تخيلت الثلاث سنوات التي مكّنتها من الوصول إلى هناك، وتخيّلت في الحال ترقية. طبعاً! لقد حصلت على ترقية! لقد حصلت على ترقيتها مسؤولة قسمها «إدارة الأزمات». علاوة على ذلك، ألم يكن ذلك مستحقاً؟ في الواقع، أغلب الأفكار التي تمّ تنفيذها كانت تعود إليها، حتى ولو كان قليل مَن يعتبر ذلك. وكانت قد حصلت على العديد من العقود للقسم. أصبحت في النهاية أحد أعمدتها.

واصلت تخيّل أنها حصلت على ترقية. ما هو الشيء الآخر الذي أتاح لها أن تترقى؟ ربما الحصول على تكوين في الإدارة... أجل، بطبيعة الحال، كي يتمّ اقتراحها لتلك الوظيفة، يجب أن تكون مُقنِعَة بتوفّرها على مهارات.

بقدر ما كانت أليس تغوص في تلك الوضعية الخيالية، كانت

تتراءى لها عدة أفكار لم تضعها في اعتبارها من قَبل ولم تكن حتى لتخطر لها على بال.

- سأمرِّر لك الميكروفون، قال كولينز لمشارِك أرادَ طرح سؤال.

اندست امرأة شابة بين الحضور وقدَّمت له ميكروفوناً لاسلكياً.

- كلّ هذا جيد، قال الرجل، لكن لا يوجد سوى المال في الحياة. أنا، لا يهمّني أن تتضاعف أجرتي ثلاث مرات. ما أريده بالأخص، هو أن أحسّ بالارتياح في ما أقوم به.

تلى ذلك تصفيقات من الحضور. رغم كونها معجبة بكولينز، أحسَّت أليس بالارتياح لذلك الاعتراض، سيقلّ إحساس جيريمي بالوحدة في القاعة.

وجَّه له كولينز ابتسامة كبيرة.

- كما كان يقول لويس الرابع عشر: «كدتُ أنتظر!» عموماً، عندما أتطرق في فرنسا إلى موضوع المال، أحصل في الحال على اعتراض من هذا النوع، والآن، كنت أرى أنه تأخّر في المجيء...

بعض الضحك في القاعة.

- أجل، كما ترون، الأمر ثقافي تماماً. في فرنسا، لا تحبون العمل من أجل المال، تريدون العمل من أجل **الارتياح**. في الولايات المتحدة، أعاني من المشكل العكسي: عندما أتحدث عن الارتياح مهنياً مع مواطنيّ، يوجد دائماً ضمن الحضور مَن ينهض ويطلب أن يتحدث ويقول بهيئة عدم فهم تام: «ماذا يعني «الارتياح مهنياً»؟ لو نجحنا، سنجني مالاً، لو جنينا مالاً، نحن سنرتاح!...»

انفجرت القاعة بالضحك.

- هذا ثقافي. بعدما قيل، أنا لا أتحدى سؤالك، قال وهو يلتفت نحو المشارك.

في الواقع، أبني هذه اللعبة على المال، لأنه من العملي أن نعتبر الدخل ونضربه في ثلاثة، نحن هنا نتحدّث في الكمي، ومن الأسهل على كلّ واحد أن يتخيل ضعف دخله ثلاث مرات على أن يتخيل ضعف تحققه. لكن في الواقع، إذا سايرتم اللعب، لا بد أنكم لاحظتم أننا لم نكن نتحدّث حقاً عن النقود. النقود ليست النقطة الأساسية في هذه اللعبة. يتعلق الأمر بالأخص بالوصول إلى مواردنا، وتحرير الأنشطة التي تغفو داخلنا، والمال هنا ليس سوى استعارة لإمكاناتنا، طريقة لقياس ما نسمح لأنفسنا بفعله، ما نسمح لأنفسنا بتلقيه.

غامرَت أليس بإلقاء نظرة على أوراق جيريمي. كان قد سجّل مبلغ التبرعات ثلاثة أضعاف. على الأقل استطاع أن يطبّق الدرس على وضعيته دون أن يتعثر.

- استعمال ما هو افتراضي للوصول إلى مواردكم الحقيقية جد فعال، وهذا لا يمنع أن تطوّروا من جهة أخرى تقدير ذاتكم. لدينا الكثير لنجنيه إذا أحببنا أنفسنا أكثر.

وضع كولينز حينئذٍ تمريناً جدّ معقّد، له بروتوكول جدّ مقنّن، حيث كان المشاركون الذي تمّ توزيعهم إلى مجموعات من شخصين في الغرف المتاخمة، مدعوّين لقطع خطٍّ زمني رُسِمَ على الأرض كي يمثلوا رمزياً سير خط حياتهم، ويصعدوا إلى الطفولة حيث سيتخيّلون أنفسهم يتلقون من والديهم الحب غير المشروط الذي طالما أحسّوا أنه ينقصهم أو الذي لم يعيشوا حقيقته. ثم يعودون من حيث أتوا، حاملين معهم الحب الذي تلقوه افتراضياً إلى ذلك اليوم.

عندما حان دورها، استغرقت أليس في اللعبة وتبعت البروتوكول، يقودها مشاركٌ آخر. بعد ذلك، أحسّت بالارتياح التام، وتساءلت كم من الوقت ستستمرّ تلك الحالة الإيجابية.

- من المفيد أن يتعلم المرء أن يحبّ نفسه، قال توبي كولينز للمشاركين عندما اكتمل عددهم في القاعة. سأقول إنّ ذلك أساسي. كلّ ما يمكن أن يتيح لكم التقدّم بالنسبة إلى هذه النقطة إيجابي، ويجب أن تستغلوا جميع الفرص لتزيدوا من تقديركم لذاتكم.

رأت أليس جيريمي يقوم بحركة استياء تشي بعدم موافقته.

أكمَلَ توبي:

- بالنسبة إلى هذه النقطة، يجب أن تألفوا عادة بسيطة، هي أن تضعوا كتابة قائمة بميزاتكم، ومهاراتكم، ومؤهلاتكم: كلّ ما يمكن أن يبرهن في أعينكم على قيمتكم. لا تكتفوا بفعل ذلك مرة واحدة. افعلوا ذلك كلّ أسبوع، دائماً كتابة، إلى أن يصبح رفع قيمتكم لأنفسكم شيئاً طبيعياً. إحدى صديقاتي تنصح بأن يقول المرء لنفسه كلّ صباح «أحبك» في المرآة أو أن يرسل المرء لنفسه قبلة. هذا يضحك قليلاً لكني أعتقد أنه في هذا المجال كلّ الأفكار جيدة للعمل بها.

رفع جيريمي عينيه إلى السماء وهزّ رأسه ببطء.

عندما غادرا قاعة المحاضرة، في المساء، سارا جنباً إلى جنب بصمت في جادة بون-نوفيل قاصدين موقف الحافلة بواسونير. كانت باريس يهدهدها ضوء خفيف في نهاية اليوم، وهواء طريّ بشكلٍ رائع. في تلك الساعة، كان الازدحام قد خفّ، وكانت السيارات تنزلق في حركة سير سَلِسَة بصمت تقريباً.

- طيب... كيف وجدته؟ سألته أليس.

استغرق جيريمي وقتاً كي يجيب، كأنه يختار كلماته بحذر.

- جدّ مهم.

همم... عندما لا يكون جيريمي ثرثاراً، فتلك علامة غير جيدة.

- التقنيات المقترحة فعالة، لا؟

- تبدو كذلك.

يجب أن تعذّبه كي تنتزع منه أفكاره العميقة.

- لكن؟

ابتسم لكنه لم يقُل شيئاً.

- ألا تجد ذلك إيجابياً ومنشّطاً ومحرّراً؟

وافق دون أن يبدو عليه أنه يعتقد ذلك بالفعل.

- ألا تعتقد في فعالية مقاربته؟ ألحّت أليس.

- أجل، أجل.

- لكن؟

- فلنقل... إنّ المشكل يكمن في مكان آخر.

- نعم؟

أخذَ نفسه.

- في النهاية، من نتائج سعيه تدعيم الثقة والكبرياء وحب الذات... شيء جيد، لكن هل من المطلوب أن يصبح المرء متعجرفاً ومغترّاً بشخصه؟

- لا أعتقد أنّ ذلك يجعل المرء متعجرفاً. العجرفة والإنقاص من الذات هما وجهان لعملة واحدة، لأنّ مَن يتمتّع باحترام حقيقي لذاته لا يشعر بحاجة إلى تأكيد قيمته للآخرين.

- ربما.

انطبع لديها إحساس أنها كسبت نقطة.

- إذا كان عليّ أن أستعمل صورة، سأقول إنه مع الزمن، بمتابعة مثل هذه الدورات، ستصبحين شرنقة أكثر جمالاً وأكثر اتّزاناً وأكثر قوة. شيء جيد، لكن متى ستفكرين في أن تصبحي فراشة؟

أحسَّت أليس بالكدر، دون أن تفهم ما يقصد قوله بالضبط.

- الرغبة في أن أصبح فراشة قبل أن أكتمل كشرنقة، ألا يعتبر مجازفة لفراشة مشوّهة تتهشّم عند تلقيها أول نفحة هواء؟

- ربما... لكن أنت ترين، الهدف في الحياة ليس هو تدعيم الأنا. لكن العكس، عندما تنمحي الأنا نصل إلى واقعٍ آخر.

- مشوش شيئاً ما بالنسبة لي.

عندما ينفصل الإنسان عن الذات فذلك يتيح له أن يهبَ نفسه لله ويكتشف القوة الحقيقية، القوة اللانهائية لله الذي يتصرف من خلالك.

بذلت أليس جهداً خارقاً كي تحبس نفسها من أن تمزح.

- أعرف جيداً أن هذا لا يعني لك شيئاً، قال وهو يبتسم بطريقة رقيقة.

استسلمت وتركت نفسها تنطلق في ضحكة صريحة.

- اعذرني، قالت وهي تضحك، عندما تتحدّث عن أن تهب نفسك لله، هذا له نفس فعل لو قلت لي إنك ستهب نفسك لبابا نويل...

هزّ جيريمي رأسه امتعاضاً وهو يتنهّد.

- في جميع الأحوال، كما يقول ديجاردان، قبل أن يهب المرء نفسه يجب أن يمتلكها.

بدا متأثراً. أضافت في الحال:

- قبل أن يصل المرء إلى واقعٍ آخر، يجب بالفعل أن يعرف أن يعيش الأول تماماً.

- كي يعيشه تماماً، الأهم هو أن يكون في حالة حب، لا أن يهتم بنفسه.

وصية المسيح الأكثر أهمية هي «أحبوا بعضكم بعضاً».

نظرت أليس في عينيه.

- كيف تريد أن يحب أبناء رعيتك الآخرين إن لم يكونوا يحبون أنفسهم؟

علاوة على أنّ المسيح كان يقول «أحب قريبك مثل نفسك».

شعرَت بالفخر لأنها نجحت في الاستشهاد بالمسيح. لقد اشتغلَت على ملفها بجدّ. في الشركة، لا شيء كان أكثر فعالية لإقناع زبون من ذِكر جُملٍ لزعماء يشتغلون في مجاله نفسه.

لم يُجِب جيريمي بشيء. رانَ الصمت وهما يصلان إلى مخبأ انتظار الحافلة. كانت السيارات تمرّ. وضعَ رَجل إحدى رجليه على الطريق محاولاً اجتياز الشارع لكن لا أحد توقّف كي يتركه يمرّ. على الرصيف، كان المارة يلتقون دون أن يلقي أحد نظرة على أحد، مستعجلين بلا شك للعودة إلى بيوتهم.

كان جيريمي شارداً.

حان الوقت. يجب أن تقول له ذلك، بكثير من الاحترام والرقة.

- وكيف تريد أن يحب أبناء رعيتك بعضهم إذا كنتَ أنت... لا تحب نفسك؟

7

- سرقت عاملة التنظيف مسحوق الغسيل مرة أخرى!

جلست أليس إلى طاولة المطبخ وهي تحسّ بالعصبية. كان تيو قد بدأ يتناول فطوره، وكان والده يضع الزبدة على شطائره. كان إبريق القهوة يخشخش ناشراً رائحته في الشقة.

- كيف عرفتِ ذلك؟ سَخِرَ منها بول. هل وضعتِ كاميرا في الحمام؟

كان يأكل وهو يرسم بقلم الرصاص صورة تيو على مفكرته.

- لقد وضعتُ معلماً على العلبة. في البداية، كانت لدي شكوك، الآن، لدي دليل.

- وضعت معلماً على العلبة؟ أنت مجنونة؟

- لا أحب أن يستغفلني أحد.

- لن نهتمّ إن نقص عشرون غراماً من مسحوق الغسيل.

- ليس هذا هو المشكل! إنها مسألة ثقة. لا يمكن أن أستمر في تشغيل شخص لم أعُد أثق به. هي معها مفتاح الشقة، على أيّ حال!

- هي لن تسرق البيت في غيابك لمجرد أنها أخذت قليلاً من مسحوق الغسيل.

- يبدو لك الأمر تافهاً لأنك تقضي أيامك مع المجرمين والسفاحين، لكن أنا لا أريد أن أفوت هذا. سأطردها.

- ستعاقبين نفسك، ستتعبين لتجدي مَن يعوّضها.

- لا يهم، قالت وهي تضع الزبدة على شريحة الخبز.

قطعت ذلك لتذهب لتصبّ القهوة في الأقداح. عند مرورها أشعلت آلة تسليط الضوء المتدلية فوق لوحة العمل. عندما يكون المرء بمزاج سيئ، يساعد الضوء في الرفع من المعنويات. أحيا الضوء الصباغة الصفراء على الجدران بإعطاء الانطباع أن أشعة الشمس تتسرب إلى البيت، بينما في الخارج كانت السماء بلونٍ رمادي قاتل.

- ماما، هل تريدين، قال تيو وهو يشير إلى علبة طعام معلّب.

- ما هذا؟

- إنه لذيذ.

- شراب القيقب، قال بول. أحضرته من الكيبيك.

- في علبة تصبير؟

- هكذا يبيعونه هناك. في جميع الأحوال يبقى الأفضل. في القنينات الجميلة من أجل السياح وهو أقل جودة.

وضعت أليس ملعقة منه على شطيرة وسارعت بتذوقها.

- ممتاز، قالت بفمٍ مملوء.

- أجل، قال بول. إنها مجزرة!

- غريب كيف تؤثر مهنتك في مفرداتك اليومية...

ابتسم.

- لقد زرتُ كوخ سكر، في الكيبيك.

- ماذا؟

- كوخ سكر. إنه المكان الذي يقومون فيه بغلي عصارة القيقب من أجل صنع العصير.

- اسم عجيب...

- أجل.

- أنا متأكد أنهم أطلقوا هذا الاسم من أجل السياح، من أجل جذبهم.

- عملك يجعلك ترى التسويق في كلّ شيء...

- بابا، هل ستأخذني معك في المرة المقبلة؟

- سنرى.

- من فضلك...

- كُلْ، ستتأخر عن مدرستك.

ما أن قضمت أليس شطيرتها حتى رنّ الهاتف.

- أهلاً، رشيد!

- هل تريدين خبراً جيداً بمجرد الاستيقاظ؟

- هيا.

- لقد أصبحنا في لائحة ضيقة بالنسبة إلى القطريين. لم يبقَ سوى ثلاثة مكاتب في اللائحة. بدأنا نشمّ رائحة الشمبانيا.

- سيكون ذلك رائعاً!

- بولين هي التي أخبرتني، فتاة قسم الاستطلاعات. وُجّهت المكالمة نحوها خطأً. تعرفين مَن؟

- أظنّ ذلك.

- أعشق تلك الفتاة. جدّ ذكية. لامعة، حتى.

وضعت أليس السماعة بمزاج سيئ، رغم الخبر الجيد. بسبب تلك الفتاة بولين التي لم تكن تعرفها سوى من بعيد. لماذا تحسّ أنه

انْتُقِص من قَدْرِها عندما تُعطى قيمة لشخص آخر أمامها؟ كانت تحسّ بنوع من الجرح، كأنّ قيمتها هي قد قُلّل من شأنها.

شربت جرعة قهوة وأحسَّت بأنها أفضل.

فكّرت في دورة توبي، التي تساعدها أن تحسّ أنها بحال أفضل. منذ الدورة التي اصطحبت فيها جيريمي معها، وضعت في رأسها فكرة أن تصبح مسؤولة القسم. بعد أن تتمّ ترقيتها، سيَراها الجميع بشكلٍ مختلف، وسيحترمونها أكثر.

كانت سعيدة جداً لأنها استطاعت أن تُقنع جيريمي بأن يواصل. ليس سهلاً، بعد تلك الحصة الأولى، قبل شهرين... في البداية كان جد ممانع، رأته يتردّد، ثم أحسّت بانقلاب حقيقي من جهته. كان القرار صعباً أن يُتّخذ، لكنه كان شخصاً منفتحاً، مستعداً لسماع وجهات نظر مختلفة عن آرائه، وقادراً على تغيير رأيه، الميزة النادرة جداً...

بعد أن التزم في ذلك الاتجاه، تقدّم بخطوات كبيرة. كان قد شارك في أربع دورات أخرى، التهم الكتب التي أعارتها إياه، وأخذَ يتغير بشكلٍ ظاهر. نظام الكفالة الذي يعتمده توبي كان مثالياً بالنسبة لها: حصّة تُمنح لصديق مقابل خمسة سجلت من قبل، استطاعت أن تضمن استفادة جيريمي دون أن تدفع فلساً واحداً.

كانت تذهب إلى كلوني مرة كلّ أسبوعين، وكانت تستمتع بتدريبه. إذا كانت في البداية قد دخلت تلك المغامرة بسبب الصداقة والإحساس بالواجب، وبسبب دين كان عليها أن تسدده، فقد أصبحت تدريجياً تستمتع بالوضع، سعيدة بالتطور الذي حدث له وفخورة بالتغيرات التي حصلت، بعد أن كان قدرياً ومكتئباً في البداية، أصبح جيريمي حيوياً وواثقاً. لم يسبق من قبل أن لاحظت

تغيرات تحصل بتلك السرعة، كأنه كان مهيئاً لفهم وتبني وتطبيق مفاهيم علم النفس، إلى درجة أن يصبح بعد وقت قصير قادراً على مساعدة الآخرين.

خلال القداس، أصبح مشعاً، وكلمات الحب على لسان المسيح، متماهية الآن مع هيأته، أصبحت أكثر تأثيراً. العظات كانت أكثر إيجابية وتخاطب المؤمنين بشكلٍ واضح.

كان قد امتلك الشجاعة كي يقوم ببعض التغييرات في الكنيسة والتي كانت أليس تراقبها من مقاعد الصف الأخير حيث تتسلّل خِفْيَة، بعد أن يأخذ الجميع أماكنهم من أجل الصلاة. شيئاً فشيئاً ألفت المكان ولم تعُد تحسّ فيه بالقهر كما كان يحدث من قبل. عدم ارتياحها السابق أفسح المجال لإحساس محايد. كانت الكنيسة قد أصبحت بالنسبة لها مكانَ عمل مثل غيره، شركة أكثر هدوءاً من تلك التي اعتادت مواجهتها عادة.

صحيح، انتهى بها الأمر إلى أن تعقد اتفاقاً مع جيريمي.

- هل يمكن أن تَعِدَني بشيء؟ سألته ذات يوم.

- أسمعكِ.

- أنا مستعدة لمساعدتك على تحسين أمور الكنيسة، إلى الوصول إلى عدد أكبر من الناس. فقط عليك أن تقطع وعداً.

- ما هو؟

- ألّا تحدّثني أبداً عن الله.

قَبِلَ، وابتسامة مستسلمة وحزينة على شفتيه.

تعوّدت أليس على مراقبة عدد أبناء الرعية القليل، والاستمتاع بتناقضاتهم التي كانت تنتهي بجعلهم جذابين. كيف يمكنها ألّا تبتسم وهي تراهم يرتدون أجمل ثيابهم للمجيء إلى القداس، متأنقين إلى

أقصى درجة من أجل الصلاة للمسيح... الذي كان في الماضي يسير حافي القدمين ويدعو الأغنياء للتخلص من ملابسهم الجميلة؟ كيف يمكنها ألّا تضحك وهي تسمعهم يغتابون أحد الجيران مباشرة بعد أن رأتهم يستمعون بخشوع إلى موعظة عن الحب والتسامح؟

كانت أليس تشعر بودّ نحو فيكتور، صانع النبيذ المتقاعد شبه أصمّ، وإتيان صديقه المتأتئ، اللذين كانا يكوّنان دائماً زوجاً عجيباً.

كان العديد من أبناء الرعية يعاندون التطوّر، وكانت أحاديث فناء الكنيسة تعكس المعارضة السائدة. جيرمين وكورنيليا، المتزمّتتان، لسانَي الأفعى، لم يكن لهما مثيل لنشر مقاومة التغيير بواسطة جمل صغيرة بريئة ظاهرياً.

شعرٌ مصبوغ بالأسود مثل الغراب، كانت جيرمين تقف أمام الشخص وتثبّت في عينيه بصرها المتّقد كي تجذب انتباهه.

- باخ ليس قبيحاً، لكني أحبّ الأنغام الصغيرة التي كنا نستطيع ترديدها، ألا تشتاق إليها، أنت؟

لم تكن عينها الشبيهة بعين الصقر تطلق الشخص، وكان يحسّ بنفسه مضطراً لموافقتها. بجانبها، كانت كورنيليا التي تصبغ شعرها بلون بيج مصفرّ، تبدو كأنها تجمّدت للأبد بسبب سماكة الدهان، تهزّ رأسها مسانِدَة دوماً كلام صديقتها.

- ألا تلاحظون أنه ينقص هذه الأوقات الأخيرة شيء؟ ألا نكون بصدد فقدان تقاليدنا؟

كانت تزرع بذوراً من الشك، وكانت أليس ترى جيداً أن البعض منها تنمو في ذهن البعض.

كانت قد فاجأتهما تشتكيان للسيدة دو سيردغو، بارونة تحجز مكانها في الصف الأول في مكان الكراسي، قرب الممر الرئيس،

المكان الذي كان يظلّ شاغراً عند غيابها. كانت الأخيرة قد استمعت إلى كلام المتزمتتين ووعدتهما بأن تُخبر الأسقف، الشيء الذي بدا أنه أسعدهما إلى أقصى درجة، وأقلق أليس بالقدر نفسه.

في كلوني، كان الجميع يعرف السيدة دو سيردغو، على الأقل من بعيد أو عن طريق السماع بها، سيدة في حوالي الستين، هيأة فخورة ومترفّعة، تختار ثيابها بأناقة، وتضع حول عنقها سلسلة تحمل صليباً من الذهب ترصّعه ياقوتة في وسطه. كان زوجها قد هجرها قبل بضع سنوات، وكان الجميع يعرف أنها ناضلت خلال الطلاق لتظلّ محتفظة بكلّ امتيازات طبقتها، القصر الخاص، السيارة الجاغوار العتيقة، وبالأخص اسمها بعد الزواج مقترناً بلقب بارونة، الأكثر أناقة من اسمها قبل الزواج، جوزيت غروسارد، الذي حرصت منذ زواجها على إزالته من جميع الوثائق والمذكرات. كانت تعيش وحيدة منذ طلاقها، وحدها في ذلك القصر الكبير الذي لم تعُد تملك الإمكانات لتعتني به، لكنها كانت تفعل كلّ ما بوسعها كي تعيش بكرامة، الوضع الذي تريد أن تحافظ عليه في أعين الجميع.

كانت هناك أيضاً الراهبة الذي تدسّ في يد أليس كلمات مكتوبة على ورقة مطوية على ثمانية، بمجرد أن تطأ قدما أليس الكنيسة. في المرة الأولى، كانت أليس المندهشة قد فتحت الورقة تحت عين الراهبة المبتسم.

طوبى للفقراء،

فإن لكم ملكوت السموات.

- لماذا تعطيني هذه؟ سألتها أليس.

اكتفت الراهبة بالابتسام، دون أن تجيب بشيء. كانت أليس قد ألحّت، إلى أن أمسكت سيدة من الرعية ذراعها:

- لا داعي لأن تطرحي عليها السؤال، هي صماء خرساء.

حينئذٍ شكرتها أليس بحركة دون أن تحاول البحث أكثر في سبب اقتباسها جملة من الإنجيل.

في المرة التالية، دسّت الراهبة مرة أخرى في يد أليس ورقة قَبِلَتها أليس عن طيب خاطر.

طوبى لكم عندما تُكرهُون،

وتُضطهَدون،

فلن يُعثَر على بقعة في المكان الذي اضطُهِدتم فيه.

أرغمت أليس نفسها على الابتسام وهي تتساءل إنْ كان في نية الراهبة أن تسلِّمها مجموعة الأناجيل الكاملة في أجزاء.

تتابع المسلسل في كلّ مرة أتَت فيها أليس، التي انتهى بها الأمر إلى أن تطلِقَ على صاحبة الرسائل اسم «الراهبة إيكيا». المسكينة، لا بد أنها ساذجة شيئاً ما.

في النهاية، خيبة أليس الكبيرة كانت بسبب ضآلة عدد أبناء الرعية الجدد. كان العدد قد ارتفع من اثني عشر إلى واحد وعشرين. لو كان عليها أن تدافع عن هذه النتيجة الهزيلة أمام مجلس إدارة، كانت ستتباهى بصوت عالٍ بهذه الزيادة المقدّرة في 75% في عدد الحضور، لكن، هنا لوحدها مع نفسها، كانت تحسّ أنها صرفت كنزاً من الطاقة من أجل شيء قليل. الوافدون الجدد كانوا من الأوفياء القدامى التائهين الذين سلكوا طريق الكنيسة ثانية بفضل الكلام الإيجابي الذي تناقلته الألسن، الشيء الذي كان يثبت أليس في اختياراتها ويدعم مصداقيتها في عيني جيريمي. لكن كان لا يزال هناك ثلاثمائة وتسعة وسبعون مكاناً شاغراً.

هذا العدد كان كافياً كي يدفع لليأس المستشيرين الأكثر ثقة،

لكن أليس كانت تحتفظ في ذهنها بدراسة السوق التي عهدت بها شركة نايك لاثنين من الطلبة في القرن الماضي، كلّ واحد منهما كانت مهمّته أن يجوب أفريقيا من أجل تقييم سوق الأحذية. قدَّم الأول تقريراً موجزاً: «كلهم يسيرون حفاة. تخلّوا عن الأمر: لا يوجد سوق». الثاني كان له استنتاج آخر: «كلهم يسيرون حفاة. تقدّموا: السوق ضخم!».

لم تكن أليس قد قالت كلمتها الأخيرة بعد. كانت لا تزال تحتفظ بورقة لتلعب بها، وكانت تشتغل عليها منذ أسبوعين مع جيريمي. تلك الورقة كانت تحمل اسم **اعتراف**.

الاعتراف... ذلك الفعل الديني الذي يعترف فيه التائب بأخطائه ويحصل على الغفران كان يبدو عتيقاً تماماً، عفا عليه الزمن، ويمارسه فقط بعض الذين يعتقدون في الخرافات ويحسّون بالحاجة إلى إعادة العداد إلى الصفر قبل أن يركبوا الطائرة أو أن يسلموا الروح. لكن أليس كانت تنظر إلى الأمر بشكلٍ مغاير. رغم أنّ جلدها كان يقشعرّ لمجرد رؤية كرسي الاعتراف الخشبي الغامق في كنيسة نوتردام، ذلك المنعزل المتزمت ذي الهيئة المقلقة، كانت تحسّ أنّ فعل الاعتراف يمكن أن يبشِّر بعودة عدد كبير من الأشخاص.

منذ بدأ برنامج **لوفت ستوري**، أعاد تلفزيون-الواقع الاعتراف إلى الأذواق، وأصبح الناس يعشقون نشر الكلام الحميم والاعترافات من جميع الأنواع. أصبحنا نرى نجوماً ورجالَ سياسة يكشفون من دون خجلٍ عن ضعفهم في البرامج التلفزيونية، يعترفون بخيانة زوجية، ميلٍ نحو الكحول، أو شذوذ جنسي. كلّ الحجج كانت جيدة لينشر المرء غسيله ويعرض انحرافاته. المواطنون يعشقون الاعترافات، وكان يوجد هنا بالنسبة إلى أليس رافعة تسويق لاستغلالها. يجب

إعادة شكل الفعل في الكنيسة فقط من أجل أن تجعله جذاباً. حول هذه النقطة، لم تكن قد وجدت بعد الوصفة السحرية.

كانت تحس فقط أنه يجب أن تستبدل الاعتراف بتبادل حديث من أجل أن يستفيد المعترف بالنصائح ويتلقى دعماً حقيقياً. باختصار، التحرّر من البروتوكول المتشدّد للاعتراف بتعويض التوبة والغفران بنوع من التدريب الشخصي.

- غير واردٍ، كان جيريمي قد أجاب. إنه مبرمج على هذا النحو منذ القرن السادس عشر.

- إذا كنتم قد نجحتم في الاستغناء عنه طيلة ستة عشر قرناً، فلن يكلّفكم شيئاً لو تمّ إيقافه.

هزّ رأسه.

- فعل التوبة حيث يطلب المعترِف المسامَحَة على أخطائه أساسي.

- وإنْ يكن، أن يَضرب المرء نفسه شيء عقيم، بينما البحث عن أجوبة عن صعوبات الحياة التي دفعتنا للتصرّف بشكلٍ سيئ شيء بناء. الوعي بأخطائي فرصة رائعة كي أفهم نفسي أكثر وكي أتطور. لو اكتفيت بضرب صدري وأنت تبرِئُني، ماذا أتعلم؟

انتهت أليس بإقناع جيريمي. يجب الآن أن تجدَ الوسيلة التي ستجرّ بها أبناء الرعية للمجيء من أجل الاعتراف. وبعدهم، المواطنين.

- ماما هل تريدين شراب القيقب؟

حدّقت أليس في علبة التصبير؟

- ماذا بك ماما، لماذا لا تجيبين؟

خطرت لها فكرة. . .

8

- شيء لا يصدَّق!

هزّت جيرمين رأسها. لم ترَ هذا أبداً من قبل. سحبت صدريتها بلون الخردل نحو الأسفل فوق تنورتها الاسكتلندية.

- كيف يمكن تفسيره؟ أضافت كورنيليا بصوتها الخارج من الأنف، وهي بالحيرة نفسها.

أدارت رأسها واستدار معها شعرها البيج المدهون كتلة واحدة، مثل خوذة صلبة.

- أتساءل بجد، ردّت جيرمين، بخشونة.

كان صف الانتظار أمام المعترف يصل تقريباً إلى باب الكنيسة.

غمست كورنيليا أصبعها في ماء جرن الماء المقدّس البارد، رسمت علامة الصليب، ثم مسحت يدها في تنورتها الكولوتيس.

- كلّ يوم، يوجد أناس.

- كنت قد طلبت منك أن تطلبي من الأب جيريمي.

- لكني فعلت، برَّرت كورنيليا.

- شيء يصعب تصديقه.

- أجل، أجل: هو نفسه كان مندهشاً...

- ربما تصرّفت بطريقة سيئة. يجب أن أسأله بنفسي.

بدت كورنيليا بهيأة بليدة. أقلّ عتاب كان في كلّ مرة يتسبّب لها في حالة شك، الشيء الذي كان يسلي جيرمين كثيراً.

كان الناس ينتظرون بصبرٍ في الصف. العديد من الرؤوس الجديدة، التي لم يسبق رؤيتها في الكنيسة.

تنهّدت جيرمين.

- ربما كان هذا من متطلبات العصر، أصبح لدى الناس الكثير ليحاسبوا أنفسهم عليه.

عقدت كورنيليا حاجبيها، وهي تفكر، كأن ذلك الكلام قد شغل فيها آلية تفكير عميق.

- نحن، منذ فترة طويلة لم نعترف، قالت بعد بعض الوقت.

- لسنا في حاجة إلى ذلك.

أحسّت كورنيليا بالارتياح.

- أنت محقّة. لسنا معنيتين.

سمع حفيف ثوب. كان جيريمي قد خرج من المعترف. أشار إلى الراغبين في الاعتراف بالانتظار ثم ابتعد برشاقة نحو الموهف.

- أبتِ...

- إنه لا يسمع، تأوّهت كورنيليا.

تَبِعَت جيرمين من بعيد الكاهن الذي اختفى داخل الكنيسة. اقتربَت بصمت بفضل حذائها الرياضي. كان باب غرفة المقدّسات موارباً. في الداخل، مكان ضيق، ليس فيه أثاث: حامل ثياب، طاولة خشبية داكنة عليها مرآة متواضعة. قطعة أثاث على شكل وعاء خبز القربان. كان الكاهن قد ذهب إلى دورة المياه. إذا انتظرته في المكان، لا يمكن أن تفلته.

بعد دقيقة، سمعت وقع خطوات. تراجعت غريزياً إلى الخلف في ظلّ عمود وراقبت. ما رأته حينئذٍ أذهَلَها وصدمَها إلى أقصى درجة، عند مروره أمام المرآة، أرسَلَ الأب جيريمي لنفسه قبلة وتمتم بسرعة، لكن بشكل واضح كلمات دنيئة لن تنساها أبداً:

- أحبّك.

ارتعبت جيرمين وتراجعت إلى أقصى ما تستطيع خلف عمود الرخام إلى أن أحسّت ببرودة حجر الحائط في ظهرها. حبست نفسها بينما كان الأب يمرّ أمامها، محرِّكاً نفحة هواء جعلتها ترتعش رغماً عنها، كأنّ الشيطان نفسه هو الذي لمسها.

انتظرت حتى اختفى بعيداً في المعترف، ثم اجتازت البلاطة كي تلحق صديقتها وأمسكَتْها من ذراعها كي تجرّها خارجاً وتحكي لها الحادث، وهي تشعر بالسخط.

في الشارع الذي غطّته الشمس، بعض السياح يتأملون الواجهات التي تعود للقرون الوسطى لبيوت المكان.

- هو لم يكن هكذا من قبل، قالت كورنيليا.

- منذ عدة أشهر، ساءَ كلّ شيء هنا.

- أجل. منذ بداية الربيع. لا أعرف ماذا يحدث.

هزَّت جيرمين رأسها بدراية.

- عندي فكرة حول هذا الموضوع.

فتحت كورنيليا عينيها.

أطالت جيرمين التشويق للحظات.

- هل لاحظتِ المرأة الشابة التي تحوم في الجوار أيام الآحاد؟

- سمراء، شعرها متوسط الطول؟

- أجل، قالت جيرمين.

- إنها أليس، ابنة العجوز الأرمل الذي يسكن في البيت قبالة معهد الموسيقى.

- رأيتها عدة مرات تتحدث مع الأب جيريمي قبل القداس، وأحياناً بعده، أنا متأكدة أنها مسؤولة شيئاً ما عمّا يحدث.

- نحن أيضاً نتحدث مع الأب جيريمي.

- أجل لكن هي، الأمر مختلف. أحسّ بذلك. أنا متأكدة أنّ التغيير صدَرَ منها.

- تعتقدين أنها هي وهو...

رفعت جيرمين حاجبيها بدراية.

- لكنها متزوجة، أظن...

- في جميع الأحوال، هي تُفسده لنا. انظري إلى كلّ الأشياء الغريبة التي يجعلنا نقوم بها في الكنيسة، الآن. مثل تقديم مجاملات للجار، إخباره بالميزات التي حبانا بها الله...

- صحيح.

- كلّ هذا، غير صحّي. لا يمكن أن نتحدث عن ميزاتنا في حين أنّ الإنسان خطاء.

- صحيح، الإنسان خطاء.

- خاصة المرأة.

- آه! أجل، قالت كورنيليا وهي تنظر إلى شابة من المارة ياقتها مفتوحة. خاصة المرأة.

9

كان طريق الأسقفية ينتهي بممرّ تصطف على جانبيه أشجار شائكة جدّ معمّرة تمتدّ أغصانها ذات اللون الأخضر الداكن المليئة بالإبر في سماء بزرقة شاحبة تجتازها سحب كبيرة مسرعة.

آخر مرة تحدّث فيها جيريمي مع السيد دوبينيي، قبل بضعة أشهر، كان قد اعترف له باضطرابه، وشكوكه حول أهمية مهمته لدى عدد محدود جداً من أبناء الرعية يأتون عن وفاء وليس سعياً للروحانية. كان الأسقف قد قلّل من اضطراب حالته النفسية: كلّ الكهنة يمرّون بطورٍ من الملل في بداية مرحلتهم الكهنوتية، هذا شيء طبيعي، كانساً قلقه بضربة يدٍ دون أن يحاول أن يفهمه بحقّ. كان جيريمي قد أحسّ أنه مثل المرأة التي ينكرون كآبتها لسبب وحيد «هذا عادي خلال الدورة الشهرية».

أيّ تغيير بعد هذه الأشهر. . . أصبح جيريمي يحسّ أنه واثق وهادئ وأن مهمته تسكنه وأنه سعيد بالنتائج التي حصل عليها، والتي يحرص على ألّا يفخر بها. كانت تدابير أليس قد أتاحت جلبَ عددٍ جديد من الناس إلى الكنيسة، خاصة إلى المعترف، حيث أصبحَت تُسمع كلّ يوم همسات أصوات جديدة. بالتأكيد لم يكن مغفّلاً،

هؤلاء كانوا يأتون من أجل تنوير الكاهن-المدرب أكثر منه من أجل نور الرب، لكنه كان مقتنعاً بإخلاص أنّ الأمر يتعلق باستهلال يمكن أن يقود إلى صحوة روحانية ممكنة.

أصبحت الكنيسة تعرف تدفّقاً جديداً، حتى ولو أنها لم تكن ممتلئة تماماً. يجب القول إنها كانت كبيرة، قرابة أربعمائة مكان للجلوس، وكان جيريمي يعرف جيداً أنه لن يملأها أبداً. لكنه أصبح يتقبّل ذلك بحكمة.

لا بد أنّ الأسقف يفرك يديه. معروف بطموحه، كان الجميع يعرف أنه يتخيل نفسه كاردينالاً بالفعل، لا يملك سوى أن يبتهج لعودة ازدهار إحدى الأبرشيات التابعة له. وأيّ أبرشية! بلا شك الأكثر إشكالاً في تاريخ المسيحية، غارقة منذ قرنين في هبوط مستمرّ كان المنفذ منه يبدو متعنّتاً.

أغلق جيريمي باب الكليو دون أن يصفقه، ورفع بصره نحو الصرح الجليل من حجارة البورغوندي بنوافذه المرتفعة البيضاء ذات المربعات الصغيرة والتي تبدو كأنها تحوي السلطة منذ قرون.

سارَ نحو المدخل. كان رداء الكاهن الذي تحرّكه الريح يضرب ساقيه. دخل واستقبله سكرتير قادَه بصمت على طول ممرّات إلى أن وصل إلى ردهة مكتب الأسقفية، غرفة ضيقة ومرتفعة طُليت جدرانها بالجير الأبيض وأثّثت بطريقة متقشّفة؛ كراسي لويس الثالث عشر من الخشب الداكن والقطيفة بالأخضر الزيتي.

انتظر جيريمي واقفاً لا يتحرك لحظة طويلة، ثم اقترب من النافذة. في الخارج، كانت السحب تتراكم، ثم تمرّ في السماء وترمي بظلال متحرّكة على التلال التي تغطيها الغابة.

في الداخل، كان الصمت تاماً، ولو لم يقُدْه سكرتير، لاعتقد

جيريمي نفسه وحيداً تماما في بناية هجرها ساكنوها، مع جارٍ وحيد، الريح التي تَزايد هبوبها بالتدريج. طال الانتظار، وانتهى الأمر بجيريمي إلى أن يتساءل إن لم يكن مضيفه غائباً أو حبَسَه شيء في مكان ما.

بعد أن تعب، جلسَ على أحد الكراسي وفي تلك اللحظة بالضبط، فُتِحَ باب المكتب وظهر الأسقف.

نهض جيريمي دفعة واحد دون أن يفكر، كأنه يحسّ بالذنب لأنه ترك نفسه يرتاح.

- سيدي...

نظر إليه الأسقف بابتسامة مزدرية. كان يرتدي رداء بنفسجياً ناعماً جداً يبرز روعته ويُظهر سلطوية وظيفته. تبع جيريمي إلى المكتب.

كان الأسقف في حوالي الخمسين، شعره رمادي، نظرته ذكية ووجهه جاد رغم أن جيريمي كان قد رآه من قبل وهو يسحر مخاطبيه كي يتوصل إلى إقناعهم.

كانت الغرفة فسيحة جداً، بلاط فرساي، سجاد فارس، غارقة في ضوء يؤجّج نسيج أوبيسون الذي زيّنت به الجدران.

جلس جيريمي على كرسي على جانبه طاولة مستطيلة طويلة، بينما كان مضيفه يأخذ بعض الأوراق من فوق مكتبه.

- ما هي أخبار الأبرشية؟

- جيدة، قال جيريمي، متحمّساً. لقد اشتغلتُ بنشاط كي أحصل على أوفياء جدد، والنتائج جدّ مشجعة.

تركه الأسقف يتحدّث ثم ذهب ليجلس على الكرسي الضخم الذي وُضِعَ عند نهاية الطاولة. كان يمسك في يده وثائق ينظر إليها وهو يستمع إلى زائره. كان الخاتم الكهنوتي الذي يضعه في أصبع

يده اليمنى يحتوي على حجر من الجمشت تحيط به ماسات تعكس الضوء أحياناً.

- لقد استدعيتك، قال فجأة وهو يزن كل مقطع صوتي، لأني أريد أن أحصل على رؤية واضحة عمّا يحصل في كلوني منذ بضعة أشهر.

غرقت الغرفة في الصمت. بلع جيريمي ريقه.

من فوق كرسيه الضخم، كان الأسقف يحدّق فيه، مهموماً، ونصف ابتسامة بالكاد تحجب قسوة نظرته. كان الضوء الأبيض الذي يرشحه السحاب يضفي عليه بعض الشحوب.

- هل لديك أشياء تقولها لي، أيها الأب جيريمي؟

بعد أن أخذ على حين غرة، حاول جيريمي أن يظلّ هادئاً.

- لقد طبقت عدّة أفكار كي أجذب أبناء الرعية إلى الكنيسة، و...

- أفكار؟ أي نوع من الأفكار؟

- فلنقُل إني حاولت أن... أزيل الغبار عن بعض الممارسات من أجل أن يسمعني عدد أكبر من الأوفياء، سيادتكم.

هزّ الأسقف رأسه وهو يفكر.

- ألم تذهب... بعيداً، مثلاً؟

نظر إليه جيريمي. ماذا أخبروه، بالضبط؟ على ماذا يلومه؟

- لقد تصرفت في كل لحظة في روحي ووعيي محترماً بالحرف روح الإنجيل.

انحنى الأسقف على إحدى الأوراق التي كان يمسكها في يده.

- روح الإنجيل، كرّر ببطء. روح الإنجيل... وهل تحترم بالقدر نفسه روح الكنيسة التي تنتمي إليها؟

نطق تلك الكلمات بنبرة أرادَها غير مؤذية، قبل أن ينظر متفحّصاً إلى جيريمي في عينيه مباشرة مترقّباً أدقّ ردود فعله.

- ذلك ما أتمناه، سيادتكم.

- هل تتمناه أم أنّك واثق من ذلك.

تردَّد جيريمي بضع لحظات.

- أتمناه بكلّ إخلاص.

تجهَّم الأسقف، وحدَّق فيه بصمت لحظة طويلة. أحسّ جيريمي أنه معلّق، معرّى، مقيَّماً، محاكماً.

في الأخير، تنهّد الأسقف ببطء، لكنه لم يلحّ. تابع الحديث حول المواضيع العادية في حياة الأبرشية، ممّا جعل جيريمي يشعر بالارتياح. بعد عشر دقائق، نهض وأوصل زائره إلى الباب.

تبعه جيريمي، وهو يدور حول المائدة، نظر بانفعال إلى الورقة التي وضعها الأسقف للتو.

كانت إعلاناً على خلفية بنفسجية فاتحة. في رأس الورقة، العلامة «مجاني!» تجذب الأنظار. متبوعة بنصّ صغير يدعو إلى المجيء من أجل تبادل الحديث حول المشاكل الشخصية بكلّ حرية وفي سرية تامة.

تجمّد جيريمي وهو يرى العنوان المكتوب، عنوان كنيسته. وهو يكتشف البقية، أحسّ بمزيج من العار والغضب يتصاعد في داخله:

رسمٌ بقلم أسود، يحتلّ نصف الصفحة، يمثّل المُعترف. مباشرة تحته، بعض الكلمات بحروف كبيرة كُتبت بأسلوب ساخر:

كوخ النصائح

10

أكوام من الزبالة.

هائلة.

عند سفح برج مونتبارناس، مباشرة قرب أبواب الممرّ. حاويات قمامة مليئة، مدفونة تحت جبال من الأكياس السوداء، مكدّسة بالمئات. رائحة وبائية. كان الموظّفون يلتحقون بمكاتبهم وهم يسدون أنوفهم بمنديل، أو قطعة ثوب، أو أيديهم العارية ببساطة. كان إضراب عمال النظافة قد وصلَ إلى يومه الخامس فقط وكانت الحالة تبدو غير محتَمَلة. حجم النفايات التي كان ينتجها الخمسة آلاف مستأجر في البرج كانت لا تصدّق.

بضعة أمتار أبعد من ذلك، كان عامل تنظيف الزجاج يصعد على شبكة القضبان، مستعداً للصعود على طول الجدار العمودي للقيام بمهمته اليومية. ذلك السنغالي الطويل كان وجهاً مألوفاً لدى كلّ المشتغلين في البرج. كان يتمتع بحقّ دخولٍ دائمٍ إلى جانبك، في اللحظة التي لا تنتظره فيها أبداً: بينما أنت تتحدّث على الهاتف، أو مركّزاً على أحد الملفات تحكّ رأسك، أو تجول على مواقع الإنترنت في ساعة فراغك، يظهر دون أن يُعلَم خلف زجاج النافذة،

أحياناً يغمزك بعينه، أحياناً أخرى يبتسم ابتسامة واسعة ألترا-برايت، أو يتبنى تعبير استياء، عيناه جاحظتان، متظاهراً أنه فاجأك تمارس نشاطاً لا يُقال.

كانت أليس قد تبادلت معه الكلام، ذات يوم وهو يهبط من شبكة القضبان، عند نهاية اليوم. كانت قد سألته عن سرّه، لماذا كان يبدو دائماً بمزاج رائع، مع ممارسته مهنة غير سهلة.

- مهنتك هي بالأحرى مهنة غير جذابة، كانت قد حدّدت له كي تبرِّر سؤالها.

- لا على الإطلاق! كان قد احتجّ. بفضلي، يرى الناس العالم بشكلٍ أفضل.

بفضله، الناس يرون العالم بشكل أفضل. . . كانت أليس قد انصرفت وهي تفكّر. وهي، ماذا تقدم للعالم بالتحديد؟

ذلك الصباح، وسط أكياس الزبالة، كان فرحاً تماماً، في نقاش مع رجل عجوز. اقتربت أليس وهي تتنفّس من خلال وشاحها القطني الرقيق.

- يبدو أن كلّ هذ البازار يجعلك سعيداً. . .

- ها، ها، ها! أخبرني هذا الرجل أنه بجميع هذه الأزبال الحي يُعيد الصلة بأصوله. أنفجر من الضحك! حيّ راقٍ يستمدّ اسمه من مزبلة. ها، ها، ها! شيء جيد، هذا!

- لكن لا، قالت أليس. اسمه إحالة إلى جبل بارناس، جبل مقدّس في اليونان القديمة.

- الصحيح، قال الرجل العجوز، وعيناه مشبَعتان بوميض لعوب. في القرن السابع عشر، كان الطلبة يأتون ليلقوا قصائد على رابية بُنيت بالأنقاض والحطام. كانت موجودة بحجمٍ كبير حتى أنها

كوّنت جبلاً صغيراً، أطلق عليها طالب ساخر «جبل بارناس بالفرنسية مون بارناس». بقي التعبير شائعاً وأعطى اسمه للحي، ثم للبرج.

رن هاتف أليس المحمول.

- نعم، رشيد.

- سلام. أين أنتِ؟

- في سفح أكوام الزبالة، وأنت؟

- في القمة، كما العادة.

- جيد.

- طيب، هل أنتِ جالسة؟

- من الأفضل ألّا أفعل هنا.

- عندي خبر صادم.

- هيا، سأتمسّك بالزبالة.

- لقد حصلنا على العقد القطري.

العقد القطري.

بقيت أليس مشدوهة. سقطَ وشاحها. بالقرب منها، كان السنغالي قد استأنف حواره الممتع مع الرجل المتقاعد. كان الموظفون يسرعون الخطى وهو يغطّون أنوفهم. كل ذلك العالم بدا لها فجأة محبوباً.

العقد القطري.

فازوا به.

الزيادة المضمونة... السفر إلى أستراليا مع العائلة... الترقية، ربما...

- لقد وضعوا بنداً مستعجلاً، قال رشيد. هل أنتِ موافقة لعقد اجتماع العصف الذهني في العاشرة؟

- طبعاً. أعلِمْ الفريق، سأصعد.

بعد ساعة، كان الكلّ مجتمعاً حول مدير الشعبة، الذي كان يقوم مقام رئيس القسم في انتظار تعيين هذا الأخير.

- سأذكّركم بالهدف، قال لهم. تلميع صورة قطر في نظر الجمهور الكبير في الدول الأوروبية الأساسية. فلنبدأ بفرنسا. أفكاركم؟

انطلقت أليس. إذا كانت تأمَل في ترقية، يجب أن تكون في المقدِّمة.

- فلنجعلهم يقومون بشراء شركة غارقة في المشاكل، لها بُعد عاطفي، مثل شركة ألعاب تقليدية من منطقة جورا، على وشك الإفلاس. ثم نطلق عملية تجارية في جميع الاتجاهات في الإعلام، من نوع لقاء على محطة RTL مع عاملة تشكرهم لأنهم مكّنوها من الاحتفاظ بعملها. ضَعْ نفسك مكان الناس العاديين، إذا كان القطريون ينقذون صانعي لُعَب طفولتك، سيصعُب عليك بعد ذلك أن تتخيَّل أنهم يموّلون داعش وقاطعي الرؤوس فيها، أليس كذلك؟

لم يُظهر المدير أيّ تأثّر لكنها أحسَّت أنها قد حقَّقت نقطة. انطلقت عدة أفكار بسرعة، بذلت جهدها لإعادة صياغتها أحياناً، وهي تزِنُ تدخّلاتها، وتأخذ الزعامة عرضاً، دون أن تبالغ. بعد نصف ساعة، كان لدى القطريين بداية جيدة كي يصبحوا أولياء. فجأة، رأت أليس عبر الزجاج سلك شبكة قضبان عامل تنظيف الزجاج، وفكّرت في عملية سبر أغوار الذات التي أطلقَها فيها، وذلك السؤال الذي بقيَ بلا إجابة، ماذا تقدِّم للعالم بالتحديد؟

تذكّرت كلاماً قاله لها جيريمي حديثاً. توجد ثلاثة أبعاد في

الكائن البشري: الداخلي، والأفقي، والعمودي. الحياة الداخلية، سبر الأغوار، معرفة الذات كانت عناصر مفهومة. البُعد الأفقي أيضاً، مع أهمية العلاقات في الحياة، والأخوة. لكن ماذا كان يقصد بالضبط بالعمودية؟ ذلك يبدو ضبابياً، غير عقلانيّ بالمرة.

أمسَكَت نفسها عن الضحك وهي ترى يد السنغالي تبرز من تحت ثم تتحرّك كأنه يبحث بيأس عن شيء يرتكز عليه وهو يصعد البرج. ثم ظهر بالكامل، تعرَّف عليها وسط المجموعة، وغمَزَ لها بعينه. كان متألقاً، كالعادة. رغم أجرة بلا شك لا تتجاوز الحدّ الأدنى.

هي أيضاً كانت سعيدة عندما ساعدت جيريمي، رغم أنها لم تتلقَّ أجرة. ومن دون أن يكون لها وظيفة أو مسؤولية رسمية.

غريب.

* * *

- كيف تجرّأت على فعل شيء من هذا القبيل؟

انتفضت أليس ورفعت عينيها عن الرواية التي كانت تقرأها وهي منكفئة في الكرسي العتيق المنجَّد بالقطيفة الخضراء في الصالون، قرب النافذة. عندما تكون عند والدها في كلوني، كانت معتادة على تلقي الزيارات فجأة. أقل رسمية من باريس، كانت العلاقات طبيعية، والأصدقاء لا يتردَّدون في الدخول حتى من دون دعوة.

نظرة جيريمي الزرقاء، التي كانت رقَّتها تتناقض عادة مع صرامة رداء الكاهن الأسود والطوق الأبيض، كانت هذه المرة تتَّقد من الغضب.

كان يلوِّح بالإعلان، وذراعه ممدودة ناحيتها.

وجَّهت له أليس أفضل ابتساماتها.

- هل من مشكل؟
- الأمر سخيف تماماً!
- لو كان سخيفاً، لم يكن ليحقّق كل ذلك النجاح...
- لا يمكنكِ أن تفعلي شيئاً كهذا دون أن تأخذي رأيي أولاً!
- لم تكُن لِتُوافق.
- كنت سأكون محقاً وأنا أرفض!
تأمّلت أليس الإعلان بإعجاب.
- اعترف أنّ الرَّسم ناجح.
- السؤال لا يكمُن هنا.
تنهَّد جيريمي.
- أصبح يُشار إليّ بالأصبع، أضاف. حتى الأسقف تمّ إعلامه فاستدعاني.
تباً. الأسقف... التسلسل الهرمي الذي يتدخل... لم تكن قد توقَّعت هذا الأمر.
أشاحَت ببصرها ناحية النافذة. كانت الصباغة العاجيّة تتقشّر، حرقتها الشمس، هذه الشمس التي بفضلها يُعطي عنب البورغوندي أفضل نبيذ في العالم.
- أنا متأسفة، انتهت بأن صدرت منها وهي تنظر إلى النافذة.
- ليس بمقدار أسفي.
- أعترف أنه لم يكن عليّ أن أفعل.
- هذا أكيد.
- اعذُرني.
لم يُجِب.

استدارَت نحوه.

- من فضلك...

نظرَت إليه مطوّلاً في صمت ثم وجَّهت إليه ابتسامة ساحرة.

- هل حقاً من الضروري أن أدخل إلى كوخك كي تسامحني؟

تجمَّدت نظرة جيريمي الصارمة بضع لحظات ثم ذابت قوقعته، قاوم ابتسامته وهزّ رأسه من الغيظ.

الجزء الثاني

قال المسيح: «من يبحث فليتابع البحث حتى يجد. وعندما يجد فسوف تختلج روحه. وعندما تختلج روحه فسوف يبصر ويجد ما هو رائع ومذهل. وسوف يمتلك على كل شيء».

توما، كلمة الرب رقم 2

11

كان القداس-العالي السنوي ينذر بأن يكون عاصفاً.

عندما دخلت أليس إلى قاعة المؤتمرات الكبيرة المتدرِّجة شيئاً ما، أحسّت على الفور بتوتّر في الجو. أخذ موظفو المكتب، البالغ عددهم خمسمائة، أماكنهم في صمتٍ تام، بعيداً عن الأجواء الودّية التي عرفتها الدورات السابقة.

أليس نفسها لم يخْبُ غضبها منذ خمسة عشر يوماً. لم تستطِع أن تتقبل الإعلان عن الزيادة العامة في الأجور التي حدّدت في 0,1% مع استبعاد أيّ زيادة فردية.

0,1%. أسوء من صفر: جرعة من المواساة التافهة مُهينة أكثر من أيّ رفضٍ قاطع لأيّ زيادة. الأنانية نفسها، تنقصها الشجاعة.

0,1%.

وداعاً أستراليا.

وداعاً للسفر مع العائلة، الذي حلمَت به طويلاً...

لكن ما تحسّ به كان يتجاوز عدم الرضا، لقد تعرّضت لجحود، واحتقار، وعدم اكتراث بالمجهود الضخم الذي بذلته من أجل الحصول على العقد القطري، أكبر عقد يوقّعه المكتب منذ عشر

سنوات. ذلك المجهود الشخصي الكبير الذي بذلته مرَّ في صمت، كأنما تمّ إنكاره. أحسَّت بأنها غير معتَرَفٍ بها، احتقرَت جهودها، تمّ تجاهل نتائجها. في النهاية، فقدَت الحافز. فقدَت الحافز تماماً. نظراً إلى الجو السائد، لم تكن الوحيدة.

.%0,1

بالتأكيد، في هذا السياق، جاء تصريح الصحافة في وقتٍ غير مناسب البتة بالنسبة إلى المدير العام. يستحقّ ذلك. ألا يجب أن يكون المرء غبياً، غبياً جداً كي يمنح نفسه علاوة بمليوني يورو خمسة عشر يوماً بعد الإعلان عن إجراءات التقشّف العام، واعتقاد أنّ ذلك لن يعلَم به أحد؟ بالتأكيد سيعلمون به! سيعلمون به بشكلٍ أكيد! يوجد دوماً شخص ما، في قسم الرواتب أو في مكان آخر، كي ينشر المعلومة. بالضرورة.

أو أنّ هذا ليس غباء، فقط شعور بالتفوّق يجعل المرء يشعر أنه لا يمكن المساس به. أن تكون وسائل الإعلام قد تناولته هل أنزله ذلك إلى الأرض؟

فجأة عشية القداس-العالي السنوي! لا بد أنه يكرههم لأنهم اختاروا ذلك التوقيت...

بعد أن استجوبتها الصحافة، ارتأت الإدارة العامة أنه من الأفضل أن تجيب بمعلومات مقتضَبَة مفادها أنّ العلاوة مستحقّة.

لمحت أليس، أمامها بعدّة صفوف جهة اليمين، المنتدَب النقابي للمقرّ. كان يبدو في مزاجٍ أفضل من باقي الأجَراء. كانت القضية غنيمة بالنسبة له. كانت ستدعمه في موقعه.

أزيح الستار وظهرَ على الخشبة رجلٌ يبتسم، تعرَّفت عليه في الحال. سام بوير، المنشّط الفكاهي المشهور، كان يقوم بتنشيط

برنامج أسبوعي على التلفزيون. كان المكتب مثل كلّ سنة قد لجأ إلى خدمات شخص معروف ليلعب دور رئيس التشريفات.

بدأ سام في الحال بإلقاء نكتة هزلية... لم تُحدِث أيّ مفعول. بقي الحضور أبكمَ. لكنه رغم ذلك لم ييأس وأتْبَعَ ذلك خطبة قصيرة تضمَّنت إشارات إلى الحياة في المكتب. كان ظاهراً أنه مُطّلع بشكلٍ جيد واشتغل على تدخّله كمحترف كبير. لكن نكاته لم تُضحِك أحداً. لم يكُن القلب يطاوع أحداً، بالتأكيد. واصل سام، رابطَ الجأش، وأحسَّت أليس ببعض الإعجاب لذلك. ليس سهلاً أن يقوم أحد بعرض فكاهي أمام ثلاثمائة شخص يرغبون في كلّ شيء إلّا الضحك.

بعد ذلك أدخل سام المدير المالي، الذي صعد على الخشبة وهو يبدو مثل رجل كئيبٍ يُعاني من فقدان مضادّ اكتئاب مساء أحدٍ ممطِر من شهر نوفمبر.

نصف دزينة من الرسوم البيانية العمودية، ثلاثة دائرية، أربعة منحنيات وسلسلة من الأرقام وُضِعَت على عجالة تُحاول أن تثبت أنّ النتائج كانت جيدة جداً وغير ثابتة في الوقت نفسه. لكن العيوب الصارخة لتنسيق الصور الشفافة المعروضة لم يكُن يخدع أحداً: كلّ شيء أعيدت صياغته على عجل في آخر لحظة.

تبعه مدير التسويق، الذي كان مرتاحاً أكثر، مبتسماً، كأنه يريد أن يُظهِر أنه ليس هناك ما يلوم نفسه عليه. سمح لنفسه بالإجابة بنزقٍ على دعابات سام بوير. أحسَّت أليس بأن التوتر في الجوّ بدأ يخف قليلاً.

ثم جاء دور المدير العام.

اجتاز الخشبة في صمت القبور. لم يكن يبتسم، لكن لم تكن له

هيئة مديره المالي المكتئبة. وقفة اشتغلَ عليها بلا شك: حازمة دون أن تكون متغطرسة...

غادرَ سام بوير الخشبة. مبادرة شخصية؟ أمرٌ من العاملين؟

بدأ المدير العام خطابه، متفادياً الدّفق العاطفي الذي كان يُظهره في السنوات الماضية تجاه «أفضل فريق في العالم». اكتفى بالأمور الواقعية، مُنهِياً بسرعة الحديث عن السنة الماضية كي يتحدّث عن المستقبل، المنطقة الوحيدة التي يمكن أن يأمل أن يعبئ فيها القوات بجعلها تحلم بمستقبل واعِد.

كان الاستقبال بارداً بطبيعة الحال، لكن بما أنه كان يتوقّعه، واصلَ عدّ الأفكار دون أن يبدو عليه أقل قدرٍ من التأثر.

في السنوات الماضية، كان يترك، في نهاية خطابه، وقتاً للتحاور على شكل أسئلة-أجوبة مع الأُجَرَاء. هل سيجازف بذلك هذه السنة؟

كان الحضور يقظاً لكلامه، أكثر من المعتاد، كأنّ كلّ واحدٍ كان يترقّب اللحظة التي سيتناول فيها القضية الشائكة المتعلقة بتحديد سقف الرواتب.

لكنهم أحسّوا باقتراب نهاية الخطاب دون أن تُثار تلك المسألة، وفجأة ظهر سام بوير على الخشبة كأنه شيطان خرج من صندوقه.

- هل سيستمرّ الأمر طويلاً على هذا النحو؟ سأل بنبرة أرادَها وقحة.

تظاهَرَ المدير العام بأنه تفاجَأ.

- لقد اكتفينا! قال سام. نريد أن نمرّ إلى البوفيه! إنها جميلة جداً، كل هذه الأحاديث، لكننا نحن جئنا من أجل الأكل! هيا،

تعالوا كلّكم! وليملأ أسرع واحد طبقه!

تظاهر المدير العام بأنه يضحك من كلّ قلبه وهو يطوي أوراقه كي يتبعه ناحية البوفيه.

- ليس بهذه السرعة! صاح صوتٌ قويّ.

استدارت الرؤوس نحو الرجل الذي نهض واقفاً، وسط الجمهور.

المندوب النقابي.

تحت الأضواء، تردَّد المدير العام لحظة، ثم توقف، على حافة الخشبة.

- سؤال، قال المندوب.

اختار المدير العام أن ينصت، رزيناً.

- مع تضخّم يصل إلى 0,3%، تعود الزيادة المعلنة في الأجور 0,1% إلى انخفاض 0,2% في المداخل. كيف تبرِّر هذا الهبوط في القدرة الشرائية في السياق الإيجابي الحالي لشركتنا؟

في القاعة كان الصمت متوتراً، مُكهرباً.

- أنا أتفهّم الإحباط، قال المدير العام وهو يقوم بتقمّص عاطفي كما أوصاه مستشاروه في التواصل بلا شك، لكن من واجبي المحافظة على استمرارية النتائج من أجل تهييئ المستقبل وبالتالي ضمان الشغل للجميع.

السؤال الموالي، الذي كان ينتظره الجميع، جاء كأنه صفعة سوط.

- في هذه الحالة، ألا تعرِّض المليوني يورو، مبلغ علاوتك هذا، المشروع للخطر؟

كانت أعين الخمسة آلاف أجير تحدِّق في المدير. راقبَت أليس

الحادثة، بتجرّد تام، كان انعدام الحافز لديها قد جعلها لامبالية تماماً. كانت تحسّ أنها غير معنيّة.

- إنه قرار مجلس الإدارة، الذي يملك السيادة في هذا المجال.

تنهّدت أليس. كان الجواب عديم الفائدة مثلما هو السؤال. كان الوضع من البلاغة بحيث لم يعُد يستوجب أيّ نقاش، ولا حتى أيّ تعليق.

أخذت أليس تفكِّر في جيريمي، في النصائح التي أسدَتْها إليه، في التغييرات التي أحدَثَتها، في النجاح الذي تحقّق. بالتأكيد، هي لم تكسَب رهانها، لم يصِل عدد الأوفياء الذين يحضرون قداس الأحد بعد المائة. لكن كان هناك العديد من الناس الذين يأتون من أجل الاعتراف. والأهم، هو أنها كانت تحسّ أنّ جيريمي أصبح أكثر انبساطاً في مهمته، الشيء الذي كان هدفها في البداية. كانت قد أحبَّت كثيراً أن تضع طاقتها وقدرتها على الابتكار في خدمة تلك القضية التي كانت غريبة عنها، هي الملحدة، التي كانت مشبَعة منذ الطفولة بثقافة مقاومة للإكليروس. فكَّرت في المسيح، في كلامه الملطّف الذي نجح خلال حياته في التأثير على الجَمْع الذي تبِعَه.

- وماذا لو كان دجالاً؟ كانت قد سألت جيريمي. لا بد أنّ عدد مَن كان يدَّعي أنه المسيح الذي ينتظره اليهود كان كبيراً...

بدلَ أن يشعر بالإهانة، ضحك جيريمي.

- المُخلّص كانت له صورة محارب. كانت فترة عصيبة تعطى فيها القيمة للقوة. وهنا، يأتي المسيح ويقول للناس «أحِبُّوا بَعْضَكُمْ بَعْضاً». هذه الكلمة تبدو لك تافهة اليوم، لكن عندما تضعينها في سياق تلك الفترة، الأمر مختلف تماماً. ثوري. لم يكن يوافِق ما

كان الناس يرغبون في سماعه. بتحدّثه بتلك الطريقة، كان يجازف بأن يقابله الناس بالرفض أكثر منه بالإعجاب.

كانت أليس تقول في نفسها إنه إن لم يكن دجالاً، فلا بد أنه حكيم، معلّم يفكر بشكلٍ كاريزمي. لكن كيف يمكن أن يكون حكيماً ويصيغ مبادئ محيِّرة على شاكلة «مَن ضربك على خدّك الأيمن فأدر له الأيسر»؟

في القاعة، كان التوتر يتزايد، بدأ المندوب النقابي يفقد أعصابه، بينما بدأ الضجيج يتصاعد. كانت هناك موجة من الحقد تجاه الخشبة.

أَدِرْ له خدّك الأيسر... كيف تمكّن المسيح من أن يجذب حوله الجموع وهو يتحدّث بهذا الشكل؟

تصاعدت تنديدات بالمدير العام. بدأ الغضب المحبوس يصحو. كان الوضع يهدّد بالانزلاق...

فجأة أحسَّت أليس بشيء غريب في داخلها. مثل فكرة لم تصدر من رأسها، بل... من أحشائها، من أعماق ذاتها.

شيء في داخلها يدفعها للعمل بحسب هذا المبدأ المسيحي الشاذّ.

وكلّما رأت الوضع يسوء أكثر، والمواجهة بين الطاقات السلبية تتزايد، كلّما أحسّت برغبة ملحَّة في أن تفعل شيئاً.

لم تعُد تستطيع أن تقاوم الأمر.

حينئذٍ رغم الرهبة التي كانت تحسّ بها، مثلما يحدث في كلّ مرة رغبَت فيها بالتحدث علناً، نهضت وأظهرت نفسها بالتلويح بذراعها في الجموع.

– من فضلكم!...

لمحها الحضور في النهاية، وبشكل غريب، صمَتَ الجميع، عندما تناولت الكلمة، متوجِّهة إلى المدير العام.

- لقد علِمْنا من خلال الصحافة أنك تؤكد استحقاقك لهذه العلاوة. وبما أنك تقول ذلك، فالأمر صحيح بلا شك.

رأت أليس، مئات النظرات الموبِّخة تصوّب نحوها.

- بما أنّ العلاوة مستحقّة، فمن الصحيح أن نخفض مداخلنا كي نمنحها لك.

سرى في القاعة لغطٌ من الاحتجاج والتقزّز. أحسَّت أليس بثقل اللوم وعدم الفهم والخيانة. التقت نظرة المندوب النقابي التي كانت مشبَعة بالكراهية.

على الخشبة، وقف المدير العام جامداً، يتفرّج.

تابعت في صمت مُقلِق.

- أطلب إذاً رسمياً تخفيض مرتّبي كي أمكِّنك من الرفع من مرتَّبِك.

كان الذهول عاماً.

على الخشبة، ابتسم المدير العام بانزعاج وهزَّ كتفيه.

غادرَت أليس مكانها وهبطت الممر الرئيس نحو الخشبة. من كلتا الجهتين، كانت الوجوه تعبِّر عن العداء تجاهها. قرف. مَوجة من الهمس رافَقَت نزولها.

- أنتَ تستحقه! صاحت في مديرها وهي تجدُ في داخلها نبرة صادقة.

قام بخطوة كي ينصرف.

- انتظر!

بدا متردداً لحظة. استغلّت ذلك.

- لا تهرب!

بهذه الطريقة لم يعُد بإمكانه أن ينصرف دون أن يبدو جباناً.

وقفَ جامداً وواجهها بينما وصلت أسفل المدرّجات. صعدت على الخشبة.

قامت ببضع خطوات نحوه وأعمَتها المصابيح، فتحت حقيبتها اليدوية وحرَّكت محتوياتها عبثاً. كان بول متعوِّداً على السخرية منها عندما يراها تبحث في حقيبتها عن شيء دون أن تجده.

هناك، في صمت مرعب، خمسة آلاف شخص ينظرون إليها. أحسَّت بحُكمهم واحتقارهم...

تلك المصابيح اللعينة كانت تعميها دون أن تضيء داخل حقيبتها.

انتهى بها الأمر إلى إخراج حافظة نقودها، فتحتها على عجالة. وجدت فيها ورقة من فئة خمسين يورو قدَّمتها للمدير العام.

- اقبل مساهمتي لمكافأة جهودك.

مذهولاً بحق، تراجَع، حائراً، كأنما شلّه الموقف.

استدارت أليس نحو القاعة وصاحت:

- أدعو الجميع لأن يحذوا حذوي! تقدَّموا!

كان هناك فراغ، صمت، كأن كلّ واحدٍ كان محتاجاً لوقت كي يتخلص من الذهول الذي أصابه ويحدِّد وجهة نظره، ثم أحسَّت بانقلاب في الجو. هبَّت الريح.

بعد بضع لحظات، هجمَ الأجراء على الخشبة ملوِّحين بأوراق مالية أو شيكات تحت أنف المدير العام الذي احمرّ من الخجل. اتَّسعت الحركة بسرعة وأصبحت الخشبة سوداء من الناس. حركة الجموع حاصرت المدير العام الذي بقي مصعوقاً بسبب الصياح،

يقطر عرقاً تحت حرارة الأجساد والأضواء، غير قادرٍ على الإفلات من ذلك الزخم الحاد من الكرم.

احتاج مسؤولو الأمن إلى أكثر من ساعة كي يُخرِجوا المدير ويُفرغوا القاعة.

في اليوم الموالي، صدرَ بلاغ من الإدارة يعلن عن تخلّي المدير العام عن علاوته ومنح 5% زيادة عامة في الأجور.

12

في المكتب، أصبحت أليس بطلة.

لم تستطِع أن تحصي رسائل التعاطف والإطراء والدعوات والشكر التي تفِد عليها، عن طريق البريد الإلكتروني أو الرسائل النصية، أو تتلقاها شفاهياً في ركن من أركان الممر.

كان البعض يحاول تفسير فعلها، ربما لينفصل عنه ويستعيد حياده المفترَض. كانوا يعلّقون عليه بإحالته إلى فلاسفة لم تقرأهم، أو تيارات في علم النفس، أو مدارس فكرية بحسب الموضة.

- أمس، كان تدخلك جدّ طاوي! قال لها زميل من قسم الاتصالات في قطاع الألبسة الجاهزة.

- أجل، أكَّد آخر من قطاع العطور. جيَد أن تكوني قد جسَّدتِ روح الطاوية.

عندما حلّ المساء، فكَّرت أليس في تلك التلميحات الغريبة. لا أحد، قطعاً لا أحد، رأى في عملها استلهاماً مسيحياً.

طبعاً، كان من الشائع ذِكر الطاوية بدل المسيحية. كان المسيح في خبر كان. وبالنسبة إلى محيط أليس المهني، كانت الصورة شيئاً أساسياً. لكن على أي حال تلك الإحالة الخاطئة أثارت فضولها، زرعت فيها الرغبة كي تبحث في الأمر.

مرَّت على إحدى المكتبات حيث نصحوها بأن تبدأ بقراءة **تاو تي تشينغ** الكتاب المؤسِّس للطاوية الذي ألّفه لاو تسو. دخلت إلى بيتها، حرَّرت المربية من مهمتها، وتناولت عشاء خفيفاً مع تيو قبل أن تضعه في السرير. سيعود بول في وقت متأخر كالعادة.

استلقَت على الأريكة، بعد أن وضعت فنجان شاي أخضر معطَّر بالحمضيات على المائدة القصيرة، وأمسكت في يدها الكتاب الغامض.

مقدِّمة للناشر تقدِّم لاو تسو: أمين المكتبة في بلاط سلالة تشاو، عاش في القرن السادس قبل ميلاد المسيح، قرَّر لاو أن يهجر الإمبراطورية كي لا يشهد انحطاطها بسلبية، لكن أحد حراس الحدود أوقفه عند الحائط قبل أن يمرّ إلى الشمال وأقنَعه بأن يكتب من أجله خلاصة حكمته. وهكذا خرج **تاو تي تشينغ** إلى النور.

بدأت أليس قراءة الكتاب. كان عبارة عن مجموعة من المبادئ الفلسفية عددها واحد وثمانون، يحتلّ كل واحدٍ منها صفحة بكاملها. قدرت أنها ستنهيه بسرعة. لكنها بدءاً من السطور الأولى، أحسَّت أنه كان عليها أن تحضر ويسكي كوكا، صحيح أنه غير مناسب مثل الشاي الأخضر، لكنه أكثر فعالية من أجل الاسترخاء وتوقّي ألم الرأس.

التاو الذي يمكن تعريفه، ليس التاو الأبدي،
الاسم الذي يمكن التلفّظ به، ليس الاسم الأبدي.
لا مسمّى، هو سابق على السماء والأرض. مسمى هو أصل الآلاف المؤلفة.
التجرد من الرغبات يمثل كنهه، وبرغبة أبدية يدلّ على حدّ.

هاتان الحالتان تتعايشان، لا تفترقان، وتختلفان بالاسم فقط. باعتبارهما معاً: سرّ! سرّ الأسرار!

بوابة كلّ الأسرار.

طيب.

أوكي.

ماذا لو شغلت التلفزيون؟

سلسلة أميركية، أو برنامج من تلفزيون الواقع كي تغرق في اللامبالاة؟

هيا. قليل من الجهد.

شربت جرعة من الشاي.

صفحة ثانية.

قرأت الجمل الأولى، واستعدَّت لتتوقف قبل أن يغلبها النوم، عندما أثارت عبارة انتباهها.

الرجل القديس يُنتِج دون أن يتملّك، يشتغل دون أن ينتظر عوضاً، يُنجز أعمالاً جليلة دون أن يتعلّق بها، ولأنه لا يتعلق بها، فهي لا تَفنى.

سلاها ذلك التقارب مع حالتها. هي أيضاً كانت قد ساعدَت جيريمي دون أن تنتظر شيئاً بالمقابل، دون أن تسعى إلى تملّك النتائج. هذا الكتاب يصفُها كقديسة! كتاب جيد، حتماً!

تابعت وهي تقرأ بسرعة بمجرّد أن تبدو لها المبادئ مجرَّدة أو مبهمة، أحياناً عويصة. في سيل من الكلمات الغامضة، اكتشفَت عدة أفكار مهمة حثَّتها على مواصلة القراءة.

لكن خلال لحظة، اعتراها شعورٌ غير منتظر. شعورٌ سبق أن

جرَّبته. ذكرتها الكلمات الغامضة التي تقرؤها بكلمات أخرى بالغموض نفسه، كلمات قرأتها وأعادت قراءتها دون أن تتمكَّن من فهمها حقاً، كلمات وجدتها أحياناً غريبة جداً حتى أنها سخِرَت منها.

كلمات المسيح.

كيف يكون ذلك ممكناً؟ ستة قرون تفصل الرجلين، ستة قرون وآلاف الكيلومترات، في فترات لم يكُن السفر فيها سارياً، وهذا قبل اختراع المطبعة...

مشوّشة بسبب اكتشافها، سارعت للبحث عن التوراة-القانون المدني، واستأنفت قراءة **تاو تي تشينغ** من البداية متتبِّعة أوجُه التشابه.

كانت كلّما اكتشفتها سجّلتها، وشيئاً فشيئاً، تحوّلت مفاجأتها إلى حماسٍ بينما كانت تقيس شساعة اكتشافها.

أحياناً، كانت كلمات المسيح تبدو كأنها صدى لكلمات لاو تسو، كأنه يردّ عليه:

لاو تسو: **قلبي هو قلب رجل بسيط الروح...**

المسيح: **طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ.**

أحياناً أخرى، كانت أقوالهما تتشابه تماماً:

لاو تسو: **عندما يمنح الرجل القديس كل ما يملك، يكون لديه أكثر.**

المسيح: تَصَدَّقُوا، وَسَيُعَادَ إِلَيْكُمْ مُضَاعَفاً.

حتى الأقوال غير المفهومة، غير المقبولة، كانت متقاربة:

لاو تسو: تحمّل قذارة المملكة [. . .]، يعني أنك ملك العالم.

المسيح: طُوبَى لَكُمْ إِذَا عَيَّرُوكُمْ.

أحياناً كانت المفردات مختلفة، لكن الأفكار نفسها تماماً:

لاو تسو: الرجل القديس لا رغبة له سوى أن يكون بدون رغبة.

المسيح: اِسْهَرُوا وَصَلُّوا لِئَلاَّ تَدْخُلُوا فِي تَجْرِبَةٍ.

نجد الدعوة نفسها للتواضع:

لاو تسو: مَن أراد أن يشتهر يظلّ مغموراً. مَن كان مكتفياً بذاته لم ينَل الاحترام.

المسيح: إنْ كُنْتُ أُمَجِّدُ نَفْسِي فَلَيْسَ مَجدِي شَيْئاً.

لاو تسو: بوقوفه في آخر المكان، يوجد الرجل القديس في المقدمة. [. . .] مَن كان قوياً وعظيماً هو في وضع أقل.

المسيح: مَا ارْتَفَعَ المَرْءُ إلّا وَسَقَطْ.

هما الاثنان كانا يتحسّران على صعوبة تطبيق أفكارهما:

لاو تسو: تعاليمي سهلة الفهم، سهلة الاتباع، لكن العالم لا يستطيع أن يفهمها ولا أن يتبعها.

المسيح: لِمَاذَا تَدْعُونَنِي «يَا رَبّ، يَا رَبّ!» وَأَنْتُمْ لَا تَفْعَلُونَ مَا أَقُولُهُ لَكُمْ؟

هما الاثنان كانا يحذّران من الهوس المادي...

لاو تسو: لا مصيبة أسوء من الرغبة في التملك.

المسيح: مَنْ يَمْلِكُونَ الثَّرَوَاتِ لَا يَرِثُونَ مَلَكُوتَ اللّه!

... أحياناً بمجازات قريبة، كلمات متقاربة جداً:

لاو تسو: قاعة مليئة بالذهب والجواهر لا يمكن حراستها. أن يزدهي المرء لأنه مشبَع بالثروات والتشريف، يجذب المصيبة. عندما ينجز العمل النافع وتظهر الشهرة، فلينمحي الشخص: إنه طريق الله.

المسيح: لَا تَكْنِزُوا لَكُمْ كُنُوزاً عَلَى ٱلْأَرْضِ حَيْثُ يُفْسِدُ السُّوسُ وَالصَّدَأُ وَحَيْثُ يَنْقُبُ السَّارِقُونَ وَيَسْرِقُونَ. بَلْ اكْنُزُوا لَكُمْ كُنُوزاً فِي السَّمَاءِ حَيْثُ لَا يُفْسِدُ سُوسٌ وَلَا صَدَأٌ وَحَيْثُ لَا يَنْقُبُ سَارِقُونَ وَلَا يَسْرِقُونَ. لِأَنَّهُ حَيْثُ يَكُونُ كَنْزُكَ هُنَاكَ يَكُونُ قَلْبُكَ أَيْضاً.

الدعوة نفسها إلى امتلاك قلب طفل:

لاو تسو: مَن امتلك في داخله عظمة الفضيلة يشبه المولود الجديد الذي لا تلدغه الحيوانات السامة، ولا تمزّقه الوحوش، ولا تخطفه الطيور الكاسرة.

المسيح: فَمَنْ وَضَعَ نَفْسَهُ مِثْلَ هذَا الْوَلَدِ فَهُوَ الأَعْظَمُ فِي مَلَكُوتِ السموات.

يبدو أنهما يتشاركان نظرة حول الموت:

لاو تسو: مَن مات دون أن يتوقف عن أن يوجد حصل على الخلود.

المسيح: إن لم تقع حَبَّة الحِنطة فِي الأَرضِ وتَمُت فهي تَبْقَى وَحْدها. وَلكِنْ إِنْ ماتتْ تَأْتِي بِثمَر كثِيرٍ. [...] مَنْ يُحِبُّ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا، وَمَنْ يُبْغِضُ نفسه فِي هذا الْعَالم يَحفَظها إِلى حياة أَبدِيَّة.

ذلك المساء، خلدت أليس إلى النوم وهي جدّ محتارة.

إمّا أن المسيح قد نقل لاو تسو، وإمّا أنّ أقوالهما غير الواضحة بالنسبة لها تشتمل على حقيقة أساسية جداً بحيث أضحت كونية...

وفي هذه الحالة، هي كانت مصمِّمة على معرفتها.

13

- سيدي الكاهن!

رنّ صوت أليس تحت الأقواس العالية في الصحن.

أدارَ الرجل ذو الشعر الأبيض نحوها وجهاً نحتته التجاعيد. أضاء الضوء الذي تسرَّب عبر الزجاج الملوّن العينين العسليتين الغائرتين في محجريهما. تفحّصها لحظة، مع قليل من العطف.

- ابنتي...

- أودّ أن أطرح عليك بعض الأسئلة... بشأن التوراة.

نظر إليها وهو يبتسم.

- لا أعتقد أني أعرفك، ابنتي. هل أنت جديدة في الأبرشية؟

- لا أنا... أنا فقط أمرّ من باريس... في النهاية... أريد أن أقول، في الدائرة و... عندي أسئلة تحضرني... هل لديك لحظة؟

رأته يبتسم لتفسيراتها الخرقاء وفهمَت أنه لم يكن رجلاً يطلق أحكاماً مسبقة.

- أنا أسمعك.

تذكّرت التعبيرات التي كانت قد حضّرتها. هذه المرة، هي لا

تريد أن تخطئ. تريد أجوبة واضحة. البارحة، كان كاهن الكنيسة القريبة من بيتها، رجل أصلع سمين ومرح، قد أعطاها أجوبة جدّ فضفاضة إلى درجة أنها تساءلت إن لم يكن يسخَر منها.

- ها هي، أسئلتي تخصّ أقوال المسيح، أقوالاً جدّ معروفة لكني أدركتُ أني لا أفهم معناها.

- تفضلي.

هذا يخصّ الإثباتات التي ينفيها، كما تعرف: «طوبى للمساكين بالروح، طوبى للحزانى... إلخ».

- التطويبات.

- حسناً. بعد تفكير، يهرب مني المعنى قليلاً. مثلاً الأولى: «طوبى للمساكين بالروح» ماذا كان يقصد **بالضبط**؟

نطقت «بالضبط» بعناية، مخفِضَة الصوت.

- أرى أين تريدين أن تصلي... هذه الغبطة هي التي كانت لفترة طويلة محلاً للسخرية لأنّ ترجمتها ظلّت لفترة طويلة مشوّهة. قرأت مرات عديدة «طوبى لمساكين الروح»، أو «بسطاء الروح»، ومن هنا بلا شك جاء التعبير «المغفل السعيد». الترجمة الصحيحة هي «مساكين بالروح»، وهذا يعني ببساطة الذين هم مساكين في روحهم، مساكين في قلبهم.

- حسناً، لكن كيف يمكن أن يكون المرء سعيداً لمجرد أنه مسكين بالروح؟

- كلّ تطويبة تقدّم فعلاً وضعية لا تعتبر مباركة في العالم الدنيوي، مثل المسكنة أو الجوع أو الإذلال، وبالنسبة إلى كلّ واحدة منها، يؤكِّد المسيح أنها ستجعل المرء سعيداً في ملكوت السماء.

ملكوت السماء، ملكوت الله، صِيَغ كانت تزعج أليس، كيف يمكن أن يعتقد المرء في القرن الواحد والعشرين بوجود إله في مكان ما من السماء؟ منذ أن أصبحت الطائرات والصواريخ تجوبها، وعلماء الفلك يراقبونها، لو كان هناك إله في مكان ما لكانوا قد وجدوه! لكن طيب، فلنتجاوَز الأمر. فلنحفَظ فقط أنّ المسيح يَعِدُ بالسعادة الأشخاص الذين يعيشون الوضعيات التي ذُكِرَت.

- وما الذي يسمح له بتأكيد هذا الشيء؟

ابتسمَ، وتضاعفت التجاعيد حول عينيه العسليتين.

- طُرق الله تكون غامضة أحياناً، بنيتي.

- ربما، لكني أريد أن أفهم...

- لا يمكن أن نفهم كلّ شيء، لأن الله يتجاوزنا. نحن لا يمكن أن نفهم كلّ أفكاره. كلمات ابنه موجودة لتقودنا. يعود لنا أن نتبَعَها مع الرجاء والإيمان.

فهمَت أليس بسرعة أنها لن تحصل على التوضيحات التي تبحَث عنها، ليس أفضل من البارحة. خسارة أنها لا تستطيع الوصول إلى جيريمي. كان في خلوة ستستمر خمسة عشر يوماً في دير رينس، هكذا أخبرتها والدته عندما ردَّت على الهاتف. على أيّ حال كانت ستشعر ببعض الحرج لو طلبَت منه تفسيرات بشأنِ التوراة في هذه الفترة، بعد أن انتهَت من نصحه. عمل الأشياء بالمقلوب لم يكن أبداً شيئاً مستحسناً...

تحقيقاتها من جهة الطاوية لم تكن أكثر نجاحاً. لم يكُن الرهبان يجوبون شوارع باريس، والشخص الذي التقت به بعد عناء كبير لم يكن يُتقن الفرنسية، بحيث اقتصر حوارهما على بعض الكلام المؤدّب والمبتسم لكن بسطحية محبطة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

لن تقود أبحاثها لشيء، بدأت تقتنع بذلك. إمّا أنّ رجال الدين يحتفظون بسرّ معنى المبادئ، أو أنهم هم أنفسهم لا يفهمونها. ومع ذلك، يوجد بالضرورة شيء لاكتشافه في تلك الكتابات المسيحية والطاوية. كانت تحسّ بذلك في أعماقها، ونادراً ما خدعتها غريزتها.

كانت تكرَه أن تكون محصورة في وضعية ما، من دون حلّ ظاهر. لا شيء يمكن أن يزعجها أكثر.

قبل أن تعود إلى بيتها، قصدت السوق الممتاز لتتسوق.

وإذا كان الحلّ هو أن تحاول أن تفهم من خلال تجربتها الخاصة؟ أليس ذلك ما فعلته عندما « قدّمت الخد الآخر» للمدير العام؟ الشيء الذي تمّت تجربته في الحياة أكثر فائدة ممّا يظلّ على مستوى التفكير الذهني، لا؟

دخلت إلى السوق الممتاز. لا يجب أن تنسى مسحوق الغسيل، لم يعُد يوجد منه شيء. أحسَّت ببعض الانزعاج لتذكّرها السرقات المتكرِّرة من طرف عاملة المنزل.

عند مدخل المتجر، خلف خطّ الصندوق، كانت الإغاثة الكاثوليكية قد وضعت منصّة تحتوي على أحواض كبيرة يمكن أن يضعَ فيها الزبائن بعض المقتنيات التي يتمّ توزيعها على الفقراء.

العديد من الناس في الممرات. ساعة الذروة في آخر النهار.

طيب، فليكُن من أجل التجربة. أجل، لكن من أين ستبدأ؟

من الأكثر صعوبة، بطبيعة الحال. البدء من الأصعب دوماً للتحرّر منه...

طوبى لكم إذا عيَّروكم.

هل يجب أن يكون المرء ماسوشياً كي يضع نفسه في وضعية إذلال من أجل أن يجد السعادة؟...

في تلك اللحظة، مرت بعربتها أمام رف الواقي الذكري، وتوقّفت فجأة وهي تتذكر أنها أحست بالخجل في آخر مرة وضعت فيها علبة على شريط صندوق الأداء.

كانت الصدفة كبيرة. تزامن يونغي حقيقي. يجب أن تستغل هذه الفرصة، يجب ذلك. كانت تعرف ذلك جيداً. أن تملأ عربتها بعلب الواقي، وأن ترصّها بعناية على الشريط أمام القابضة وأن تتصرف على مهلها، وبعد أن تدفع ثمنها، تذهب لتُعيدها وتسترجع ثمنها في استقبالات المتجر... عمليّتي إذلال على التوالي.

بمجرد التفكير في ذلك، أحسّت بيديها مبللتين.

نظرت حولها، أخذت نفساً عميقاً، أخرجت الهواء من رئتيها، تنفست من جديد، ثم أنجزت المهمة.

بعد دقيقة، كانت في طابور الانتظار أمام الصندوق، قلبها يخفق بشدّة. كانت تشعر بالخوف كأنها ستتحدّث أمام جمعٍ كبير من الناس يضمّ حوالي ألفي شخص. حولها، كان هناك الكثير من الناس. كانت القابضات يشتغلن بجدّ، كان الصفير يصدُر من كلّ مكان، البطاقات الزرقاء تطقطق، والأوراق المالية تتراقص.

أمام أليس، وقفَت جدة، وأمام الجدة رجلٌ يضع علب كوكا على الشريط. استدارت. مباشرة خلفها، رجل في حوالي الأربعين، وسيم أسمر عيناه زرقاوان. الرحمة.

جاء دور الجدة، مباشرة أمامها، وضعت علبتي زبادي وعلبة بسكويت.

عضّت أليس على شفتيها، وهي تحسّ بجفاف في حلقها.

أخذت الصرافة الزبادي، تحرّك الشريط، تاركاً مساحة فارغة.

أحست أليس بقلبها يضرب بعنف.

الرغبة في الهرب بأقصى سرعة.

التحمل إلى النهاية. الخضوع للتجربة.

الآن.

أخذت نفسها وتناولت العلبة الأولى ووضعتها على الشريط. ثم الثانية، الثالثة. ثم تناولت العلب أربعة أربعة.

بحثَت الجدة عن النقود.

تراكمت علب الواقي في كومة، جبل حقيقي. وضعت أليس آخر علبة واختلسَت نظرة خلفها. ابتسم لها الأسمر الوسيم.

النحس.

كانت القابضة قد تخطَّت الخمسين من العمر، شعرٌ قصير خلف الأذنين. أمسكت أول علبة دون أن تُبدي أقل ردة فعل أمام نوعية السلعة. تنفّست أليس.

- الشيء نفسه؟ سألتها القابضة وهي تشير إلى الكومة.

تلعثمت أليس.

- أجل... أجل، سارعت إلى الردّ دون تفكير.

مرَّرت القابضة الآلة على الثمن ثم قامت بعدّ العلب الأخرى. من حسن الحظ أنها كانت تمسكها بكلّ حياد كما لو كان الأمر يتعلق بعلبة شاي بالأعشاب. فجأة صاحت:

- لكنها ليست متشابهة! انظري: يوجد القياس العادي والواسع جداً. انظري يوجد أيضاً قياس واسع جداً جداً.

كادت أليس تختنق.

- أوه... أجل، اعترفت وهي تُرغم نفسها على الضحك كي تبدو مسترخية.

- لقد أخطأت. تريدين استبدالها؟

- لا، لا . . . سارعت إلى القول قبل أن تندم عندما استوعبت ماذا يعني ذلك.

كنست العاملة الشريط بذراعها كي تعيد جميع العلب إلى الخلف ثم أخذت تمرِّرها عبر الآلة واحدة تلو الأخرى. سقط العديد منها على الأرض وانحنت أليس كي تجمعها. كذلك فعل الأسمر الوسيم. . . قدَّم لها واحدة وهو يبتسم. أحسَّت أليس بوجهها يحمر.

كان صفير آلة العاملة يُسمع كأنه إبر خجلٍ بينما مرَّت العلب واحدة تلو الأخرى أمام عينيها.

دفعت الحساب على عجالة وأعادت كلّ شيء إلى العربة.

- أمسية سعيدة، قال الأسمر وهو يثبت عليها عينين متألقتين.

هربت.

لا يمكن أن تعود إلى الاستقبال كي تعيد المقتنيات وتستعيد نقودها. لا يهم.

أفرَغت محتوى العلبة بسرعة في أحد أحواض الإغاثة الكاثوليكية.

- شكراً سيدتي على كرمك، قالت لها امرأة في الستين وهي تقترب، جدّ أنيقة.

- قامت أليس بحركة من رأسها، تاركة البرجوازية تضع نظارتها، وعلبة واقٍ ذكري في يدها.

14

فشل ذريع.

لا شيء تعلّمته من تلك التجربة الفظيعة.

أحسَّت بالإهانة، أجل. هي سعيدة، لا.

ولا يلوح أمامها أدنى طريق.

عندما وصلت إلى بيتها، أخذت أليس تذرع الصالون جيئة وذهاباً في انتظار أن يغلي الماء كي تُحضّر الشاي. كانت تشعر بالغضب لكنها ترفض أن تعترف بالفشل. ترفض أن تعترف أنها لم تستطع أن تستنتج شيئاً من تلك المبادئ الغامضة. لم يستطِع أحد أن يفسِّرها لها. حسناً. لم تنجح وهي تجربها. إثباتاً لذلك.

حسناً... ستحاول تجربة جديدة.

لا يجب أن تتخلى عن أيّ شيء بعد الفشل الأول. أبداً.

كانت قد أخذت على نفسها عهداً بذلك بعد أن فشلت في الحصول على شهادة البكالوريا في الثامنة عشرة. أعادت اجتياز الامتحان في السنة الموالية، ونجحت في مباراة العلوم السياسية بعد ذلك بسنتين. لا شيء يضيع أبداً.

ثم بالتأكيد، لقد شعرت بالإهانة في السوق الممتاز والأمر ليس

مسلياً لأيّ أحد. لكن في النهاية، هي لا تزال على قيد الحياة! وهذا يمثّل درساً تعلمته...

السادسة وربع بعد الزوال. أمامها أكثر من ساعة قبل أن تصل المربية. خطرت بذهنها فكرة جديدة، وأرادت أن تختبرها الآن. لا يجب أن تنهي اليوم بفشل.

أسرعت إلى غرفتها، أزالت حذاءها ذي الكعب العالي، خلعت بذلتها وقميصها الحريري. أفرغت دولابها ووجدت سروال الجينز العريض جداً والذي قطّعته، قبل عدة سنوات، كي تصنَع منه سروالاً قصيراً يصلح لتجتاز به نهر الأرديش في قارب. لبسته ونظرت إلى نفسها في المرآة. كان بلا شكل، وكانت أردافها مشوّهة. من دون ثنية، كانت الحواشي ممزّقة على عدة سنتمترات، بالضبط فوق الركبة.

انتعلت حذاءها الرياضي القديم الذي احتفظت به من أجل ممارسة العدو في برك الماء خلال أمسيات الشتاء. وفي الأخير وضعت قميصاً من دون أكمام أهدته لها صديقاتها وهي تودّع العزوبية: أبيض وفي وسطه حرف سين كبير برتقالي وأصفر بالإضافة إلى كلمة سوبرمان مكتوبة بحروف غليظة.

ذهبت إلى الحمام وأزالت تبرّجها، عقصت شعرها، أزالت ساعتها وحليها ثم ألقت على نفسها نظرة في المرآة.

لم تعُد تشبه شيئاً.

تشجّعي.

أفرَغت محتويات حقيبة يدها في كيس بيكارد مجمّد وأسرعت إلى مصعد العمارة. في ردهة الطابق الأرضي، التقت وجهاً لوجه مع

الجارة التي تسكن تحتها، ألقت نحوها الأخيرة نظرة متعاطفة دون أن تكلّف نفسها عناء إلقاء التحية.

تحملّت أليس الإهانة، ليس أسوء من الكدر الكبير الذي تشعر به عادة عندما تحسّ أنّ مكانتها تتقلّص بحضور هذه المرأة، أو أي امرأة أخرى أكثر رقيّاً منها.

سير على الأقدام لفترة قصيرة بالإضافة إلى خمس محطات مترو ووجدت أليس نفسها أمام وجهتها النهائية.

هرمس.

كانت واجهات المتجر الشهير في ضاحية سانت أونوريه مليئة بالمجموعة الجديدة ربيع-صيف، عُرضت بطريقة ذكية، كانت الأثمنة المعروضة تبدو مخصصة لزبائن من اليابان أو الشرق الأوسط.

جاءت أوروبية لتكذبها في الحال، وهي تقترب من الباب الخشبي الجميل، سارَعَ أحد الحراس ليفتح لها وحياها باحترام.

لأول مرة، تتردّد أليس. هل تعرّض نفسها لعار مواجهة نظرة وربما تعليقات البائعات؟ وإذا تمّ إخراجها؟ وإذا لم يسمحوا لها بالدخول؟

ماذا تأمَل أن تحصل عليه بالضبط؟

لأنك تجهلينه، أنت تودين القيام به؟

وإذا فعلت ذلك من أجل لا شيء؟ وإذا لم تتعلّم من ذلك أيّ شيء، كما حدث في السوق الممتاز؟ لماذا لم تتعلم شيئاً؟

لأنها كانت تكافح ضدّ خجلها، قالت في نفسها. كانت قد فعلت كلّ شيء لتتخلّص من خجلها، بالنظر إلى مكان آخر، بإرغام نفسها على التفكير في شيء آخر.. في نهاية المطاف، ربما لم تعِش التجربة حقاً، ربما لم تعِشْ حقاً إهانتها؟

تباً، أصبحت ماسوشية، أيها الفتاة المسكينة.

ألا يدعو إسخيلوس في مسرحيته التراجيدية **أجاممنون** إلى المعاناة من أجل الفهم؟

يجب أن تعيش الإذلال، أن تستسلم للإحساس به، أن تنصت وتفهم إحساسها.

هيا.

تنفّست مرة بعمق، ثم اقتربت من البوابة المهيبة.

لم يفتح لها الحارس الباب، اضطرّت أن تدفعه بنفسها ودخلت. تفحّصها لكنه لم يقُل شيئاً.

كانت الأضواء الخافتة والهواء المعطّر يخلقان جواً رائعاً. كانت أول مرّة تدخل إلى ذلك المكان الفاخر الباريسي، وكانت تفضّل لو عرفته في ظروف أخرى بدل تلك اللحظة وبطنها معقود، وصدرها ضيق.

استرخي، إنها مجرد تجربة...

نظرت حولها ورأت عدّة بائعات يرمينها بنظرات مزدرية ومترفعة.

ها هو، أشعر بالخجل...

كانت بالفعل تحس بمزيج من الخجل والغضب، غضب من البائعات، من الحارس، من المسيح ومبادئه الخادعة.

كنت أود فعلاً أن أراه، هو، عند هرمس بثوبه ونعليه!

كان هناك بعض الزبائن هنا وهناك، ليست جموعاً مكدّسة لكن بعض الإقبال على أي حال. استدارت ورأت امرأة شابة تدخل. تقدَّمت نحوها في الحال إحدى البائعات، وهي تبتسم، كي تستقبلها.

ليس هي.

كان قد تمّ تجاهلها تماماً.

بطبيعة الحال، كان لباسها يشي بنقص في الإمكانات المادية لشراء البضائع المعروضة. وبشكلٍ غريب وجدت أليس ذلك مخجِلاً في حدّ ذاته، كان لديها إحساس أنها تحمل حول عنقها لافتة تحدد: «ليست غنية كفاية كي تستطيع أن تشتري»، وكان ذلك يعطيها الرغبة في إظهار خطأ الجميع، وأن تؤكِّد بصوت مرتفع وقوي «لكن، بلى، يمكنني أن أفعل! إنها فقط لعبة، تجربة! أمتلك الإمكانات لأكون زبونة مثل الأخريات».

لكن لماذا؟ لماذا تشعر بالرغبة في إخبارهم ذلك؟

أريدهم أن يشعروا أن لي قيمة.

مع أنها كانت تعرف جيداً أنّ قيمتها لا علاقة لها بدخلها. نحن لسنا ما نتقاضاه، هذا أكيد! لكن يجب أن تعتقد ذلك على كلّ حال، في أعماقها... ولامت نفسها على ذلك.

في جميع الأحوال، أية أهمية لأن يحسّ هؤلاء الأغراب بقيمتي؟

صحيح هذا، هي لم تكُن تعرفهم، ولن تراهم أبداً. أحسَّت بالذنب مرة أخرى وهي تُدرك أنّ إحساسها بالوجود مرتبط بنظرة الآخرين، وتقدير الآخرين. ما جدوى أن تشارك في دورات في التنمية الذاتية منذ سنوات وتكون في هذا الوضع؟

أنا لست ثيابي! أنا لست أموالي! أنا لست ما يراه الآخرون مني!

أحسّت بالرغبة في أن تصرخ في داخلها بهذه الحقائق كي تقنع بها نفسها نهائياً وتتحرّر من هذه الأوهام الغبية التي وضعت في

رأسها رغماً عنها، أوهام بقيت رغم اشتغالها على نفسها، أوهاماً مع ذلك لا تتوافق مع قيمها.

وفجأة أدركت التعبيرات السلبية التي استعملتها: **أنا لست ثيابي، أنا لست أموالي، إلخ.** رفض هذه الأوهام لا يُخبر عمّن تكون هي: لا يمكن أن نعرف أنفسنا بما لسنا عليه... أحسَّت حينئذٍ بنوع من الدوار، كيف يمكن أن نرفض أن نكون ما لسناه، في حين نحن لا نعرف مَن نكون؟

حولها، كانت الزبونات الغنيات يلتقين بها دون أن ينظرن إليها، والبائعات واصلن تجاهلها بشكلٍ رائع. بالنسبة إلى هذا العالم الصغير، هي ليست موجودة، بالفعل. هي لم تكُن شيئاً آخر سوى ما لم تكُنه في نظرهن.

مزعزعة في أفكار بقدر ما كانت مجروحة في كرامتها، واصلت التقدّم في المتجر، تمشي على السجاد الغليظ وسط الأثواب الفاخرة، والجلود الثمينة تحت الأضواء الخافتة، وكلّما تقدّمت، كلما انفصلت عن المحيط حولها، والأشخاص الذين يسكنونه، وحتى من نفسها. تحوّل الإذلال ببطء إلى نوع من الفراغ الداخلي، لا وجود مهدئ.

تنقّلت على ذلك النحو عبر غرف، وطوابق المتجر، كأنها تطير في الهواء، ومن حالة اللاوجود تلك أحسّت بإحساس بالحرية يظهر بالتدريج، حرية عذبة وخفيفة، إحساس منتشر ينبع من أعماق أحشائها، ويحرّرها كلياً من ضغط المظهر المعتاد. تركت نفسها تتذوق ذلك الإحساس الغريب والجديد، وتتذوقه، وفجأة أحسّت أنها تعيش، تعيش بحقّ.

لم تعُد ذلك السحاب الذي يحوم الذي كانت قبل قليل، لأنها

الآن أصبحت تحسّ بحضورها أكثر فأكثر في جسدها، بوعي أكثر فأكثر. واعية بأنها موجودة، واعية بأنها نفسها، أبعد من حدود جسدها. ذلك الوعي صاحَبَه فرح رائع ظهرَ في داخلها، فرح أخذ يتّسع، ويشع الآن في جميع جسدها وروحها وحولها مثل هالة غير مرئية لكن حقيقية، فرح يفوق كلّ لحظات السعادة التي عرفتها.

كانت هناك، قبيحة، لا يقدّرها أحد، ملابسها رديئة، يتجاهلها الجميع، وكانت تحسّ بوجودها أكثر من أيّ وقت مضى.

15

كلوني لا تشبه في شيء القرى النمطية التي تمّ تجديدها في أدقّ التفاصيل حتى أنّ المرء يتساءل للوهلة الأولى إنْ لم يكن في ديزني لاند. كلوني، على العكس من ذلك، مدينة قرن أوسطية حقيقية جمالها لا يصعق الأبصار للوهلة الأولى. الأزقة التي تقود إلى المركز يمكن أن تعطي الزائر المستعجل الانطباع بأنها مدينة متهالكة وحزينة وتافهة عدا المآثر التي تجذب السياح. جمال كلوني الحقيقي يظهر للذين يمنحون نفسهم الوقت للإحساس بالأماكن، والنظر أبعد من طلاء الجير القديم المقشّر، والذين يكتشفون حينئذٍ كثرة الأعمدة والتيجان التي تذوب في الواجهات مثل الحرابي على أغصان الأشجار. توجد أماكن مثل البشر: مظهرها خداع. الجمال الحقيقي يظهر بعد أن تتجاوز النظرة ما تراه للوهلة الأولى، وهذا الجمال، لا ينمحي مع الوقت، بل يتعمّق ويتّسع مع مرّ السنين.

كانت أليس تحبّ السير في شوارع كلوني العتيقة، خاصة المنحدرة منها، مثل شارع سانت أوديل، شارع جوزيفين ديبوا أو شارع لابار عندما يهبطها المرء، يتمتّع برؤية ساحرة على الأسقف، ملحمة من القرميد القديم يتدرج بين الأحمر والبني، تبرز منه أبراج

أجراس الدير والكنائس وبرج الأجبان الروماني العتيق، متوّجة في البعيد بتلال مشجرة تمتدّ نحو سماء زرقاء في الغالب.

عندما وصلت إلى أسفل شارع الجمهورية، حثّت أليس الخطى كي لا تستسلم لرائحة البريوش التي لا تقاوم والتي تصدر من مخبزة التماير. مرّت أمام نافورة الأفاعي. حجرها البالي المطحلب لم يكُن يجذب الأنظار، كان الشعار الذي يعلوها مخصَّصاً لمن يرفع بصره عالياً. حينئذٍ يكتشف هالة التاج الفخم. Felix Cluniaci Locus in quo Ridenti Naturae Soli Prestant Cives. عندما كانت طفلة، كانت أليس ترى فيه عبارة سحرية غامضة اكتشفت بعد سنوات معناها: **كلوني بلد سعيد، وهو المكان الذي يمارس فيه السكان مهامهم تحت شمس الطبيعة المبتسمة.**

فكرت ثانية في تجربتها بالأمس عند هرمس، تجربة صوفية تقريباً. لم تحسّ في حياتها أبداً من قبل بمثل تلك السعادة. يمكن أن تقدِّم كلّ ما تملك مقابل وعد بإمكانية العيش في تلك الحالة إلى آخر أيامها، يسكنها مثل ذلك الفرح...

من الآن فصاعداً، هي مستعدّة لكلّ شيء كي تفهم مبادئ المسيح الغامضة، بدءاً بالأكثر غرابة، غير المفهومة لأنها الآن أصبحت متأكّدة، هي تحتوي كشوفات غامضة، حقائق خفيّة مذهلة. وربما لأنها كانت مذهلة كان المسيح يتحدّث بالرمز وليس بشكلٍ واضح. هذه الحقائق، تريد أليس أن تسبر أغوارها.

عندما وصلت أمام بيت والدها العجوز وجدت الباب مفتوحاً. دخلت ووجدته في الحديقة الخلفية يشتغل في بستان الخضر، مغطياً رأسه بقبّعة قش.

- عزيزتي! قال وهو يلتفت. كنت أنتظرك.

قبّلته ثم سحبَت كرسياً قديماً من الحديد أخضر اللون جلست عليه في ظلّ شجرة الجوز العتيقة. على المائدة الصغيرة المستديرة أمامها وضع مقصّ البستنة وبعض الزهور. بقي والدها واقفاً، متكئاً على مقبض مجرفته.

- كيف حالكِ؟ سألها.

- حرّ شديد. عطب في تكييف الهواء في القطار... وأنت؟

- جيد.

أدركَت فجأة أنها لم تكن تهتم به بشكل كبير، كانت تكتفي بسؤاله عن أخباره بشكلٍ آليّ وتكتفي بالجواب الذي يقدّمه. وإن لم يكن ذلك الجواب سوى شكلٍ من التهذيب.

تفحَّصته بهدوء بينما كان يخلع قفازات البستنة ويضعها على المائدة. كان وجهه الذي نحته الوقت يبدو كأنه احتفظ ببصمة معاشه، أفراحه مثل معاناته.

غاب لحظة وعاد يحمل مزهرية صغيرة مملوءة بالماء وضعَ فيها الزهور.

- أليْسَ صعباً أن يتقدّم المرء في العمر؟ سألته بحذر.

ابتسم.

- يحمل التقدّم في العمر حقه من الآلام، بالتأكيد، لكني رغم كلّ شيء أكثر سعادة ممّا كنت وأنا في العشرين.

عقدت حاجبيها.

- لم تخبرني أبداً أن حياتك كانت قاسية في شبابك.

- لم تكن كذلك بشكل خاص.

نظرت إليه أليس بتمعّن.

- وأنتَ الآن أكثر سعادة؟ حقاً؟
- أجل، بوضوح.
- لكن نظرك نقص كثيراً، سمعك أيضاً... تُخبرني باستمرار أنك تفقد الذاكرة...
- بالتأكيد.
- أنك تبحث عن كلماتك...
- أجل.
- أنك مضطر لأن تستريح بعد ساعة من البستنة.
- هذا أكيد.
- وأيضاً الضجيج يُتعبك...
- كلّ هذا صحيح، لكن هذا لا يمنع من أني أكثر سعادة ممّا كنت في العشرين.
نظرَت إليه أليس حائرة.
- وكيف تفسِّر هذا؟
ابتسمَ، أمسكَ بدوره كرسياً ووضع قبعته على المائدة.
- أتاح لي السنّ أن أتحرَّر من أوهامي، هل ترين. أن أعيش في الواقع. والحياة الواقعية أكثر سعادة من حياة الأوهام.
- أوهامك؟
- تبخّرت واحدة تلو الأخرى وأنا أهرم.
- الأمر ليس واضحاً بالنسبة لي...
تنفَّس بعمق.
- مع الوقت، نتخلّص تدريجياً من كل ما يجعلنا تعساء ونحن شباب: الجمال، القوة الجسدية، النجاح، وحتى إلى حدّ ما الفكر. كلّ هذه الإعاقات التي تكون عندنا ونحن في العشرينيات.

أحسَّت أليس بصدمة وهي تُدرك فجأة أنّ والدها لا يمتلك كلّ قواه العقلية. أحسَّته مثل حجاب من التعاسة ألقي عليها فجأة. كيف أمكَنَها ألّا تُدرك ذلك إلى اليوم؟ كيف لم ترَ العلامات؟ مستغرقة في التركيز على نفسها، بلا شك. أحسَّت أنها على وشك البكاء. وماذا لو كان الزهايمر؟

- بابا... كيف تحسّ، حالياً؟

- بخير، لماذا؟

- هل... يمكن أن تُعيد ما كنت تقوله للتو. أعتقد أنّ لسانك زلق...

- كنت أقول إنّ الوقت يحرِّرنا ممّا يصنع تعاسة الشباب: القوة والجمال و...

- بابا... من فضلك... ركِّز. لا يمكن أن تقول هذا...

أخذ يضحك.

- هل ستتوقفين عن معاملتي كأني أخرف؟

أرغمَت أليس نفسها على الابتسام، وهي تشكّ أنّ يأسها لا بدّ أنه يُرى من عدة كيلومترات.

- بابا... أنت تعرف أنه ليس الجمال أو القوة أو النجاح هي التي تجعل المرء تعيساً. العكس هو الصحيح. كما ترى، أنا لم أعُد في العشرين، هذا أكيد، لكن ما يحرمني من أن أكون سعيدة تماماً هو عيوبي الجسدية، فشلي، أحياناً نقص في حضور البديهة...

ابتسم.

- هذا بالتحديد ما نعتقده في مثل عمرك.

تنهَّدَت.

- لم أعترف لك بذلك أبداً، لكني عندما كنت مراهقة كرهتكَ لأنك أورثتني جين أنفٍ كنت أراه كبيراً.

انفجر ضاحكاً.

- اعتبري نفسك سعيدة لأنك لم ترِثي صلعي!

- بابا، توجد دراسات جادة تثبت أنّ مَن كان جميلاً يحصل بسهولة على عمل، ومسؤوليات. أنه ينجح بشكل أفضل. الشيء نفسه بالنسبة إلى القامة: كلما كان المرء عظيماً، كلما كانت الأمور أسهل بالنسبة له. لقد أثبتَ ذلك بعض علماء الاجتماع، بابا... لماذا تضحك؟

- ماذا يُجدي أن يكون للمرء مسؤوليات أو أن ينجح إذا كان تعيساً؟

استلقى على كرسيه إلى الخلف.

- هذا في الأخير سؤال جيد.

عقدت أليس حاجبيها، شبه مصدومة وشبه مطمئنة على حالة والدها العقلية. هو كان ينظر إليها مبتسماً.

- أحضري زجاجة البورغوندي التي وضعتها لتبرد قبل مجيئك. أحضري أيضاً شيئاً نقضمه.

نهضت أليس وعادت بعد دقائق تحمل صينية مليئة.

أمسك والدها الزجاجة وأطلق مفتاح السدادات الموجود ضمن سكينه السويسري.

- نبيذ ماكون شانتري من عند فيليب فاليت... أحد المغرمين بالنبيذ الطبيعي! ينتج هذا النوع منذ عشرين سنة وهو يُتقن فنه إلى درجة الكمال.

صبّ كمية قليلة من الشراب في كأسه وأخذ يديره ثم قرَّب الكأس من أنفه. رأت أليس عينيه تتألقان من الارتياح.

تذوَّق بعناية وأضاءت ابتسامة رضا وجهه.

- يا لها من جودة! يا لها من استدارة... هذه الحمضيات...

صبّ لهما هما الاثنين ورفع كأسه.

- في صحة الشباب، الذي تمثل امتيازاته الحاجز الرئيس أمام السعادة!

شربت أليس بدورها جرعة، وتذوّقت التوازن الكامل للفروق الدقيقة في النكهات المتعدّدة.

أدار والدها نظره إلى الحديقة التي تغطيها الزهور، حديقة سرية كما توجد بكثرة في كلوني، مخبآت خلف البيوت التي لا تظهر للمارة سوى واجهتها العادية.

عندما استأنف الكلام، كان صوته أكثر هدوءاً، أكثر عمقاً.

- في الماضي، عندما كنت شاباً، كانت عندي رؤية مثيرة للشفقة عن الشيخوخة.

كنت أعتبرها المُصادرة التدريجية لكلّ امتيازاتنا. كلّ ما يصنع قيمتنا كان يُسحب منا تدريجياً مع التقدّم في السن.

قام باستراحة، أقرّته أليس بصمت؛ كانت تشاركه الرؤية نفسها... ثم استأنف:

- ثم لأننا لا نستطيع أن نوقف الزمن، بدأت أحسّ بتأثيره. في البداية، لا ندرك ذلك حقاً، وفقط عندما نعثر على صورة أخذت قبل سنوات نُدرك ما يحصل... التدهور. في تلك اللحظة ذلك يصيب المعنويات بضربة صغيرة، ثم لا نعود نفكر في الأمر، تتواصل الحياة... والشيخوخة أيضاً.

شرب جرعة من النبيذ، وكذلك فعَلَت أليس، كان حلقها جافاً.

- ثم ذات يوم، كنت في حوالي الخمسين، أدركتُ شيئاً مذهلاً: بينما كنت أفقد كلّ ما كان يُعتبر فخراً بالنسبة لي، أصبحتُ أحسّ أفضل وأفضل في نفسي. كان ذلك غير منطقي، غير مفهوم، ولم أكُن أنتظره. حينئذٍ حدث شيء قلَبَ حياتي.

- تسريحك.

- أجل، في تلك الوضعية التي كانت فيها قدراتي الشخصية قد بدأت تضعف شيئاً ما، فقدتُ عملي فجأة، وشكّل ذلك صدمة بالنسبة لي. في تلك الفترة، كانت البطالة شيء نادر. كان العديد من الناس ينهون حياتهم المهنية في الشركة نفسها. لم تكن الوظيفة شيئاً مضموناً بشكل رسمي مدى الحياة، لكن عملياً ذلك كان الأمر شبيهاً بذلك.

شرب جرعة.

- بعد أن تجاوزت الصدمة، ثم الإحساس بالغضب، شعرتُ بكثير من الحزن، لكن الحزن أيضاً انتهى بأن اختفى. لم أكُن قلقاً بشكل خاص لأني كنت أثق في قدراتي على إيجاد شغل، يوجد دوماً مكان ما في حاجة إلى مسؤول تجاري. بالتأكيد، كانت صناعة الفخار نشاط يحتضر في المنطقة، لكني كنت أعرف أنّ مهاراتي قابلة لأن تُنقل إلى قطاع آخر. في انتظار ذلك، كان راتب والدتك وتعويضاتي عن ضياع الشغل ينفقان على الأسرة. لكني بقيت ما يكفي من الوقت من دون شغل كي أدرك شيئاً مذهلاً.

- ماذا؟

- يصعب صياغته، لكني... اكتشفتُ أني لم أكُن عملي.

- أنك لم تكن عملك؟

- واصلتُ العيش رغم فشلي المهني، واصلتُ العيش رغم غياب الشغل. إلى حدود ذلك الوقت كان عملي منبعاً للفخر بالنسبة لي... مهنة مسؤول تجاري، كان حياتي.

- تقريباً شيء عادي، لا؟ عندما يحبّ المرء مهنته، عندما يحقق ذاته في نشاطه، يكرس له حياته...

- أجل، لكن الأمر كان أبعد من ذلك، أنا كنت أوجد من خلال مهنتي. في رأسي، كنت مسؤولاً تجارياً، ومع مرور الوقت، حتى ولو لم أكن أدرك ذلك في تلك الفترة، لم أكن شيئاً آخر. علاوة على أني لم أكن أباً جيداً...

- لقد طويت الصفحة، بابا.

- كنتُ أحدد نفسي من خلال دوري المهني، تفهمين. عندما سُحِبَ مني الدور، كأنما انتُزِعَ مني جزء كبير من نفسي، كي لا أقول سبب وجودي. كانت المعاناة شديدة، ثم... ثم انتهى الأمر بأن اكتشفتُ أنّ حياتي لا تنحصر في ذلك الدور، وأني لم أكُن وظيفتي، لكن فقط رجل يمارس تلك المهنة.

- أرى ذلك...

- وإذا كنتُ قد تقمصت وظيفتي، فلأنها تُعطيني منبعاً كبيراً من الفخر.

نظرَت إليه أليس، بتمعّن.

- تماماً مثلما نفعل في فترة الشباب، القوة أو المظهر الجسدي، أو الفكر أو الثقافة...

أقرّته.

تناولت أليس زيتونة وتنفّست بعمق. كانت زهور السرنجة المتعدِّدة تطلق روائح رائعة. نظرَ إليها والدها.

- لقد فهمت أننا نرتبط بما نفخر به، إلى درجة تقمّصه، واعتقاد أننا الشيء الذي يصنع ذلك الفخر. وكلّما زاد اعتقادنا، كلّما بَعُدنا عن ما نحن حقاً. الفخر مصنع للأوهام، وقود آلة تحويل طبيعتنا الحقيقية، مخفّض هوية.

مخفض هوية...

المشكل يكمن هنا بالأساس. قالت أليس في نفسها. تقمّص إحدى صفاتنا المميزة يخفض من حقل وجودنا...

- والانحسار التدريجي للجمال والقدرات الجسدية والعقلية يساعد على التخلص من تلك الهويات الزائفة، هذا هو؟

- بالنسبة إلى الذين يقبلون هذا الانحسار...

- عندي انطباع أنّ البعض، الذين يتقمصون تلك الأشياء، يمكن أن يقاوموا بيأس هذا الهرم، ويخفوه عن أعين الآخرين وربما عن أنفسهم... هم لا يدركون أنهم بتشبّثهم بهذا الشكل بما هو مجرّد أوهام، يضيِّعون على أنفسهم فرصة الظهور على ما هم عليه حقيقة. باعتقاد أنهم ينقذون هويتهم، هم يَفقِدونها.

انتاب أليس إحساس غريب وهي تسمع تلك الجملة الأخيرة، كأنها سبقَ أن سمعتها أو قرأتها في مكان ما. المسيح، لا بد أنّ المسيح قد قال شيئاً مشابهاً.

- هل سبقَ أن تحدَّثت مع أحد ما عن هذه الأشياء؟ مثلاً أناسٌ من محيطك كانوا على وشك الضياع؟

- ليس سهلاً، لا يمكن أن نناضل ضدّ الأوهام، ولا أحد يحبّ أن توضع أمامه بكلّ وضوح...

قطّبت أليس جبينها وهي تهزّ كتفيها.

- لو ساعدني صديق على ألّا أضيع، فهو حقاً صديق...

بدا والدها متأثراً بتلك الملاحظة، وبقي متفكراً لحظة طويلة، كأنه غاب في منعطفات ذكرياته.

- عندما أفكّر في ذلك، أقول في نفسي إنّ العديد من أصدقائي كانوا يتقمصون مِهَنهم. كانوا يعطون الانطباع أنهم لا يعيشون سوى من خلال مهنهم. مثلي أنا قبل أن يساعدني فقدان الشغل على النظر إلى كلّ شيء بشكل نسبي.

- لكن الآن، أتصور أنهم لم يعودوا في سنّ يسمح لهم بالعمل، إذاً كيف يعيشون ذلك؟

حدق فيها والدها لحظة، كأنه يتردّد في أن يتابع. امتلأت عيناه فجأة بالحزن.

- لقد انطفأوا جميعهم خلال الأشهر التي تلت إحالتهم على التقاعد.

16

- هل أنت متأكدة ممّا تقولينه، سيدة دو سيردغو.

هو الذي كان يعتقد أنه مرتاح من تلك الناحية...

رآها تقر، عيناها نصف مغمضتين، مبهورة بالشمس التي تجتاز النوافذ العالية ذات المربعات الصغيرة في القصر الأسقفي. بصفتها امرأة وقورة، كانت تحتفظ بهيئة رزينة، مرفوعة الرأس. كانت تقف مستقيمة حتى أنّ المرء يخالها مشدودة. باستقامة الصليب المرصع بالياقوت نفسه الذي تعلقه حول عنقها. هو لا يتذكر أنه رآها يوماً تضحك. أو ربما نعم، قبل طلاقها.

نظر إلى الخارج. كانت البارونة قد ركنت سيارتها الجاغوار العتيقة الخضراء مباشرة تحت نوافذه.

- هل يكون الأب جيريمي تحت تأثير امرأة شابة؟

- هذا بديهي، سيادتكم. علاوة على ذلك أنا لا أخبرك سوى بصفتي صديقة، كي لا تكون آخر مَن يعلم.

- هذا لطف منك. هل هذا يعني أنّ آخرين لاحظوا ذلك؟

- هذا ممّا لا شك فيه.

- الكثير؟

- نوعاً ما.

تنهّد الأسقف. من حسن الحظ أنّ البارونة تمده بأخبار الأبرشية بشكلٍ منتظم. لا توجد سلطة من دون معرفة.

- هل هي . . . جميلة؟

- ليس من عادتي تقييم الصفات الجسدية للنساء الشابات، سيادة الأسقف.

حدَّق فيها الأسقف بضع لحظات؛ تحمّلت نظرته دون أن ترمش.

- كيف يراها الآخرون، حسب رأيك؟

- الناس يقولون عنها جميلة.

هزّ الأسقف رأسه. **الناس يقولون عنها جميلة**. . . ربما كان الأب جيريمي لا يزال شاباً كي يستطيع مقاومة الإغواء. إغواء يتدخل في ما لا يعنيه. . . كانوا يتجهون نحو الفضيحة. في الوضعية التي عليها، لم تكُن الكنيسة في حاجة إلى ذلك. وبالأخص ليس في أبرشيته.

* * *

وهي تفتح باب بيتها في بداية زوال يوم الاثنين كي تأخذ ملفاً نسيته، أحسَّت أليس على الفور برائحة بخار المكواة. صاحت:

- هل أنت هنا، روزيتا؟

- لقد وصلتُ باكراً، أجابتها من الغرفة.

- وضعَت أليس أغراضها وفتحت دولاب المدخل. أخرَجَت هدية كبيرة مغلَّفة في ورق يحمل صورة بابا نويل، بقايا ورق اشترته قبل أشهر كي تغلّف به هدايا أبناء أخيها.

وافت عاملة المنزل في الغرفة، وقدَّمت لها الهدية.

- تفضلي، روزيتا، كنت في البورغوندي خلال نهاية الأسبوع، أحضرتُ لك هذا.

بدت الأخرى مندهشة.

- من أجلي؟ هذا لطف...

ابتسمت أليس.

أخذت روزيتا الحزمة، التي كادت تسقط منها.

- إنها ثقيلة!

وضعتها على طاولة الكيّ، قرب المكواة من حيث كان يتسرب خيط رقيق من البخار. أخذت تزيل الغطاء وهي تحك اللصاق بظفرها لكنه قاوم، حينئذٍ اضطرت إلى تمزيق الورق.

- آه!

ابتسمت لها أليس.

- خمّنت أن هذا سيُسعدك.

أصبحت روزيتا حمراء مثل جنين غُمِر في جرن ولادة به ماء بارد في عمق الشتاء.

- شكراً، تمتمت دون أن تنظر إلى أليس، لم تستطِع إبعاد عينيها عن علبة مسحوق الغسيل التي تمسكها بين يديها.

* * *

بعد ساعة من الزمن، كانت أليس قد عادت إلى مكتبها، في الطابق الثالث والخمسين من برج مونتبارناس. استلقت على كرسيها المدولب الذي أدارته نحو الواجهة الزجاجية المطلّة على باريس، مالت إلى الوراء قبالة السماء الشاسعة، كانت تفكر في تجربتها عند هرمس وحديثها مع والدها خلال نهاية الأسبوع.

طيب، هي موجودة بشكلٍ مستقل عن وظيفتها ومظهرها وعقلها

واعتبار الآخرين لها. هذا يمكن أن تفهمه وتَقْبَله. من ناحية ما هذا يبدو بديهياً. لكن بعد ذلك، لماذا تعطي أهمية للاعتناء بصورتها؟ لماذا تحسّ أن قدرها ينقص بحضور امرأة أجمَل منها، أو زميلٍ لامع أو صديقة أكثر ثقافة؟ لماذا تحسّ، عندما تلتقي شخصاً في موقع مسؤولية، أنها مدفوعة لتقديم صفتها كمستشارة حيث تضفي عليها قيمة؟ لماذا تلك الحاجة، إذا كانت موجودة من دون ذلك، إذا كانت قيمتها الحقيقية لا تتعلق بذلك؟

عند هرمس، كانت قد سحقت كبرياءها متعمّدة، بلعت كبرياءها، استسلمت للتجاهل والاحتقار. وبشكلٍ غريب قادها ذلك إلى سعادة ونور لا مثيل لهما. يوجد إذاً وجودٌ أبعد من الطريقة التي يمكن أن نرى بها أنفسنا، أو نتصوّر بها أنفسنا، أبعد من الطريقة التي يرانا بها الآخرون.

تنفّست أليس بعمق وهي تنظر إلى السماء الزرقاء. كلّ ذلك كان مشوشاً، وغامضاً. أحسّت أنها تلمس شيئاً أساسياً، أصلياً... لكنها كانت تتقدّم وهي تتلمّس بلا هدى في مجال مجهول.

فجأة، خطرت لها فكرة. توبي كولينز، سيقدّم لها صديقها توبي كولينز إضاءة في هذا المجال. بالضرورة.

أمسكت الهاتف وركّبت رقم محموله وانتظرت، مضطربة، بينما توالت الرنات. على طول الواجهة الزجاجية، في الخارج، رأت خيط شِباك غاسل الزجاج. لا بد أنه يوجد على بُعد بضع طوابق إلى الأسفل.

- توبي؟
- نعم.
- توبي، هذه أليس، من باريس. كيف حالك؟

- أليس! يا إلهي!

لم تستطِع أليس أن تحبس نفسها من الابتسام وهي تسمع صوت صديقها الدافئ. سألته عن أخباره ثم أخبرته عن الأفكار التي تشغلها.

- الأنا، أصبحتِ تهتمين بالأنا؟ سألها توبي.

- الأنا؟

- أجل.

- لا أعرف. يحدث أن أستعمل هذا المصطلح في الحديث مثل جميع الناس، دون أن أعرف بالضبط ماذا يعني...

- في الواقع، الأمر بسيط، نحن لا نعرف حقاً مَن نكون، لأنّ مَن نكون شيء جدّ مجرّد، إذاً نحن ننزع إلى تمثيل ذاتنا بعددٍ من الأشياء المحسوسة أكثر، مثلاً شكلنا الجسدي، ميزاتنا، ذكاؤنا، مهنتنا، أو حتى أدوار نتبناها.

- أدوار؟

- أجل، يمكن أن نتبنى دوراً دون أن نُدرك ذلك بالفعل ونلتصق به أكثر فأكثر، دور الشخص الرائع، المرأة النشيطة، المنطوي غير المحبوب، الرجل القوي، الشخص اللطيف الطيب... إلخ. يوجد بالتأكيد عددٌ لا يحصى.

- هذا خطير؟

- هذا ليس مشكلة في حدّ ذاته، لكنه يحدّ، نحن لسنا **فقط** مهنتنا، أو جمالنا، أو ذكاءنا، أو الدور الذي نتبناه. لكن بما أننا نميل إلى تقمّص ذلك، إذاً في مكان ما في داخلنا، نحسّ أنه شيء ضعيف ويبدأ الخوف يستقرّ حينئذٍ، الخوف ألّا نكون ما نعتقد أنه نحن **بالقدر الكافي**. الخوف من ألّا نكون على **القدر الكافي** من

الجمال، على **القدر الكافي** من الذكاء، على **القدر الكافي** من الموهبة، على **القدر الكافي** من المهارة، على **القدر الكافي** من المهنة أو الدور الذي نحاول أن نتقمّصه.

- أرى ذلك.

نعتقد أنه سيتم تقديرنا بحسب هذه الصفات، دون أن نُدرك أنها في الواقع خارجية نسبياً عنّا أو في جميع الأحوال ثانوية. لكن بما أنّ الماهية يصعُب تعريفها، وحتى المَساس بها، نحن نرتبط أكثر فأكثر بهذه العناصر التي نعتقد أنها تُعَرّفنا، وأنها نحن، ونميل إلى الدفاع عنها ضدّ كل تقليل. كلّ نقدٍ بخصوص مظهرنا الجسدي، أو أفكارنا، أو مهاراتنا نشعر به كأنه نقد لذاتنا، كأنه تحدٍّ لقيمتنا الحقيقية. إذاً نحسّ بالجرح حتى النخاع، وبحسب شخصيتنا، إما أن ننمحي وننكمش على هذه الكلمة الخادعة، وإمّا أن نرفض النقد وربما نشنّ هجوماً مضاداً كي نردّ عليه.

- هذا ما أدركته بالفعل.

- هذا هو.

اعتقدَت أليس أنها تحسّ ببعض الضيق في صوت توبي. ربما لم يكن شاغراً تماماً وكانت تزعجه؟ دقيقتين فقط وستتركه.

- وما هي العلاقة مع الأنا؟

بقي صامتاً لحظة.

- نطلق الأنا على ذلك التمثيل الذي نشكّله عن أنفسنا، ذلك البناء الذهني حول الفكرة التي نكوِّنها عن أنفسنا. هُوية مزيّفة من ناحية ما تحُول دون طبيعتنا الحقيقية. ومع ذلك، نحن نتمسّك بها ونكون مستعدين لفعل أيّ شيء من أجل الدفاع عنها. الأنا هي

تقريباً مثل جزء منا يُمسك السلطة، ويعبّر مكاننا ويرى ويسمع عوضاً عنا، ويريد أن يوجد أكثر فأكثر في داخلنا.

- وهل... توجد وسيلة للخروج من هذا المأزق؟

مرّت لحظة وقت ميت في طرف الخيط.

عندما استأنف توبي الكلام، وجدَت أليس صوته أكثر برودة.

- لكن أخبريني أليس، بكلّ هذه الأسئلة... أنت تتوجّهين إلى الصديق أم إلى المستشار؟

- أوه... الأمر سيان، لا؟

- لا، ليس نفسه، أليس.

- آه طيب... ما هو الفرق؟

صمت قصير.

- خمسمائة دولار، عزيزتي.

بعد أن أوقَفها في اندفاعها، ارتبكت أليس، ثم انتهى الحديث، وأغلقت الخط، محبَطة وقلبها حزين.

خلف الواجهة، قلّد عامل تنظيف الزجاج السنغالي هيئتها المخذولة، متظاهراً أنه هو أيضاً يبكي، قبل أن يتّخذ هيأة متأسّفة من أجلها.

أرغَمَت نفسها على أن تبتسم له بالمقابل. هل كان حقاً متعاطفاً ومسلياً، أو أنه تبنى دور عامل تنظيف الزجاج المتعاطف والمسلي؟

خيبة أملها مع توبي جعلتها حذرة.

توبي.

تنهّدت. هل كانت يوماً حقاً صديقته، على أية حال؟ على مرّ الدورات، في كلّ وقت استراحة، فعلَت كلّ شيء كي تخلق هذه

العلاقة وتحافظ عليها... لأيّ سبب؟ في الواقع، هل كانت تحبّه حقاً؟

كلّ سؤال تطرحه يحمل جوابه بنفسه، وأدركَت أليس بما لا يقبل الشك أنها كانت تتباهى بكونها صديقة رجل مشهور... كما لو أنها كانت أيضاً توجد من خلال علاقاتها. أنا أعاشر أناساً مهمين، إذاً أنا مهمة. علاوة على ذلك، ألم تكُن تُظهر لمحيطها بلباقة أنها صديقة لكولينز؟ الأنا بلا شك...

كولينز. أب التنمية الذاتية. قدَّم لها الكثير، يجب أن تعترف بذلك. لا يجب أن تنكر ذلك لأنها مصدومة. بفضله تعلَّمت أن تحب نفسها، أن تثق بنفسها، أن تتحرَّر من مخاوفها، وشكوكها. هو نفسه كان يتمتع بثقة كبيرة في النفس، كان واثقاً ويجسّد النجاح...

من الجهة الأخرى من الواجهة، كان عامل تنظيف الزجاج يمارس عمله بإتقان. التقت نظراتهما من جديد ووجَّه لها ابتسامة لطيفة أسَرَتْها، لأنها أحسَّت بصدقها.

كولينز. الهدف في الحياة ربما لم يكُن فقط أن يصبح المرء مرتاحاً في جلده ويعرف كيف يدير مصالحه كأناني...

عجباً، في «أناني»، توجد أنا...

تنهّدت، وهي تراقب متأملة، حركات عامل تنظيف الزجاج، المنتظم، المتقن... هي أيضاً كانت تمسح زجاج نظارتها المشوّهة التي كانت ترى من خلالها الحياة.

كانت تحبّ نزعته المتعاطفة والإيجابية والإنسانية. لا، لم يكن دوراً. هذا الرجل كان طبيعياً، يمكن أن تقسِم على ذلك. كان يبدو

بسيطاً وفي مكان ما كانت تحسد تلك البساطة. هو لا يمكن أن يشغِّل رأسه بقضايا وجودية!

أدركت أنها مع ذلك تحسّ بأنها متفوّقة عليه، هي التي كانت لديها انشغالات فلسفية، هي التي تحاول أن ترتفع روحانياً. لامت نفسها على ذلك الإحساس وأدركَت فجأة الفخّ الفادح الذي كانت بصدد أن تقع فيه، هي الباحثة عن تحرّر الأنا والسمو الروحي تعرِّض نفسها لأن ترى الأنا تستولي على ذلك السعي وتتمثّل به!

ذكَّرها ذلك برسم فكاهي لفوتش. كان الرسم يمثِّل شخصاً بزيّ راهب آسيوي يتسلق جبلاً وهو يقول «أريد أن أحقق التواضع! أريد أن أصبح رقم واحد عالمياً في التواضع!».

التفتت من جديد نحو الواجهة، لكن الرافعة كانت تصعد نحو المستويات العليا، تاركة إياها لوحدها في مكتبها الفخم في الطابق الثالث والخمسين من برج مونتبارناس، بينما كان عامل تنظيف الزجاج يصعد نحو السماء.

17

رنّ الهاتف. كان بول على الطرف الآخر.

- عزيزتي، أحدّثك من البيت.

- ماذا تفعل في البيت في مثل هذه الساعة؟ حتى أن الساعة لم تصل السادسة بعد الزوال.

- كنت خارجاً من أحد المواعيد بالقرب. ولم أرغب في اجتياز باريس في ساعة الذروة.

- رائع: ستبقى مع تيو هذا المساء! كنت مدعوّة لحضور معرض بعد العمل وكنت أفكر ألّا أذهب!

- حسناً، قال من دون حماس. هل ستتأخرين؟

- سأمرّ فقط، بما أني مدعوة.

- حسناً. يجب أن أخبرك شيئاً. تصوري أنه عند وصولي، التقيتُ وجهاً لوجه مع روزيتا التي كانت تنصرف. وهل تعرفين ماذا كانت تحمل تحت ذراعها؟ علبة كبيرة من مسحوق الغسيل!

- آه...

- تذكّرت قلقكِ بسبب سرقاتها، ووجدتُ الفرصة مواتية: متلبّسة بجريمة، استغليتُ الفرصة وأخبرتُها أننا سنسرّحها على الفور

بسبب خطأ كبير مع توقيف عن العمل في الحال. إنه الحلّ الأفضل: لن نضطر لدفع مقابلٍ عن عطلها المدفوعة الأجر! انتهت العملية. هل أنت مرتاحة؟

- لا، انتظر...

- لقد احتجّت، بالتأكيد... لكن طيب، دفاعها ليس له وزن، لا أحد في المحكمة سيصدّقها. لقد غُلِبَت. تخلّصنا منها.

- في الواقع...

- سأخبركِ رغم ذلك، ستضحكين: لقد قالَت إنها هدية منك، تذكار من بورغوندي! أمسكتُ نفسي عن الضحك كي أواصل لعب دور المصدوم!

- بول... في الواقع، هي تقول الحقيقة.

صمتٌ طويل على الطرف الآخر من الخط.

- كيف ذلك؟

- لقد منحتها فعلاً تلك العلبة... علبة المسحوق كهدية.

صمت جديد، لامتنهٍ.

- لم أعُد أفهمكِ أليس.

- أحسّت أليس فجأة بأنها وحيدة... كيف يمكن أن تفسّر له؟

- أليس، ما هذا الهذيان؟

- في الواقع... حسناً، يمكن أن تسخر مني... أنا أردت فقط أن أتبع أحد مبادئ المسيح كي أرى إلى أين يقود. مبدأ يقول: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَاصِمَكَ وَيَأْخُذَ ثَوْبَكَ فَاتْرُكْ لَهُ الرِّدَاءَ»...

صمت.

- أنتِ غريبة في هذا الوقت، أليس...

* * *

بعد ساعة، كانت أليس تدفع باب معرض ماغ دانيال، أحد المعارض الفنية في شارع السين. كان يشهد تدفقاً كبيراً بالفعل. كأنّ كلّ ساكنة سان جرمان قد التقت فيه، كلّ يمسك كأس شمبانيا في يده. أحسّت أليس بالفخر لأنها حصلت على دعوة.

اجتازت القاعة وسط الأحاديث النشطة وروائح العطور الغالية، والملابس المسترخية. في العمق، كان الفنان الجالس على طرف المائدة يستمع إلى سيدة تُخبره بلا شك إلى أيّ درجة هي تحب أعماله. أخذت أليس كأساً وتسلّلت بين الجموع كي تحاول رؤية اللوحات. كان الزوار يبدون مهتمين بالتعليقات التي يدلون بها أكثر من اهتمامهم بالأعمال نفسها. ضمنهم، كان هناك رجل في الخمسين يتبختر مثل ديك، يتحدث بشكل أقوى من الآخرين وهو يتظاهر كأنه أرستقراطي، وكان يتوصل إلى جذب اهتمام الأغلبية، الذين كانوا يعطون الانطباع بأنهم يتملقونه.

قامت أليس بجولة على اللوحات. كان الفنان متناسقاً في أسلوبه: لوحاته، جميعها من الحجم الكبير، كانت مشكَّلة على خلفية منتظمة من الألوان الداكنة، الأزرق، أو البني، أو الأسود، ومن تتابع للخطوط المتوازية من عرض متغير، في ألوان فيروزية وليمونية وتوتية. لم تكن رؤيتها بغيضة، كانت تشبه (بار كود) منطبقاً على أسلوب معين وملون.

كانت أليس تلتقط هنا وهناك أطرافاً من الحديث، وكان ذلك مسلياً، مسرح حقيقي صغير من إرضاء الذات حيث كان كلّ واحد يصعد إلى الخشبة فيما انتهى به الأمر إلى أن يشبه حوشاً: هناك مَن يموء بألقابه، مَن يزقزق بحكايات ترفع القيمة، مَن يهدل بالتعليقات الملهِمة، مَن يطلق نقداً تبريره الوحيد أنه يُرفَع فوق جثمان المنتَقَد.

وعندما كان أحد ما في إحدى المجموعات يُظهر اختلافه ببعض المفاهيم من تاريخ الفن، كان الآخرون يهزّون رؤوسهم بدراية: في مملكة الأدعياء، المتحذلقون ملوك.

مرّت قرب المرأة التي كانت تتحدث مع الفنان، وسمعتها تتحدث معه عن اللوحات التي ترسمها بنفسها.

حفلة التباهي كانت في أوجها. كانت الأنا في كلّ مكان، كانت تسود الأمسية بلا منازع. انطبع لدى أليس أن لا أحد، قطعاً لا أحد كان ببساطة نفسه. كلّ واحد كان يدّعي، يلعب دوراً، يشتغل على هيئته، تعبيرات وجهه كما تعبيرات لغته، يزيِّف عواطفه. كان كلّ واحد من الناس ينمحي خلف أناه، إلى حدّ التلاشي. كأنهم لم يعودوا يوجدون، كأنهم... أموات، حلّ مكانهم طُفَيْلي استعمرَ عقلهم وامتلك حركاتهم، وكلامهم، وروحهم.

أموات. فكرت أليس في المسيح. لم تكن قد فهمته عندما استعمل هذا المصطلح، الموت، في جملٍ بدا فيها خارج الموضوع، مثل «مَن سمع كلامي ينتقل من الموت إلى الحياة». تذكّرته لأنها كانت قد وجدته مضحكاً، كانت حية بالفعل قبل أن تكتشف كلامه.

وإذا كان المسيح يعني الشيء نفسه مثلها، ويعتبر أمواتاً الناس الذين التهمتهم الأنا؟ وعلاوة على ذلك، بالتفكير في الأمر، المسيح نفسه كان يبدو متحرِّراً من الأنا، حتى ولو لم يستعمل أبداً ذلك المصطلح. كان الآخرون يقولون عنه المُخلِّص، النبي، ابن الله، أو أيضاً ملك اليهود. ليس هو. لم يمنَح نفسه أيّ لقب. كان يقول ببساطة «ابن آدم»، أحياناً مترجَمَة «ابن إنسان»... مثل جميع الناس! كأنه كان يرفض أن يتمثل بأي شيء، كأنه كان يرفض أن

تُرفع قيمته. أو كأنه كان يريد أن يُعطي المثال، يُري الطريق الذي يجب اتّباعه بتوضيحه بتصرفاته.

كانت أليس تحسّ أنها مضطربة بقدر ما كانت الأمثلة تعود إلى ذاكرتها.

إبراء المرضى! غالب الوقت، كان المسيح يقوم به في منأى عن الأنظار، يطلب أن تنسحب الجموع، وكان يحدُث أن يطلب ألّا يتحدّث عنها أحد، وألّا يكرّر أحد ما رآه... كان جلياً أنه يرفض المجد.

ربطت أليس ذلك بتجربتها الخاصة عند هرمس، ذلك التنوير الذي عاشته وهي تجرب تطبيق عبارته **طوبى لكم إذا عيروكم**. وإن كان المسيح يريد أن يقول إن المرء يصبح سعيداً بتحرره من الأنا؟

- عادة، تُقدَّم لي النساء الجميلات. إننا نفقد العادات الحَسَنة. ما اسمك، عزيزتي؟

رفعت أليس عينيها. وجدت الرجل الذي رأته يتبختر قبل دقائق.

- أليس.

رأت نظرته تحدّق في ثدييها ثم في بطنها، ثم هبطت أسفل بطنها، فأحسَّت أنها كتلة لحم.

- يا له من اسم لذيذ. ماذا تفعلين في الحياة، عزيزتي أليس؟

تردَّدت بضع لحظات، ثم نظرت في عينيه.

- أنا أغسل زجاج النوافذ.

- آه، آه! ضحك، غير مصدّق.

- لماذا تضحك؟

رأت نظرته تتحوّل من عدم التصديق إلى التشكيك، بينما كان ينظر إليها عن قرب.

- لا، لا، أنا لا أضحك...

وجّه لها ابتسامة محرجة، مغلّفة بالازدراء. أحسَّت أنه سينقلب على عقبيه.

- وأنت؟ قُل لي مَن أنت؟

بعد اللحظات الأولى التي أحسَّت خلالها بالتقليل بعد إعلانها عن تلك المهنة التي لا تضفي عليها قيمة كبيرة، أصبحت أليس تتذوق الآن نوعاً من الحرية. لم يعُد عندها ما تخسره، لا وضع تدافع عنه، لا دور لتلعبه كي تتطابق مع الصورة التي يعكسها عادة لقبها كمستشارة.

ضحك ضحكة مستهزئة.

- ربما كنتِ الوحيدة التي تجهَل ذلك، عزيزتي. أنا ناقدٌ فني.

أسرَّت إليها إحدى المدعوات التي كانت تحوم حوله كأنها ذبابة، وهي تبتسم للرجل الذي تتملقه: «هو الذي يتحكَّم في سوق الفن».

نظرت أليس في عينيه.

- هذا، هذا ما تفعله. أنا سألتك عمَّن تكون، وليس عن ماذا تفعل.

- لكن... لكن...

بدا مشوشاً بسبب كلامها.

ارتفع ذقنه أكثر فأكثر، كأنه يحاول أن يرتفع فوقها.

- ألا تعرف مَن تكون؟

- لكني... أنطوان دوبون! قال بنبرة متعجرفة. الجميع يعرفني...

أقرّه المتودّدون.

نظرت حولها في القاعة. لا أحد يهتم باللوحات.

وحده، منسي، مستلقٍ على كرسيه المزخرف في عمق القاعة، كان الفنان يتدثّر بجرحه ويلعب دور الفنانين الذين لا يفهمهم أحد.

قطّبت أليس.

ولو كان والداك قد أطلقا عليك اسماً آخر، أو أنهما ورثا لقباً آخر، لن تكون أنطوان دوبان. هل كنت لتكون شخصاً آخر مع ذلك؟

كان يبدو محتاراً أكثر فأكثر.

تفحّصته أليس.

- إذاً من تكون حقاً، في الواقع، إنْ لم تكن أنطوان دوبون؟

18

عندما تتعرَّون دون أن تشعروا بالخجل، فتخلعون ثيابكم وتضعونها تحت أقدامكم وتدوسونها، عندئذٍ [. . .] لن تخافوا.

أغلقت أليس الكتاب المقدّس، حيث بدأ غلافه الخاص بالقانون المدني يتمزق، وتنفست بعمق.

تذكرت أنها ضحكت بقوة آخر مرة قرأت فيها هذه الجملة.

الآن، هي تقرأ بين الأسطر رسالة جدّ خاصة. يبدو أن المسيح يؤكد أنّ الخجل هو الذي يجعلنا نرتدي الثياب، وأننا بتعلّمنا أن نخلعها سنتحرّر من الخوف. رغم أنّ المسيح لم يكن يتجول عارياً! كلمة « ثياب» لا يجب فهمها حرفياً. لا بد أنه من التعبيرات المجازية، كما كان المسيح يستعملها عادة، ولم تستطِع أليس أن تمنع نفسها من أن ترى فيه مرة أخرى الأنا، الثياب تعني بلا شك الهويات الزائفة التي نضعها مثل حجاب يخفي مَن نكون، التصوّرات الخاطئة عن أنفسنا عندما نتقمّص دوراً، أو مهنة، أو مظهراً، أو ميزة. والمسيح يقدّم سبباً لذلك: الخجل.

في مكتبه، بعيداً شيئاً ما، كان رشيد مشغولاً بشاشة حاسوبه.

حالمة، استدارت أليس نحو الواجهة ونظرت بعيداً، أبعَد من السحاب الذي كان يعمّ السماء الباريسية.

الخجل.

بطبيعة الحال.

إنه الخجل ممّا نحن على طبيعتنا، ممّا نحن خارج ما يمكن أن نفعله أو أن نريه، ذلك الخوف من أن لا نكون كما ينبغي، هو الذي يجعلنا نتقمّص تلك الأدوار، ونتبنى تلك الصفات، وندافع عنها بكلّ قوة لأنها تحمينا من عُري هويتنا، التي نعتقد خطأً أنها غير كافية.

تنفّست أليس بعمق مرة أخرى.

كان المسيح يَعِدُ بأنه عند التحرّر من هذه الحيل سنتحرر من الخوف... ربما لأننا سنتحقق حينئذٍ من قيمة وجودنا، قيمة وجودنا اللانهائية، دون أنِ نضطر لفعل شيء أو إثبات شيء. الوجود من دون ظهور. فقط وجود.

ألَيْسَ ذلك ما عاشته عند هرمس؟

ابتسمت وهي تتذكر أنه في الميثولوجيا، كان هرمس، رسول زوس، والوسيط بين العالمين الأرضي والسماوي خاصة.

الميثولوجيا... قبل سنوات، كانت قد سافرت إلى اليونان، وتتذكر أنها استغربت عندما علمت أنه يوجد شعار آخر على زخرفة معبد أبولو في دلفي. العالم بأسره كان قد حفظ «اعرف نفسك بنفسك»، والعالم بأسره يبدو أنه نسي الأخرى: «لا شيء زائد». لم تسمع أحداً يتحدث عنها أبداً...

في تلك الفترة، بدَت لها تلك الحكمة غامضة. اليوم، هي تشعر أنها تراها بشكل أوضح. «اعرف نفسك بنفسك» و«لا شيء

زائد» تدعو الناس لأن يكونوا أنفسهم وألّا يعتبروا أنفسهم ما ليسوا عليه...

عبر زجاج المكتب، بدأت السّحب تنقشع ببطء.

بعد أن اكتشفت التشابه بين المسيح ولاو تسو، أصبحَت أليس ترى الآن تقارباً بين شعارات حكماء الإغريق القديمة، عدة قرون قبل المسيح.

كلّ شيء يبدو كأنه يلتقي...

لا بد من وجود حقيقة كونية، حكمة عالمية حول تحرير الأنا، حكمة عبرت القرون والقارات، دون أن تستطيع الوصول إلى الناس. كأنّ الكائنات البشرية تقوم لاشعورياً بغربلة الرسائل التي وجّهت إليها، كي تتفادى سماع تلك التي تخاطب فيها الأنا...

ومع ذلك، ما كانت أليس تشكّ فيه لنفسها، في المكان الذي كانت قد وصلت إليه في اكتشافها، هو أنّ الأنا عندها هي المسؤولة عن أغلب مشاكلها الشخصية، أغلب معاناتها اليومية.

تلك الحكمة، لم تجدها في الديانة المسيحية، رغم رسائل المسيح التي بدأت تفكّها. حسناً، بالتأكيد هي لم تشرع في الذهاب إلى القداس سوى منذ بضعة أشهر! لا يمكن أن تعتبر نفسها عارفة. لكن عندما تفكّر في أصدقائها الكاثوليكيين، روحانيةُ أقلّهم ممارسَةً كانت تبدو لها مختصرة في بعض الممنوعات -مثل الامتناع عن تناول اللحم يوم الجمعة المقدسة- وروحانية أكثرِهم ممارسَةً، تشمل عدة ممنوعات: عدم ممارسة الحب قبل الزواج، عدم ارتكاب خطيئة الشَّرَه أو الكسل أو الحسد أو الغضب... الشيء الذي يقودهم إلى الإحساس بالذنب تقريباً طيلة الوقت!

لم ترَ في ممارستهم شيئاً يقترب من تحرير الأنا. ما عندهم كان

يشبُه أكثر مدونة أخلاقية. كانت تفهم بصعوبة كيف يمكن لذلك أن يرفع روحانياً.

في حين أنّ ما تحس به أليس مع تحرُّر الأنا، هو مفتاح شيء مربح على المستوى الروحاني، مثل بابٍ ينفتح نحو عالم آخر تذوّقت بواكيره.

كانت تريد المضيّ في ذلك الاتجاه، لكن ما العمل؟ أصبحت تصطدم بحدود خطّتها: تنفيذ كلام المسيح كي تجرّبه بنفسها كان ممكناً إلى حدّ تلك اللحظة، لكن كيف يمكن تجربة تعاليم مثل «طوبى للمساكين بالروح» أو الامتناع عن الذنوب؟ كُن سخيفاً لمدّة شهر وستخسر وظيفتك. شهرين من العفة، وستجد نفسك مُطلّقاً.

مساكين بالروح... تذكَّرَت أليس التعبير القريب الذي استعمَلَه لاو تسو: بسطاء الروح. كانت في النهاية قد بحثت قليلاً عن توضيح التشابهات المحيِّرة التي أبرزتها. كان لقاؤها المحبط مع الراهب الطاوي قد كبح اندفاعها. ربما كان عليها أن تلح في ذلك الاتجاه؟ ربما كانت تلك الفلسفة القديمة تحمل مفاتيح لفَهم رسائل المسيح؟

- ألا تعرف بعض الطاويين؟

رفع رشيد عينيه.

- لم ألتقِ بأحدهم أبداً.

- أو أحداً يعاشرهم؟

قطّب.

- أوه... لا، لا أرى...

- أو أحداً يعرف أحداً يعاشرهم؟ قالت وهي تضحك.

- لا... الشخص الوحيد الذي يخطر على بالي هو رافاييل دوفيرني، المتخصّص في الديانات الشرقية.

- رافاييل دوفيرني؟ ألَيْس ميتاً؟
انفجر رشيد ضاحكاً.

- بمعنى، أجل! لكنه لا يزال من هذا العالم، على ما أظن. أتاحتُ له أن يحاضر في إحدى الشركات مباشرة قبل سقوطه. أتوفّر على عنوانه، لو أردته. قبل بضع سنوات، كان المتخصّص قد تعرّض لفضيحة عندما كان في أوجّ ازدهاره، وكتبه عن الروحانية تُباع بالآلاف، والصحافة تعتبره ابنها المدلّل. أعلنت زوجته في تلك الفترة، بعد انزعاجها بلا شك من كونه يخونها مع العالم بأكمله، كلّ ما كان يثقل على قلبها: رافاييل دوفيرني، الذي يحترمه الجميع، والذي يعتبر متصوفاً، كان مصاباً بالعُصاب، فخوراً بذاته، طاغية مع محيطه، مستعداً للتضحية بأقرب الناس إليه كي يتمّ استدعاؤه إلى منصّة تلفزيون، والشيء الأدهى، هو أنه كان يستعين بكتّاب مساندين كي يضمَن إصدارين في السنة ويغلق سوق أعمال الحكمة الشرقية.

واصل رشيد:

- هو يسكن بالقرب من بيتك.
- في الباستيل؟
- لا، في البورغوندي.
- أنت تمزح.
- لا أبداً. الرجل يعيش في قصره حياة زاهد.

في نهاية الأسبوع، اجتازت أليس جسراً متحرّكاً يقود إلى قلعة أثرية من القرون الوسطى. كانت القلعة قد شيِّدت في منتزهٍ أشجاره معمِّرة، في فجوة من إحدى قرى ماكوني، على بُعد حوالي عشرين كيلومتراً من كلوني. مرَّت من بعض الأروقة ووجدت نفسها في

حديقة وسط حظيرة على شكلِ حدوة حصان. بعض الصفوف من شجر البقس غير مشذّبة تحيط بأرضيات ساحة معشوشبة جدّ عالية، في ما كان يشبه حديقة على النمط الفرنسي.

توجَّهت أليس نحو باب كبير من خشب السنديان مليء بالمسامير يبدو أنه المدخل الرئيس، وفي غياب الجرس، أمسكَت قارع الزهر وطرقته ثلاث مرات.

كانت تترقب أن ترى فارساً مدرّعاً يفتح لها، لكن مَن فتح الباب كان امرأة شاحبة سحنتها متعَبة ونظرتها حزينة. خادمة؟ من أفراد العائلة؟

- ادخلي، هو في قبو القلعة، قالت لها بصوتٍ ضعيف بعد أن عرّفتها أليس بنفسها. تفضلي، من هنا.

أشارت إلى سلم لولبي مظلم يبدو كأنه يغور في أحشاء القلعة.

- أفضل أن أنتظر أن يصعد. لو تفضَّلتِ بإعلامه...

ألقَت المرأة نظرة على الرجل النحيل الذي لم تلمحه أليس في البداية، في العتمة. هزَّ الأخير كتفيه بشكل خفيف دون أن يُجيب، ونظرته كابية.

- لن يصعد عن قريب، قالت المرأة. من الأفضل أن تنزلي لموافاته.

لم تكُن أليس تشعر برغبة في ذلك.

تردَّدت. نظر إليها مضيفها شزراً، وجهان رماديان وأعين غائرة في محجرها.

تقدَّمت ببطء نحو السلم الحجري الذي حفرت درجاته بفعل القرون. كلّما هبطت كان الهواء يزداد رطوبة. في نهاية الدرج،

دخلت في رواق طويل مقبّب من الحجر الرمادي إضاءته خفيفة تصدر من مصابيح تشبه فوانيس العربات القديمة من النحاس الصدئ.

كان الرواق يفضي إلى قبو شاسع، مقبب أيضاً، لكن الذي كانت فيه الإضاءة التي تصدر من مصابيح جدارية ضخمة تبثّ فيه حرارة رغم كون الجدران من الحجر والأرضية من الطين. عشرات من البراميل الكبيرة مصفّفة. في العمق، سجادة فارسية كبيرة فُرِشَت مباشرة على الأرض، وفوقها، مائدة خاصة بالنبيذ من السنديان يحيط بها كراسي من طراز لويس الثالث عشر منجّدة بالقطيفة الحمراء. على المائدة، حوالي ثلاثين كأساً متفرقاً.

كان رافاييل دوفيرني ذائع الصيت جالساً على إحدى الكراسي، شعره فوضوي، ولحيته بيضاء غير مهذّبة، كأس نبيذ أحمر في يده، حدّق فيها بعينيه الداكنتين بصمت.

بدا لها غريباً أن تراه حقيقة، بعد أن رأته عشرات المرات في التلفزيون قبل بضع سنوات. على بشرته المحمرة المنتفخة ظهرت بعض الأخاديد رسمتها التجاعيد. نظرته كانت قاسية.

جلَت أليس حلقها وهي تتقدم نحوه، مبتسمة.

- أنا ألـ. . .

- وأنا راف، دمدم في لحيته مشيحاً ببصره.

أجبَرَت أليس نفسها على أن تظل مبتسمة.

- لا بد أنهم أعلموكَ بقدومي، وأخبروكَ أني أحتاج إلى توضيح حول. . .

- تذوُّق نبيذ مارك البورغوندي. . .

قال ذلك على نحوٍ كئيب.

- لا، الروحانيات الشرقية.

- لقد أخطأتِ العنوان.

- أرغَب في فهم بعض تعاليم الطاوية...

هزَّ كتفيه، ونظرته مسمرة على الكأس الذي كان يديره ببطء.

بعد لحظة طويلة، أطلق في تنهيدة غير مسموعة تقريباً:

- ماذا يمكن أن تفعلي بذلك؟

أحسَّت أليس بالغضب يتصاعد في داخلها وأرغَمَت نفسها على البقاء هادئة رغم الرغبة العنيفة التي تملَّكتها لتسدِّد لكمة إلى وجهه.

يجب أن تُجامله وتلاطفه.

- اسمع. أنا أعرف أنك متخصِّص في الروحانيات.

ظهرت على شفتيه تكشيرة صغيرة كأنها ابتسامة معذبة.

- لقد انتقلت من الروحاني إلى الروحي.

عضَّت أليس على شفتيها. لم تنجح...

- إذا قدّم لي كأساً.

بدا كأنه تفاجأ، أدار نحوَها رأسه وحدّق فيها لحظة بصمت.

بذل مجهوداً لينهض وينحني على المائدة، تفحَّص الكؤوس العديدة بعينيه. تحقّقت أليس من أنها جميعها متسخة. صاح:

- نادين! كأس من أجل الآنسة!

- السيدة.

- السيدة، كرَّر ذلك بين أسنانه بعد لحظة صمت.

كانت الحظوظ قليلة كي تسمع المسمّاة نادين النداء. لذا فوجئت أليس عندما سمعت بعد ثوان خطوات على السلالم ثم في الرواق. تعرَّفت على المرأة التي استقبلتها. وضعت هذه الأخيرة كأساً وانصرفت.

خلال ذلك الوقت، كان دوفيرني قد أمسك زجاجة كريمون فتحها في فرقعة رنَّت في القبو بكامله.

سال النبيذ الفوار في كأسين. حمل واحداً أمام عينيه، ثم تحت أنفه. ثم قال:

- تريبوز. خام. طبيعي. توازن مثالي للنكهات. الفن العظيم.

نطق تلك الكلمات المادحة بصوت خشن، بنبرة مكتئبة وعدائية تقريباً.

قدَّم لها الكأس الآخر.

أن تأخذ كامل وقتها.

أن تروّض الوحش.

- صحيح أنّ نكهته جد دقيقة، قالت.

- فقاعات دقيقة بشكلٍ لا يصدق!

تعارضت نبرته الخشنة مع الدقّة التي أعلنت عنها.

شربت جرعة. ينقصها الخيال كي تذكّي حديثاً حول النبيذ.

- أعترف أنه مدهش.

- تجدين ذلك. . .

- أجل، إنه لذيذ. أنت محقّ.

- آه. . .

- تعرفه منذ زمن بعيد؟

- اكتشفته حديثاً.

صمتا.

لا يجب أن ندَع الصمت يعمّ. يجب أن تتابع.

- اكتشاف جميل، قالت.

- أجل، اكتشاف جيد. . .

- بالتأكيد.

- يحتاج إلى سنوات من العمل، قال لها، عشرات السنوات كي ينجح المرء في صناعة نبيذ مثل هذا!

- أجل، وذكاء كبير أيضاً، أتصوّر.

لا يجب أن يكون المرء بسيط الروح.

- بالتأكيد.

أخذت أليس نفسها وانطلقت.

- بسيط الروح... تساءلت دوماً لماذا كان لاو تسو يقول «قلبي هو قلب رجل بسيط الروح». غريب هذا، لا؟

انتظرت الجواب، متوترة. طويلاً.

- في نظري، هو لم يكُن يشرب شاياً فقط.

قمعت أليس رغبتها في أن تهزّ دوفيرني مثل شجرة برقوق.

- ربما كحول الأرز؟ قالت وهي تُرغم نفسها على الضحك.

- إنه مقرف...

قهقهت شكلياً، ثم صبَرت لحظة.

- ماذا كان يريد أن يقول بحسب رأيك؟

- إنه كان بطيبة عبيط القرية، بلا شك. غبي ولطيف...

أحسَّت أليس بالسخط يتصاعد. فشلت استراتيجيتها، هي تضيِّع وقتها مع هذا الشخص. أرغَمَت نفسها على التنفس لتُحافظ على هدوئها.

عبثاً.

- متى ستتوقف عن اعتباري مغفلة؟

- عندما ستتوقفين عن اعتباري مغفلاً.

حدّقا في بعضهما لأوّل مرة، بحدّة.

- إذاً ما دمنا بين مغفلين، يمكن أن نشرب الأنخاب.

بدا كأنه أعجِب بكلامها، ابتسم لأول مرة، وقرعا كأسيهما حتى اعتقدت أنهما سيتهشّمان.

أخذت جرعة. صحيح أنه لذيذ، هذا التريبوز.

- والآن ستُجيب عن أسئلتي. الأمر مهم بالنسبة لي.

أخذ نفساً عميقاً، تنهيدة مجدّة.

- ماذا تريدين أن تعرفي بالضبط؟

كانت نبرة صوته قد تغيّرت. بعد أن كانت عدائية أصبحت جوفاء.

- توجد بعض المصطلحات والمفاهيم التي تتجاوزني وأرغب في فهمها. مثل مفهوم «بسيط الروح».

شرب جرعة كبيرة، تأمّل لون الشراب الكهرماني، ثم أخذ يتحدّث ببطء. كانت تعبيراته محدّدة، لكن الكلام كان يُتعِبه، وكان يتوقف كثيراً بين الجُمَل.

- في فم لاو تسو، الروح تعني العقل. تتفق الطاوية هنا مع الهندوسية والبوذية بالمناداة بالتحرّر من سلطة العقل. العقل هو اشتغال الفكر المتواصل والذي يهيمن على الروح والجسد، على حساب الحدس، والغريزة، وتحقيق الكينونة.

- تحقيق الكينونة؟

عدّة ثوانٍ من الصمت.

- عندما تخضعين للعقل، يكون الأمر كما لو أنك لم تعودي تسكنين جسدك، لم تعودي تسمعين قلبك، لا تحسين بوجودك، تفسرين الواقع، في الغالب بتشويهه، تنسبين للآخرين نوايا ليست في

أذهانهم، تقومين بإسقاط مخاوفك، ومشاكلك، وشكوكك، وتوقعاتك. أنتِ تفكرين الأحداث بدل أن تعيشيها. الروحانيات الشرقية تدعو إلى التحرّر من سلطة العقل، من أجل الإحساس بالأشياء كما هي، في اللحظة الحاضرة، في حين أنّ العقل لا يعرف سوى الماضي والمستقبل.

سوى الماضي والمستقبل...

- أنا لا أفهم العلاقة التي تقيمها بين العقل والوقت.

نظر إليها لحظة ثم أخذ نفساً. التحدث في هذه المواضيع يثقل عليه.

- عندما يحصل حادث ما، يفسره عقلك كما يفسر الكلام الذي ينطق به أحد ما، وفقاً لمعارفك وتجربتك الشخصية، ومعتقداتك وقناعاتك عن نفسك، والآخرين، والعالم. كلّ هذه الأشياء تأتي من الماضي. وعندما يجعلك الحاضر تشعرين بخوف، فهذا يعني أنك تُسقطين ذهنياً تفسيراتك التابعة للماضي في مستقبل مُتَخَيّل. بهذا الشكل يفصلك العقل عن الحاضر.

- وكان لاو تسو يقارن نفسه ببسيط روح لأنه تحرّر من عقله، هذا هو؟

صمت.

- على الأرجح.

طوبى للمساكين بالروح، كان المسيح يقول. كان يقصد الشيء نفسه، من غير شك. وليس روح الفقر، كما قال لها الكاهن الباريسي.

أخذ دوفيرني زجاجة الكريمون وصبّ لكليهما.

تركَتْه يفعل.

- هل... هل توجد علاقة، في مكان ما، بين العقل و... الأنا؟

- الأنا هي أساساً ثمرة الخوف: الخوف من ألّا يكون المرء كما ينبغي، ألا تكون له قيمة، بالأخصّ عند الآخرين. في حين أنّ المخاوف التي لا أساس لها هي عادة ثمرة عملية عقلية. وهي أيضاً أفكارنا التي تدفعنا إلى أن نعتبر أنفسنا ما لسناه في الواقع، العقل يدفع الأنا إلى تولي أدوار. العقل يغذّي الأنا.

شرب جرعة قبل أن يضيف:

- تدعو البوذية إلى الانفصال عن هذه الأدوار السخيفة.

كان قد نطق «سخيفة» بنبرة غاضبة.

- الانفصال البوذي... سمعتُ عنه من قبل لكنه طرح لي دوماً مشكلاً، هو يعطي الانطباع أنّ على المرء أن يعيش في حالة منفصلة، دون أن يشعر بشيء بخصوص ما يحدث. لكن أنا، لا أشعر أبداً برغبة في الانفصال عن زوجي وابني الصغير، ولا عن الذين أحبّهم... لا أشعر برغبة البتة في أن أكون محايدة تجاههم، أو أن أفقد الإحساس بما يخصّهم. بالتأكيد، منفصلة عنهم، سأعاني بشكلٍ أقل لو حدث لهم مكروه. لكن لو كان كلّ شيء على ما يرام، أنا لا أرى كيف يمكن أن أكون أكثر سعادة، على العكس!

الصمت من جديد.

- لا يجب أن نأخذ كلّ شيء حرفياً، قال بصوته الجهوري والمتشدّق، في الانفصال البوذي، يجب علينا أن نفهم قبل كلّ شيء أننا نكسَب بالتحرّر من ارتباطات الأنا. الأنا ترتبط بكلّ ما يضفي عليك قيمة ولكنها ليست أنت، الأدوار التي تلعبينها، الأشياء الجميلة التي تملكينها، سماتك الأكثر إغراء... وبالتأكيد...

توقف لحظة، وخفض صوته كي يتمتم في لحيته:

- ونجاحاتك السخيفة.

لا يجب أن نأخذ كلّ شيء حرفياً...

تذكّرت أليس ردّ المسيح على ذلك الثري الشاب الذي جاء يطلب نصيحته. كان المسيح قد أجابه بقول «بِعْ كلَّ ما تملكُه، وتصَّدق بثمنه على الفقراء، فيكون لك كنزٌ في السماء». كانت أليس قد وجدت تلك النصيحة غريبة، كيف سيحمل التجرّد من جميع الممتلكات شيئاً لذلك الرجل؟ ألا يشتغل معظم الناس طيلة حياة بأكملها من أجل النجاح في تملّك بيت وشيئين أو ثلاثة أشياء أخرى؟ في الواقع، ربما كانت نصيحة المسيح تطابق الانفصال البوذي: ربما كان قد أحسّ أن ذلك الرجل متمسك بأملاكه، وأنّ ذلك الارتباط هو الذي كان سبب المشكل. رسالة المسيح إذاً ربما لم تكُن تعني أنه من الضروري أن يكون المرء معوزاً كي يكون سعيداً، لكن ألا يكون المرء متمسكاً بممتلكاته المادية.

- قبل أيام، استأنف دوفيرني، رأيت رجلاً ينطلق مع إشارة الضوء الأخضر بسيارته بي إم دبليو بينما كان السائق الآخر الذي جاء من اليمين قد خالفَ الضوء الأحمر بلا شك. لم تكُن الصدمة عنيفة، ضرب جناح سيارة الـ بي إم دبليو فقط. توقفا، خرج الرجل، كان في الأربعينيات، وعندما رأى سيارته مضروبة، أخذ يبكي. لا جرحى، ولا أقل خدش، صفيحة محتكة فقط، وأخذ الرجل ينتحب مثل طفل. هذا حقيقي. اقتربت، وسألته:

- هل تحسّ بألم ما؟

- لا.

- ألست مُؤمّناً؟

- بلى.

- ستتعرض لعقوبة؟

- لا.

كان يتحدّث وذقنه يرتجف.

حسناً، في الواقع، الأنا خاصته هي التي كانت تنتحب، لأنّ سيارته كانت تشكل امتداداً لنفسه، كانت تساهم في قيمته الشخصية، وهو لا بدّ يعيش من خلالها. في النهاية، جزء منه هو الذي تكسَّر وكان يبكي.

- الارتباط بالأشياء المادية يجرّني إلى سؤال آخر كنت أريد أن...

- هل سيستمر الأمر؟

- سننتهي قريباً!

- أحسن.

- أريد أن أعرف شعورك نحو الخطيئة، واقع الاستسلام للإغراءات...

قالت ذلك بينما كان يصبّ لنفسه كأس نبيذ.

صوَّب نحوها نظرة سوداء، والزجاجة لا تزال في يده.

- هل تسخرين مني؟

- أبداً! يتحدث لاو تسو في عدة مناسبات عن الرغبة، وكنت أتساءل عمّا إن كنا نستطيع أن نقوم بمقارنة موازية مع مفهوم الخطيئة في المسيحية.

واصلَ التحديق فيها بنظرة حذرة لبضع لحظات، ثم أخذ كأسه بهدوء ورفعه ببطء، مُظهِراً إعجابه بلون النبيذ. استنشقه من جديد.

- الرغبة في الروحانيات الشرقية تحيل إلى الأنا، الأنا هي التي ترغب في شيء ما، زيادة ما، المزيد من المال أو لا أعرف ماذا أيضاً. لأنه بموضوع الرغبة، تطمح الأنا دوماً لأن تتقوى وتعزِّز مكانها. عبر ما نرغب به، نحن نسعى من دون وعي إلى إنماء هُويتنا أو بالأحرى شعورنا بالهوية. يجب القول إننا نميل إلى ألّا نكون مشوّشين حول ما نحن بالفعل. نرغب في أشياء في محاولة للوجود أكثر من خلالها. عندما ترغبين في ثوب، أو سيارة، أو أيّ شيء آخر، أنت تعتقدين دون وعي أنّ ذلك الثوب، أو تلك السيارة ستضيف شيئاً لما أنت عليه، ستجعلك متميّزة ومهمة، ستضفي عليك قيمة. باختصار، ستدعم هويتك. إنه توهم، بطبيعة الحال، والروحانيات الشرقية مثل الطاوية والبوذية والهندوسية تدعو إلى التحرّر من الرغبات.

- لماذا، أخيراً؟ أين يكمن المشكل؟

- ذلك يتحوّل بسرعة إلى عبودية. بما أنّ الرغبة قائمة على وهم، تعزيز هويتك، لا يقدّم موضوع الرغبة ما نبحث عنه، وبالتالي فهو سعي لا ينتهي، ترغبين من جديد في أشياء أخرى، لا تقدّم لك أبداً ما تبحثين عنه. لذا كان لاو تسو يقول: **لا مصيبة أعظم من الرغبة في التملك**. أو أيضاً: **الرجل القديس لا رغبة له سوى أن يكون بدون رغبة**.

يتحول بسرعة إلى عبودية.. تذكّرت أليس مقولة المسيح التي جعلتها تبتسم: **مَن ارتكب خطيئة أصبح عبداً للخطيئة**.

- وهل هناك صلة بالخطيئة في المسيحية بنظركَ؟

تنهّد.

- هذه الأساطير لا دخل لها، إذاً من الصعب أن نقارن.

- الأساطير؟

- آه... كنت أريد أن أقول ديانات. زلّة كاشفة، اقرئي كامبل، عالم الميثولوجيا الأميركي، وستفهمين أنه مع التوراة، نحن قريبون جداً من علم أساطير...

سجّلت أليس الاسم.

- وإذا حاولنا المقارنة مع ذلك؟

- يعتبر المسيحيون الخطيئة جريمة ضد الله، عصيان للقانون الإلهي، الذي يمكن أن يقود إلى النار بعد الموت. هذا هراء. كان المسيح يتحدث الآرامية، وبعد سنوات جاء الحواريون بكلامه مكتوباً في الأناجيل. غير أنهم كتبوها باليونانية القديمة، إذا تمَّت ترجمة كلام المسيح من الآرامية إلى اليونانية. ثم بعد ذلك تمّت ترجمة اليونانية القديمة إلى لغاتنا الحديثة. اليوم، يعتقد العديد من المتخصصين في اللغات القديمة أن الكلمة التي استعملها المسيح وترجمت بـ«خطيئة» لا تذكر جريمة تجاه الله، لكن خطأ، سلوك غير لائق، هذا لا علاقة له. في النهاية، المشكلة الوحيدة مع الخطيئة هي أنها تحافظ على وعينا في وضع رديء يمنعنا من الارتقاء.

- ما يعني؟

- كلّما انغمسنا في الملذات الحسّية، كلما كنا أقلّ ميلاً نحو الصحوة الروحية.

نحن لا نضرّ أحداً، الله لا يهمه ذلك، لكننا نجرّ أنفسنا نحو الأسفل.

تأمَّلَت أليس تلك الفكرة بضع لحظات، بينما كان دوفيرني يُنهي كأسه، دفعة واحدة.

- وفي هذه الحالة، ما تسمّيه المسيحية اجتناب الخطيئة أو

الإغراء ربما كان يقترب من التحرّر من الرغبات في الروحانيات الشرقية؟ يمكن أن نقول هذا، لكن المسيحيين لا يعيشونه بهذا الشكل.

قالت أليس في نفسها إنه بين المَعيش الحالي والنية في أصل الخطاب الأصلي، يمكن أن يوجد تفاوت مهم.

- والسماء؟ في **تاو تي تشينغ**، يستعمل لاو تسو غالباً هذه الكلمة. ماذا تعني بالضبط في عقله؟

- في الروحانيات الشرقية، السماء تعني عالم الحقائق غير المحسوسة. الواقع الآخر الذي نصل إليه بتطورنا، بصحوتنا، كما يقول الهنود. مصطلح «سماء» سيئ اختياره لأنه يعني في لغتنا موقعاً جغرافياً، عندما نقول سماء، يفكّر الجميع في السماء الزرقاء، في الفضاء. استعمل الإنجليز مصطلَحين مختلفين، من أجل السماء الزرقاء، سكاي (Sky)، وبالنسبة إلى عالم الحقائق غير المحسوسة، هيفن (Heaven). بالنسبة لهم، لا يوجد لَبس، بينما عندنا، يخلق المصطلح المشترك ارتباكاً.

- لكن حين يقول المسيح للرجل الشاب الذي جاء لاستشارته إنه لو تبعَ نصيحته سيمتلك كنزاً في السماء، أليس بالضرورة تعبيراً مجازياً عن ما بعد الحياة، عن الجنة التي سنذهب إليها بعد الموت؟ و«ملكوت السموات» الذي وعَد به المسيح، والذي يرغب كلّ المسيحيين في دخوله، ربما ليس بعد الموت؟ ربما يكون فقط ذلك الواقع الآخر الذي يتحدّث عنه لاو تسو؟

- توقفي عن المقارنة بين المسيحية والطاوية، هما لا تقبلان المقارنة!

بدأ دوفيرني يفقد أعصابه حقاً.

- فلنغيّر الموضوع. أخبرني في ماذا كان يفكر لاو تسو وهو يقول مَن مات دون أن يتوقف على أن يكون حقق الخلود.

تنهد دوفيرني بصوت مسموع.

- لقد أخبرتني أننا اقتربنا من أن ننتهي...

- تقريباً.

- ماذا يعني هذا؟

- إنه آخر سؤال.

- حسناً، قال مدمدماً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أخذ نفسه.

- في أغلب الروحانيات الشرقية، يتمثّل العمل في القضاء على الشخص القديم في داخلنا كي يُخلق من جديد.

- لماذا بحق الله؟

- مثلاً، في كلّ الفكر الفيدي، بدءاً من...

- الفكر ماذا؟

- الفكر الفيدي. الفيدات مجموعة نصوص هندية مقدّسة انبثقت منها الهندوسية القديمة.

كنت أقول إنه في كلّ الفكر الفيدي، بدءاً من الموت تُعتبر الحياة. الصحوة ليست فقط تطوراً أو تقدّماً، هي انقلاب حقيقي، مثل تغيّر في الطبيعة في داخل المرء. المرء هنا، في هذه الحياة الواقعية، عبدٌ لرغباته، مع الأنا خاصته وكلّ المشاكل التي تخلقها، ويتمكّن من الانقلاب إلى ذلك الواقع الآخر من الحياة، المتحرّر من الأنا، المتحرّر من الرغبات، في تمام للكيان. الأمر إذاً كما لو كان المرء يموت في مستوى ما كي يحيا في مستوى آخر.

- لكن هذا رائع! أخيراً أنا أفهم كلام المسيح عندما كان يقول

كُلُّ مَنْ أراد أنْ يُخلّص حياته سيخسرها؛ ومن خَسِر حياته من أجلي سَيُخلِّصُها!

قام دوفرني بحركة تدلّ على نفاد صبره.

- توقّفي عن المقارنة بين الروحانيات المسيحية والشرقية! لا علاقة بينهما!

- لكن، كيف لا علاقة؟

- لأنّ أغلب الروحانيات الشرقية لاثنائية في حين أنّ المسيحية ثنائية.

- هنا، كأنك تتحدث الصينية. يجب أن توضح أكثر.

- جاء متأخراً جداً، لقد طرحتِ السؤال الأخير.

- ليس سؤالاً، هذا طلب.

- الأمر سيان.

- إذاً... فلنقل... إنه أمر.

- أنتِ مجنونة.

- يعجبك هذا.

تنهّد وهو يهزّ رأسه، لكنّها خمنت أنه ابتسمَ بشكل خفيف.

- عندما ننظر إلى العالم المحيط بنا، نرى أشياء متنوعة.

- أكيد.

- خلف هذا التنوع الظاهر، توجد وحدة أساسية، بحسب الروحانيات الشرقية. هذه الوحدة تظهر لنا تحت أشكال ظاهرة متنوعة. لكن يعود إلينا، لتحقيق هذه الطبيعة الحقيقية، أن نرى وأن نحسّ بهذه الوحدة المخفية، وأن نفهم أنّ الإنسان يُكوّن وحدة مع كلّ شيء.

- كلّ شيء؟ ماذا تعني بكل شيء؟

- كلّ الكائنات الحية التي تسكن الكون.

- طيب... كلّ شيء ليس واضحاً بالنسبة لي. أنا، أنا، وأنت، أنت، نحن مختلفان، لا؟

- نحن مختلفان شكلاً، على مستوى معيّن من الواقع. ومع ذلك، ثمة شيء يربطنا، يوحّدنا، حتى ولو صَعُبَ عليّ اعتقاد أني مرتبط بالشابة الوقحة التي تزعجني.

- وأنا بالعجوز الذي يشعُر بالمرارة، والذي يريد أن يتخلّص من مرارته لوحده بدلَ أن يقتسم ما يملكه من أشياء ثمينة.

بدلَ أن يجيب، صبَّ لنفسه نبيذ الكريمون دون أن يصبّ لأليس، ثم بقي صامتاً لحظة طويلة. اعتقَدَت أليس أنه لن يضيف شيئاً، وكانت تتطلع إلى الاستئذان عندما استأنف الحديث بنبرة أكثر هدوءاً:

- أتربن، إنّ ما يجعلنا متعارضين في هذه اللحظة، يجعل الأنا الخاصة بكلينا متعارضتين، يعني هذا الإحساس بالهُوية عند كلينا، إحساسُ كلّ واحد منا أنه شخص مستقلّ. وما لا نعرفه، هو أنّ هذا الإحساس بالوجود بشكلٍ مستقل عن الآخرين هو نوع من الوهم حول مستوى من الوعي. عندما ننجح في تغيير مستوى الوعي، يمكن أن نصل إلى واقع آخر، ونحسّ بالأشياء بشكل مختلف...

توقّف بضع لحظات، واستمتع بتذوّق جرعة النبيذ بهدوء قبل أن يستأنف.مكتبة .. سُر مَن قرأ

- كثيراً ما يستعمل البوذيون والهندوس تعبيراً مجازياً لتوضيح هذه الظاهرة، ظاهرة موجة المحيط. لو كان لها عقل، يمكن أن تعتبر الموجة نفسها فريدة ومستقلة، ومن ناحية سيكون ذلك صحيحاً. التقطي صورة لعرض المحيط، واختاري موجة. دقّقي

جيداً في ملايين الأمواج، لا توجد اثنتين مثلها، بالحجم نفسه والارتفاع نفسه والشكل نفسه بجميع التجاعيد التي يكونها الماء على السطح... هي قَطْعاً فريدة. ومع ذلك، هذه الموجة لا تتجزأ عن المحيط، هي تكون المحيط والمحيط يكونها. بطريقة ما، هي المحيط.

توقَّف. لم تُزِلْ أليس بصرها عنه.

استأنف الحديث بصوت حالم.

- إذا أنا كنت موجة، سيكون شيئاً لطيفاً ويرفع من قيمتي أن أشعر أنني موجة فريدة، أن أشعر أني أوجد بشكل مستقل عن كلّ شيء، سأكون فخوراً بأني موجة جميلة... ولو توقّفت عن التمسك بهويتي كموجة، لو تركتها تختفي، لو قبلت أن أدعها تموت، حينئذٍ سأبدأ أحسّ بالتدريج وببطء أني أنا المحيط. حينئذٍ سأصبح المحيط تماماً و... واااهووو... شيء قوي، أن يكون المرء المحيط...

صمتَ وبدَت كلماته ترنّ في الفضاء.

أخذَت أليس نفَسَها. بدأت تحسّ داخلياً أبعاد تلك الأفكار.

- إذا عدنا إلى الإنسان...

بقيَ صامتاً لحظة، ثم أخذَ نفساً طويلاً، وتحدّث بصوت بطيء وعميق.

- بالنسبة إلى الروحانيات اللاثنائية، الإنسان الذي يتخلى عن هويته... يحقِّق... أن يكون الله.

ظلّت اهتزازات صوته شبه معلقة في الهواء.

أحسَّت أليس رغم كونها ملحدة بالاضطراب لهذه الفكرة.

- اللاثنائية الشرقية، استأنف وهو يصوغ كلماته ببطء، هي

هُوية الإنسان والله. من خلال عمل صحوة يصبح الإنسان الله تماماً.

أدارَ حينئذٍ بصره نحوها.

- ستفهمين أن ذلك لا يتشابه مع المسيحية، التي تَعتبر هذه الأفكار تجديفية. هذه الديانة تقوم على الازدواج: الله بالنسبة إليها كائن قوي، إليه يتوجّه المؤمن، ويعبده، ويتوسله، ويطلب مغفرته... يعتقد المسيحي أنّ الورع سيحرِّره بعد الموت. البوذي أو الهندوسي أو الطاوي يعتقد أنّ المعرفة يمكن أن تحرِّره الآن، خلال حياته.

صبَّ دوفيرني نبيذ الكريمون لكليهما.

- يعتقد المسيحي بوجود الجنة والنار، كموقعين جغرافيين سيذهب إليهما يوماً. الهندوس يعرفون أنّ كلّ شيء يوجد بداخلنا، كلّ شيء: الجنة والنار والله. إنه الاكتشاف الكبير في الأوبانيشاد، ثمانية قرون قبل المسيح.

- الأوبانيشاد؟

- نصوص فلسفية هندية.

بدأت أليس تحسّ أنه وراء هيأته غير اللطيفة والعدوانية أحياناً، كان دوفيرني، في الواقع، شخصاً صالحاً. أدركَت أنها تحبّه بحق، في النهاية.

- ذكرتَ قبل قليل عملَ صحوة. في ماذا يتجلى؟

- في التحرّر من الأنا.

- نعود إلى هذه المسألة.

- بالضرورة! لأنّ حالة وعينا العادية لا تتيح لنا تحقيق طبيعتنا الإلهية، نحس ببعض الغموض حول من نكون، وهذا شيء مُقلِق.

كما سبق أن قلت، نحن نخاف من ألّا نكون كما ينبغي، ألّا تكون لنا قيمة. هنا نخلق هوية مزيّفة مطمئنة: الأنا. علاوة على أننا كلما طوّرنا هذه الهوية المزيفة، كلّما ابتعدنا من طبيعتها الحقيقية، طبيعتها الإلهية.

وكلما كنا تعساء: العيش في الأنا، هو العيش في الجحيم.

- بدأتُ أفهم.

- الأنا ترغب في أن يكون المرء فريداً، كي يحصل على حياة نظيفة ومستقلّة، وكي يحسّ المرء بأنه فريد، يجب أن يحسّ أنه مختلف. إذاً الأنا تفرّقنا عن الآخرين... وتبعدنا أكثر فأكثر عن طبيعتنا الحقيقية التي تسعى إلى الاتحاد والوحدة. إذا تطلّب الأمر، يمكن أن تدفع الأنا البعض منا إلى المعارضة والصراع والانقسام...

سعلَ واستأنف.

- انقسام. رؤية مزدوجة، لا ترغب الأنا في رؤية الوحدة، هي تريد الازدواجية. يحتاج بعض الأشخاص إلى الدخول في صراعات كي يحسّوا بوجودهم!

ابتسم واستأنف:

- كما ترين، الشيطان أيضاً يوجد في داخلنا. إنه نزعة داخلية وليس شخصية خارجية...

- الشيطان؟ لماذا تحدّثني عن الشيطان؟

- الشيطان، من اليونانية القديمة **ديابلوس**، هو ما يفرّق.

شرب جرعة قبل أن يستأنف بهدوء.

- لكن إذا افترقَت الموجة عن المحيط، ستختفي، ستموت نهائياً. هي لم تكن تَعرف أنّ المحيط، كان هي.

نظرَت أليس حولها. كان القبو المقبب رائعاً. كانت المصابيح الجدارية تُسقط ضوءاً أصفر على الحجارة وبراميل خشب البلوط العديدة، مُحدِثةً جواً جدّ خاص. كأنه معبد سرّي.

- يحتاج الناس إلى الاتصال بطبيعتهم الإلهية، قال دوفيرني. لكنهم لا يعرفون ذلك. حتى الملحدون يحتاجون إلى سموّ. لقد تساءلتِ من قبل لماذا تستمرّ قاعات السينما في الامتلاء؟ في حقبتنا، يمكن أن يُحمّل المرء جميع الأفلام التي يرغب بها مقابل بضعة يورو ويشاهدها وهو مستلقٍ على أريكته. إذاً لماذا يواصل الناس الذهاب إلى دور السينما، مع وجود رأس الشخص الجالس أمامهم والذي يخفي عنهم الشاشة، وركبتَي الشخص الجالس وراءهم اللتين تدخلان في ظهرهم، والفشار اللاصق عند الشخص المجاور والذي يسقط على سروالهم؟ لماذا؟

- سؤال جيد.

- لأن السينما معبد.

- هاه؟

- يقصدها الناس كي يحسّوا، جميعهم، وفي اللحظة نفسها، بالعواطف والمشاعر نفسها، وأن ينتقلوا رفقة بعضهم خلال ساعتين إلى عالم آخر.. لو نظرتِ إليها من مسافة ما ستجدين أنها تقريباً تجربة وحدة روحية.

بعد أن تأثّرت أليس بكلام دوفيرني، بدأت تشعر بأنها منجذبة نحو الرؤية الشرقية اللاثنائية...

- لقد تحدثت عدة مرات عن حالات الوعي، التي قد تسمح أو لا بالإحساس بالطبيعة الإلهية في داخلنا. ما الشيء الذي يمكن أن يساعدنا على الحصول على حالة جيدة من الوعي؟

- التأمّل، بحسب الروحانيات الشرقية. التأمل يتيح تركيز العقل بالاعتماد على تقنيات تختلف بحسب المدارس الروحية. مثلاً، بعضها يدعو إلى الاسترخاء مع التركيز على عملية التنفس، وأخرى على جزء من الجسم، وأخرى على فكرة أو جملة شعرية. ذلك كله يؤدي إلى استرخاء المرء، وتهدئة عقله الغربي، وشدّ انتباهه شيئاً فشيئاً، مع الممارسة، كي يفهم أنه ليس ما يتقمَّصه، وأن يحسّ في داخله بدفق من الوعي. يمكن أن يدلّنا التأمل على الحالة التي تتيح تجربة الحياة من دون الأنا للحظات. هذا هو الهدف، مثلاً من التأملات البوذية. كان بوذا أحياناً يُطلق عليه **أناتما فادين**، معلِّم اللاأنا. نجد أشكالاً أخرى من التأملات في جميع الروحانيات الشرقية.

- بضع لحظات من دون الأنا... وكيف يتخلص المرء منها نهائياً؟

- الممارسة، الممارسة، سنوات من الممارسة... قد يقول لك البعض طيلة الحياة.

قطّبت أليس وهي تفكر.

تذكرت أبناء الرعية في كلوني خلال القداس. أدركَت أنهم هم أيضاً كانوا يَصِلون إلى حالة متغيِّرة من الوعي.

- أجد أنّ التأمل قريب من الصلاة المسيحية.

- غير أنّ الصلاة موجّهة إلى...

- إله خارجي. أعرف.

- لا تفهمين بسرعة، لكنك تفهمين في النهاية.

ابتسمَت.

- وأنت: بكلّ معارفك في الموضوع، لماذا سمَحتَ للأنا خاصتك بأن تنغّص عليك حياتك؟

تشنّج.

- لماذا تقولين هذا؟

- الجميع يعرفون حكايتك... إذا كنتَ قد سمحتَ لنفسك بأن تفعل كلّ ما يحلو لك بعد أن أصبحتَ مشهوراً، ودمَّرت حياتك، فلأن النجاح قد أفقَدَكَ رشدك، لا؟ أليسَت الأنا؟ إذاً لماذا؟ كنت في موقع يسمح لك بأن تعرف نتيجة المجازفة...

أشاح ببصره المنزعج وظلَّ صامتاً لحظة طويلة.

- المعارف لا تغيِّر شيئاً كثيراً، قال على نحوٍ كئيب. يوجد فرق كبير بين المعرفة الفكرية والتحول الداخلي. أنا في هذه النقطة إنسانٌ غربيّ خالص، هنا، بمجرد أن نفهم شيئاً بطريقة فكرية، سواء كان ذلك في المجال النفسي أو الروحاني، نقتنع أن العمل قد انتهى...

- وأنت... لم تُمارس التأمل؟

نظر في عينيها مباشرة.

- هل أبدو كمَن يمكنه أن يجلس القرفصاء ساعتين في اليوم، يتأمل أمام ثلاثة أحجار متراكبة، قرب بركة نينوفر؟

19

كان المكتب المُقام في سماء برج مونتبارناس غارقاً في ضوء ساطع، ذلك الاثنين صباحاً.

حسناً، قالت أليس في نفسها. يعتقد الهندوس أنّ الله يوجد داخل الذات، والمسيحيون خارج الذات، وأنا في لا مكان، حتى ولو كانت الأنا خاصّتي ترغب أن يكون الهندوس على حق!

فجأة انتابها الشك.

ماذا كان ردّ المسيح بالتحديد حول هذه النقطة؟ تتذكّر أنه تلقى مثل هذا السؤال لكنها نسيَت ماذا كان جوابه. إذا كانت رؤية المسيح متّسقة مع رؤية الهندوس، حينئذٍ يتغير كل شيء...

سارعت إلى قانونها المدني، يحذوها الأمل، واستغرقت وقتاً كي تجد المقطع، رغم خبرتها. كانت قد قرأت الأناجيل على الأقل سبع أو ثماني مرات، وأصبحت على دراية بالنصوص.

وأخيراً وجدت ما تبحث عنه، الآية 21 من الإصحاح السابع عشر في إنجيل لوقا. كان المسيح يقول فيه رداً على سؤال مجموعة من الفريسيين: **مَلَكُوتُ اللّهِ فِي دَاخِلِكُمْ**.

أغلقَت أليس كتابها المقدَّس وهي تشعر بالإحباط.

لا بأس. في جميع الأحوال، هي لم تؤمن أبداً بوجود إله.

الشيء الأهم يظلّ ذلك الاكتشاف المثير، تتفق المسيحية والهندوسية والبوذية وأيضاً الطاوية في الدعوة إلى التحرُّر من الأنا. كانت تقترب من الاحتمال المثير الذي تراءى لها، احتمالُ وجود حقيقة كونية.

تركت نفسها تسترخي على كرسيها وتمدَّدت.

إمكانية وجود الإله الداخلي كانت الوحيدة التي من الممكن أن تشدّ انتباهها. كيف يمكن أن يصدق المرء، في الواقع، بوجود قوة خالقة خارجية عندما يكون قد تردّد على المدرسة، وحصل على تعليم؟ آدم وحواء، جنّة عدن، حكاية جميلة، لكن حسناً، الآن، نحن نعلم بحدوث الانفجار الكبير...

استدارَت نحو زميلها المنهمك على حاسوبه كالعادة.

- رشيد؟

أصدر جواباً على شكلٍ دمدمة، ونظرته مسمَّرة على الشاشة.

- في ملفاتك الخاصة بالمحاضرين، ألا يوجد عالم فيزياء، بالصدفة؟ أو عالم فيزياء فلكية؟

تنهّد.

انتظرت أليس لحظات حتى نقرَ على لوحة المفاتيح.

- جاك لابوري، دكتور في الفيزياء الفلكية، متخصّص في علم الفلك خارج المجرة، باحث في معهد الفيزياء الفلكية في باريس. هل يناسبك؟

- رائع! كم مرة حصلت له على محاضرات؟

- هيا... جعلناه يحاضر أربع مرات عند زبائننا.

- جيد، لن يرفض أن يساعدني ربع ساعة! هل يمكن أن تأخذ لي موعداً هاتفياً معه؟

- لستُ مُساعِدَتك...

- من فضلك...

- سأرى.

- أنتَ ملاك.

لم تعاوِد أليس التفكير في ذلك واستغرقت في ملفاتها إلى أن حلَّت ساعة الغذاء. ذلك اليوم، لم تقصد مطعم الشركة لتأخذ غداءها. كانت متأخرة في عملها فمنحت نفسها استراحة قصيرة لتأخذ شطيرة في مكتبها. شغلت المذياع على حاسوبها. برنامج ضحك وأغاني. ممتاز لتقوم باستراحة وتنعش أفكارها وهي تأكل بسرعة شطيرة جونبون بالزبدة.

الأمر متروك لك.

ابتسمت عند سماع صوت ريجيس لاسباليس، في المسرحية الهزلية **القطار إلى باو** مع فيليب شوفالييه.

لكن ذهن أليس عاد إلى موضوع التحرّر من الأنا. نظراً إلى ما يبدو لإجماع -ولو أنه متجاهل- عديد من الديانات حول هذه النقطة، كانت تحسّ بدافع متزايد كي تطبّقه على نفسها، وربما توصلت بتلك الطريقة إلى...

يوجد من حاول.

... تلك الحالة الرائعة التي عاشتها للحظات عند هرمس.

التحرّر من الأنا...

الأمر ليس صعباً بالنسبة لها. لم تكُن تحسّ أنها تتوفر على أنا قوية، عندما...

كان لديهم مشاكل.

... تقارن نفسها بكلّ الشخصيات المزهوّة بنفسها التي تراها عادة حولها، في إدارة شركتها، في قاعة الرياضة التي ترتادها أحياناً، وبطبيعة الحال في التلفزيون حيث يبدو أنّ الأنا المتضخمة هي الشرط كي تتمّ استضافة شخص ما في أحد البرامج. المَجد يعود طبعاً لعالم السياسة، الذي يحصد الكاريكاتير في هذا المجال.

آه، يوجد نجوم، هيه، هنا!

أرادت أن تبدأ في الحال، أن تستغلّ كلّ الفُرص التي تصادفها كي تتدرّب على التخلص من الرغبة في السيطرة وتسترخي.

- سلام أليس.

رفعت عينيها. وجدت لور من قسم الموارد البشرية. امرأة شابة جميلة، دوماً متكلّفة ومتعجرفة.

- سلام لور، بخير؟

تستفزني!

- آه... تستمعين لبرنامج ضحك وأغاني؟

قالت ذلك بنبرة متعالية.

أحسَّت أليس في الحال بالاحتقار الذي ظهر في الابتسامة، وأحسَّت بالخجل.

- لقد شغلت المذياع للتو، لا أعرف ماذا يكون...

- لا تبرّري نفسك، قالت لور بازدراء. لستِ مجبَرَة على الاستماع لإذاعة فرنسا الثقافية.

- أنا لا أبرّر نفسي، لكن...

أجل، تستفزني!

- سأضع هنا ملفاً من أجل رشيد. لو أخبرته عند عودته من الغداء.

ثم انصرفت.

ابتلعت أليس غضبها. غضب من هذه الزميلة التي عامَلَتها بتعالٍ. غضبٌ من نفسها لأنها فشلت بمجرد أن عقدت نيتها...

أخذت نفسها وحاولت أن تهدأ.

لماذا أحسَّت بالخجل؟ هي حرة في أن تستمع لإذاعة غير ثقافية؛ أين المشكل؟ ذلك لا يقول شيئاً عن مستواها وعن ذكائها! من حقّ أي أحد أن يسترخي، لا؟

وحتى لو ظهرت مغفَّلة أمام مفسِدَة البهجة تلك، ماذا كان ليحدث؟ ذلك لم يكن ليغير شيئاً في ما كانت عليه فعلاً، إذاً لماذا أحسَّت بالضيق وصدرت عنها ردّة فعلٍ رغم قرارها؟

ليس حتماً!

أعادت شريط حديثهما، كما كان ينصحها توبي كولينز غالباً، وانتهى بها الأمر إلى أن تفهم، لم يكن كلام لور، الذي كان محايداً في النهاية، هو الذي أحدَث ردّة فعل الأنا عند أليس، لكن هيئة زميلتها المحتقرة، التي أحسَّتها في ابتسامتها ونبرة صوتها، وذقنها المرتفع قليلاً... وما الذي يدفع لور إلى تبني هذه الهيئة المتعالية؟ الأنا، بطبيعة الحال... إذاً الأنا الخاصة بلور هي التي حرَّكت الأنا خاصتها!

يستفزني!

في جميع الأحوال، لقد وجدتك، وهذا ليس أفضل شيء فعلته.

كان ذلك بالتأكيد، أصبحت مقتنعة بذلك، في الطبيعي لم تكن

الأنا خاصتها مضخّمة، ولم تكن تعتبر نفسها شخصاً مهماً، ولا تتقمص أدوارها. لكن الأنا الخاصة بالآخرين كانت تحفِّز الأنا خاصتها في أقل من ربع ثانية، عندما يحاولون الظهور على حسابها، وأن يمرّوا فوقها كي يرفعوا قيمتهم.

بعد ما قيل، هو جد سريع.

فهمت أليس إذاً أنها ليست حرة. إذا كانت هيئة الآخرين قادرة على أن تجرّها نحو الأسفل، هي التي تسعى إلى الارتقاء روحانياً، إذاً هي لم تكن حرة. كانت تريد أن تتحرَّر من الأنا، وأنا الآخرين تأخذها إلى الأنا خاصّتها.

أجل، سيدي، هو يصلُ ويتوقف. لكنه ينطلق في الحال.

تذكرت حادثة من مساء الأمس، وهي عائدة من كلوني، في موقف السيارات تحت الأرض في عمارتها. كانت قد التقَت الجارة التي تسكن تحتها، متكلِّفة مساء يوم أحد كما تكون أيام العمل. كانت أليس قد ركنت سيارة الرينو سينيك المغبرة وتجرّ أقدامها نحو المصعد عندما خرجت الأخرى من سيارتها الميني الجديدة تماماً بكعبها العالي. كانت أليس قد بذلت جهداً، مكلفاً، كي تكون ودودة وحتى لطيفة تجاهها، غير أنّ الأخرى كانت قد ردَّت عليها بازدراء، وابتسامة متعالية على شفتيها تعني بكل وضوح «نحن لسنا من العالم نفسه». انتابت أليس رغبة ملحَّة في أن تخبرها أنّ شقتها تحتوي على غرفة زائدة يمكن أن تشتري بكلّ يُسر سيارتَي ميني أو ثلاث وكلّ مجموعة الأحذية ذات الكعب العالي من عند لوبوتان.

آه، لكن لا شيء يوقفها!

ومع ذلك، هي كانت تعرف منذ زمن بعيد بأنّ قيمتها لم تكن لها علاقة مع ممتلكاتها، وأنها الأنا هي التي تصرخ فقط. لكن الأمر

كان أقوى منها، كانت الأنا خاصتها شبيهة بشيطان محبوس في قمقم، قمقم تفتحه أنا الآخرين كما تشاء، وتجعلها تعاني. الأنا كانت في النهاية أكبر مصدر للمعاناة بالنسبة إليها.

لم أذهب. . .

أخذت أليس نفساً عميقاً.

لا بدّ من وجود وسيلة، دون أن تذهب إلى حدود ممارسة ساعتين من التأمل كلّ يوم. . .

بعد كل شيء، هي تحسّ أنها قد بدأت تتطور منذ بضع سنين، دون أن تكون قد اشتغلت بطريقة خاصة على الأنا، الأنا التي لم تكُن حتى تعلم بوجودها، فقط في تطوير تقدير الذات، الثقة بالذات، بالآخرين، الثقة في الحياة. صحيح، هي تتذكر أنها كانت جد تفاعلية في الماضي للدغات الآخرين. كان الأمر كما لو أنها وهي تتعلّم أن تحب نفسها، فقدَت من الطبيعي قليلاً من الأنا. ذلك يبدو متناقضاً، بطبيعة الحال. . . وإذا كان تضخّم الأنا وعدم احترام الذات وجهان لعملة واحدة؟ في النهاية، ربما كان الأشخاص الذين يتقمصون دور الأنا، الأشخاص المزهوون بأنفسهم، المتغطرسون جداً، هم في الواقع الذين عانوا من جراح في ذاتهم؟

أصبحت أليس تحسّ ذلك، أن تواصل تطوير ثقتها بنفسها وفي الحياة، وتطمئن على قيمتها الحقيقية سيساعدها في الإقلال من التصدّي للهجمات، والإقلال من إظهار الأنا خاصتها. وإذا كانت عجرفة الآخرين بسبب جراح مخفيّة، ربما كانت الشفقة عليهم مناسبة أكثر من ردّ الفعل؟

شكراً لك يا إلهي، لقد شملته الرحمة.

لو أستطيع أن أهدئ الأنا فقط، وأن أتخلّص منها، وأن أتحرر

منها، سأكون سعيدة، فخورة لأني حقّقت ذلك... فخورة؟ فخورة؟ لكن مَن سيكون فخوراً؟؟؟ الأنا...؟ النجدة! الأنا تريد أن تستولي على هُويتي الجديدة كإنسانة تخطو نحو الروحانية!!! مثل شخصية رسم فوتش!

لكن... مَن هناك... كيف يمكن أن تسير الأمور؟

أنت من يرى!

20

الاثنين مساء.

- أليس؟ أنتِ لا تبدين بخير...

- بلى، بلى، كلّ شيء على ما يرام. فقط أشعر ببعض التعب.

في الحقيقة، الأحاديث القانونية حول مائدة العشاء تلك عند زميل لبول، هو نفسه متزوّج بمحامية، كان يُشعرها بالملل وكانت تحتمي في أفكارها. ثم أيّ فكرة لقبول دعوة مساء الاثنين! الطريقة المثلى لتظلّ متعبة طيلة الأسبوع.

شربت جرعة شمبانيا وأخذت بسكويت على أحد الأطباق.

في أحد أركان الصالون كان أحد أطفال الأسرة يشاهد التلفاز، ساقطاً على مقعد أكبر منه. إعلان لعطرٍ رجالي يَعِدُ بتحويلك إلى رجل سوبرمان لا يقاوم. ابتسمَت أليس.

كانت الأنا عتلة يسهُل استعمالها. كان أصحاب الإعلان يتحركون على أرضية مخملية. لا شيء أسهل لبيع أحد المنتجات من أن يشجّعونَكَ على تكوين صورة إيجابية عن نفسك؟ مجرد ذِكر أنّ هذا المنتج أو ذاك سيدعم الهُوية المزيفة التي نعتقد أنها نحن، وأنه

سيرفع من قيمتنا في أعين الآخرين وفي أعيننا، ويصبح هذا المنتج لا يقاوم. يتسلّل فيروس الرغبة إلى عقولنا ولن يخرج منها، إلى أن نستسلم. وهكذا يصبح المال، خادم هذه الرغبات المطعمة، تدريجياً هو السيد، هو الله...

كلّ الناس يعانون من الأنا، الأنا خاصّتهم والخاصة بالآخرين. واليوم، ليس فقط أن لا شيء يدعونا إلى التحرّر منها، لكن على العكس، المجتمع بأكمله يدفع إلى تضخم الأنا. لأن ذلك في مصلحة نموذجنا الاقتصادي.

على شاشة التلفاز، كانت الوصلة الإعلانية قد انتهت وكانت القناة تعرض حواراً مع سياسي. في الماضي، كانت أليس شغوفة بالنقاشات السياسية، حيث يدافع كلّ واحد عن رؤيته للمجتمع. اليوم، كلّ واحد يدافع عن وظيفته، انتخابه، مصلحته الشخصية. بالتأكيد لا يمكن أن يكون الجميع جوريس أو ديغول، لكن طيب.

التقطت أليس بعض أجزاء الحوار. كان المذيع نفسه يصبّ اهتمامه على اللعبة السياسية أقلّ ممّا يفعل بالنسبة إلى القضايا العميقة المتعلّقة بإيجاد حلول لمشاكل المجتمع. كانت أغلب أسئلته تهمّ استراتيجية الوظيفة، أو الطريقة التي سينجح بها الرجل أو لا في الوصول إلى السلطة.

بالتفكير في ذلك، أدركت أليس أنّ الانقسام يمين يسار نفسه كانت تحرّكه وتُغذّيه الأنا، الأنا التي تحتاج إلى التفرقة وخلق العشائر التي تتصارع، كي تحسّ أنها وسط عشيرة وبالأخص ضدّ أخرى. علاوة على أنّ سياسيي جميع الجوانب يعرفون ذلك جيداً. لجعل صفوفهم تلتحم ومن أجل دفع المنتخِبين إلى الصناديق، يكفي أن يُخرِجوا لهم فزّاعة المعسكر الآخر، استنفار كاذب، فيأتي كلّ

واحد ليصطفّ بلُطف في معسكره دون أن يحتاج إلى تفكير. الانقسام يمين يسار مخدِّرٌ ديمقراطيّ قوي.

كانت نظرة الطفل قد التهمتها الشاشة، في حين كان يبدو أنه لا يفهم شيئاً كثيراً.

في ركن آخر من الصالون، كان مراهق الأسرة يُظهِر حماسةُ في لعب الهوكي الهوائي، أمام شقيقه الأكبر. لا بدّ أنه تدرّب كثيراً، لأنه كان يُصدر ردود فعلٍ مدهشة.

قضمت أليس البسكويت وهي تراقبهما.

لم تكُن الخطوات الروحانية من اختصاصها، وكانت تحسّ بالعجز، الشعور الذي تنبذه. تجربتها الطويلة في التنمية الذاتية علّمها ذلك، في جميع الحالات، يجب أن تحافظ على الثقة. حالة الثقة تُتيح للمرء أن يصلَ إلى موارده، التي هي ضرورية ليتمكّن من إيجاد حلول للصعوبات. اليأس قاتل.

كان المراهق يحرِّك مَضربه الدائري بخفّة على الوسادة الهوائية كي يضرب الطابة نحو مرمى الخصم ويواجه ضربات شقيقه. كانت الطابة تتحرّك بسرعة مجنونة، كان الهواء النابض يبدِّد كلّ احتكاك، كلّ مقاومة...

كلّ مقاومة...

ابتسمت أليس. سيكون جيداً لو استطاع المرء أن يبعث هواء نابضاً في السحايا كي يبدِّد كلّ مقاومة لدى الأنا!

تذكرت فجأة مقاربة توبي كولينز، خلال العلاج، من أجل إدارة مقاومة التغيير. كان توبي يقول دوماً «من العبث أن نقاوم، من الأفضل أن نستعمل المَكر». والحقيقة هي أنه صاغَ عدداً من

التقنيات، أحياناً مضحكة الاستخدام، تتيح الالتفاف على المقاومات.

شربت أليس جرعة شمبانيا.

وماذا لو نقلت تقنيات تنمية الشخصية هاته؟ علم النفس الحديث في خدمة الروحانية... لماذا لم تفكّر في ذلك من قبل؟

إذا كانت تنمية الشخصية ينقصها العمق الروحاني أحياناً، فالروحانية تفتقر بشكل كبير للأدوات النفسية حتى تتيح للناس الاستفادة منها في حياتهم.

أحسَّت بنفسها مأخوذة بتلك الرؤيا، وبرزَت في ذهنها بعض الأفكار الأولى التي يجب تطبيقها.

متحمِّسة، أمسكت زجاجة الشمبانيا وسكبَت لنفسها.

- يبدو أنكِ تشعرين بتحسّن! قالت زوجة زميل بول.

ابتسمَت أليس وأقرَّتها.

- ليس مضحكاً، أنتَ تفوز طوال الوقت، قال الشقيق الأكبر وهو ينسحب.

جلس مترهلاً على مقعد قرب الشقيق الأصغر أمام التلفاز.

- خفضا الصوت قليلاً، طلبت والدتهما.

- هل ترغبين في القيام بجولة، سيدتي؟

- جولة؟ قالت أليس وهي تضحك. لم أجرِّب هذا النوع أبداً!

- إنه سهل، كما في كرة القدم.

- لم ألعب كرة القدم في حياتي.

- آه نعم؟ ليس مشكلاً...

تردّدت أليس لحظة ثم نهضت. أمسكَت المضرب الدائري الذي

تركَه الشقيق الأكبر وأخذَت مكانها قبالة المراهق. كان بلا شك ممتعاً أكثر من النقاشات القانونية.

بدأ بإعطاء نبضٍ خفيف للطابة ناحية أليس، أعادتها من دون مشقّة بضربة من المضرب الدائري الذي جعلته ينزلق على المائدة. عندما تأكّد أنها تتدبر أمرها، سرّع تدريجياً من الوتيرة.

كلّ شيء كان مسألة ردّ فعل، وتركيز لتعبئة كلّ قدراتها من أجل أن تردّ في لمح البصر. ومع ذلك، لم تكُن أليس تركّز. إطلاقاً. كانت مسترخية تماماً. وضعها كراشدة خارج التنافس كان يحرِّرها من كلّ توقّع، من كلّ نتيجة لتُدافع عنها، من كلّ سمعة يجب أن تحافظ عليها. لم يكن هناك أيّ شيء تراهن عليه. كانت إذاً حرة تماماً وهادئة، وتردّ على كلّ إرسال دون تفكير، دون أن تطرح أسئلة تكتيكية، فقط بالرغبة في أن تفعل أفضل. كانت ذراعها ويدها تتصرفان غريزياً، وكانت أليس تشعر تقريباً أنها تتركهما يتصرفان دون أن تحاول أن تراقب بالإرادة.

سجَّلت هدفاً، الشيء الذي تركَها لامبالية، واصَلَت اللعب من دون أي فكرة في رأسها. توالت الأهداف، ورأت وتيرة الإرسالات تتسارع، أسرع فأسرع. كانت كأنها مخدَّرة، لا مستثمرة عقلياً، ولا متورِّطة عاطفياً لكن ليست متفرِّجة منعزلة عن أفعالها. كانت حاضرة فيما تفعله، مع استمتاعها باسترخاء غير عادي بالنسبة لها. كانت كما لو أنّ حركاتها تستجيب لحدس الجسم، كأنّ يدها تعرف ما تفعله دون أن تكون تستجيب لأمر من العقل. وكان ذلك يسير بدقّة صائغ، في حركة انسيابية. كانت تجمع الأهداف، في لعبٍ وَصَلَ إلى سرعة قصوى، من دون مجهود.

في إحدى اللحظات، أعلنَ المراهق عن نهاية الجولة وانتصار

أليس. أدركت حينئذٍ أنه كان يتصبّب عرقاً ولم يحقّق ولو هدفاً واحداً.

- مدهش، قال المراهق، لم أرَ هذا أبداً. أنا أتدرّب منذ أربعة أشهر، لم يتغلب عليّ أيّ من أصدقائي أبداً. أنتِ محترفة، في الواقع، هيه؟

- إنها أول مرة ألعب فيها.

- لا أستطيع أن أصدّق هذا. آرثر؟ هل تتبَّعْت؟

- هاه؟ قال الآخر دون أن يزيل بصره عن التلفاز.

كان يبدو ملصقاً إلى الصور الدنيئة التي تبثّها نشرة الأخبار.

- انسَ، قال المراهق. ماما؟

- نعم، عزيزي.

- هل رأيتِ صديقتك؟ إنها تلعب بسرعة مدهشة.

- أنتَ تُحرجني، قالت أليس.

- لكن لا، أريها، هذا جنون. انظري ماما!

أمسكَ مضربه في يده؛ أمسكَت أليس مضربها، وهي تحسّ بالإطراء لكلامه. أخيراً، كانت سعيدة لأنها حضرت الأمسية!

بدأت المقابلة تحت عين الأم المهتمة.

فخورة لأنها كانت موضوع اهتمام، ركَّزت أليس وبدأت المقابلة التي استمرَّت في سرعة قصوى. لعبَت أفضل ما تستطيع. لكنها أدركت بسرعة أنّ السحر لم يعُد يشتغل، ورغم لعب مكثّف، انهزمت أليس أمام المراهق.

- صحيح أنها تلعب بشكلٍ جيد، قالت الأم.

- لعبت بشكلٍ أفضل بكثير قبل قليل، لقد فاتكِ، هذا جنون!

شكرته أليس ووافت الراشدين.

في ركنها، واصل التلفزيون عدّ أخبار اليوم أمام الطفل المتبلّد.

رفضت أليس الشمبانيا والبريوش بالسلمون الذي قدِّم لها. كانت تحسّ أنها مرفوعة. احتفظَت في ذهنها بما عاشته للتو.

لم تكُن مقابلة هوكي.

لم تكن مقابلة.

لا علاقة مع الرياضة، المنافسة، ولا حتى الفوز أو الفشل.

كان شيئاً آخر.

كان إدراكاً. فَهماً.

إذا تصرَّفت بثقة، وإذا كانت حركاتها واثقة، دون أن تكون تستجيب لتحفيز من قبل الأنا ولا تخدم مصلحة شخصية، يمكن حينئذٍ أن تأخذ قدرة مدهشة، تقريباً غير طبيعية. كما لو أنها كانت تتوفر على قدرة لا تملك زمامها، قوة ليست سوى قوتها الموجّهة. الموجة التي تحمل في داخلها قوّة المحيط.

تنفَّست أليس بعمق. استشفَّ لها ما يمكن أن يعنيه ذلك الاكتشاف. ما يمكن أن يُحدِثه في الحياة.

ثم فكّرت في المسيح.

كان يلحّ على أن يبرئ المرضى في معزلٍ عن الأنظار، ويطلب ألّا تُذاع النتائج المحصل عليها. هل ذلك كي لا يفقد قدراته بترك الأنا تستولي على إنجازاته؟ أو رغبة في المثالية، كي يُريَ الجميع أنه توجد علاقة بين الاستغناء عن المجد وقوة أعمالنا؟

مرَّرت يديها في شعرها.

كانت قد نجحت عند هرمس في التخلّص للحظات من الأنا وأحسَّت براحة فظيعة. خلال لعب الهوكي، استشفَّت قوة الأفعال العارية من الأنا. أصبحت أليس مقتنعة بذلك أكثر فأكثر: «ملكوت

السموات» الذي تحدّث عنه المسيح طيلة الوقت لا علاقة له بجنة بعد الموت، أو في نهاية الزمن، ولا حتى بمجيء الحكم الإلهي كما يُدّعى. على أيّ حال عندما كان تلامذته -الذين يبدو أنهم لم يكونوا يفهمون شيئاً أبداً- يسألونه متى يمكنهم أن يروه، كان المسيح يُجيب، بشكلٍ لا يتغيَّر، أنه لا يأتي مثل حدثٍ يمكن رؤيته، وأنه في الواقع قد بدأ بالفعل. لم يكن الأمر إذاً يتعلق بحدثٍ أو حادثة لها تاريخ محدّد في الزمن.

الملكوت، كانت قد استشعرته خلال حديثها مع رافاييل دوفيرني في قبو قصره، لا بدّ أنّ الملكوت هو ذلك الواقع الآخر الذي عاشته مرتين لبضع دقائق. واقعٌ موازٍ للواقع الذي يعرفه الآخرون. واحدٌ كان زمنياً، والآخر روحانياً. الواقع اليومي كان يسير زمنياً، كل عمل له موقع في الزمان. الواقع الروحي كان... خارج الزمن. كأنه بُعْد آخر ليس خاضعاً لهذا الأخير. علاوة على ذلك، عندما لعبت الهوكي، للمرة الأولى، فقدَت كلّ إحساس بالزمن، لكن أيضاً كل انشغال يسجّل في الزمن، مثل انتظار هدف أو انتصار. المرة الثانية، بعد أن استولت الأنا على النجاح، تتذكّر أنه كان في ذهنها تسجيل أهداف، والفوز بالجولة، كان عقلها يستبق المستقبل ويريده منتصراً. كانت قد عادت إلى الوقتي.

ابتسمت وهي تتذكر مقولة المسيح التي فهمتها في البداية على أنها نصيحة سيئة: **الغَدُ سَيَقْلَقُ لِنَفْسِهِ**. كانت قد انتفضت، كيف يمكن أن ننصح الناس بألّا يكونوا بعيدي النظر؟ أصبحت الآن تفهم أنّ المسيح لا يهتم البتة بالوقائع اليومية في الحياة الوقتية. رسالته تخص بُعداً آخر يدعو إليه الناس.

ربما كانت تلك هي **الحياة الأبدية** التي كان يعدُ بها على

الدوام؟ حياة أبدية لأنها ليست وقتية؟ كانت تتذكر ذلك التطويب الذي أضحكها بشكلٍ خاص، شيء من قبيل «إِنَّ مَنْ يَسْمَعُ كَلَامِي وَيُؤْمِنُ بِالَّذِي أَرْسَلَنِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَلَا يَأْتِي إِلَى دَيْنُونَةٍ، بَلْ قَدِ انْتَقَلَ مِنَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاة». كانت قد قالت لنفسها هل يجب أن يكون المرء ساذجاً كي يتقبّل كلاماً من هذا النوع، أن يصدِّق أنه بعد أن يكون قد مات يمكن أن يصحو يوماً وأن جسدنا سيتكون حول العظام اليابسة! بعد ذلك، فكّرت أنه ربما كان المسيح يستعمل مصطلح «الموت» كي يعني حياة الأنا، عندما يكون المرء تحت سيطرة الأنا، يكون بعيداً عن الحقيقة، نخطئ حول من نكون ولا نعيش حياتنا، كأنّ المرء ميت. ثم إنّ رافاييل دوفيرني كان قد أخبرها أنّ الحكمة الشرقية تعتبر أنّ الصحوة الروحية تتمثّل في أن يموت المرء في أحد المستويات كي يُبعث في مستوى آخر...

كلّ ذلك يبدو مترابطاً. كل تلك الفرضيات، كلّ تلك التفسيرات تتلاقى. الحياة الأبدية لم تكن هي الجنة حيث يوجد اللطفاء الأموات الذين تصرَّفوا بشكل جيد خلال حياتهم. الحياة الأبدية كانت ذلك الواقع الآخر الذي لامسته أليس، واقع يمكن للأحياء الوصول إليه!

- تبدين غريبة، أليس، في ماذا تفكرين؟

انتفضَت أليس. كان زميل بول.

- في الحياة الأبدية، وأنت؟

- آه! طريقة جميلة للتخلّص من السؤال.

خفَضَ صوته ليضيف:

- لا بدّ أنّ عندك أفكار لا يمكن البوح بها...

- فلنقُل فقط إنها لا تُسمع...

ضحك وملأ كأسها بالشمبانيا. قرعا كأسيهما.

لا تُسمَع بالنسبة إلى كثير من الناس، فكّرت أليس. ليس من السهل اقتسامها.

تنهدت. كان من العقل أن تحتفظ بكلّ ذلك لنفسها. أن تتفادى تعريض نفسها للسخرية أو تُنعَت بالجنون. كيف يمكن أن يفهموا، كيف يمكن أن يتصوَّروا لحظة إمكانية واقعٍ آخر، نوع من العالم الموازي المتحرّر من الوقت، إذا لم يجرّبوا ذلك بنفسهم، ولو لبضع لحظات في سياقٍ أو آخر، كما توفّرت هي على الحظ الذي لا يصدّق؟ مَن يمكن أن يتصوّر ما عاشته في تلك المناسبة؟

أحسَّت بارتباكٍ أنّ القليل من الناس يمكن أن يسمعوا كلاماً مشابهاً ويصدقوه.

هي نفسها لم تصدِّقه قبل بضعة أشهر...

فكَّرت في المدير العام في شركتها، الذي كان إعلانه عن زيادة عامّة مذلّة في الأجور قد حفَّزَ حدسها لتطبيق المبدأ المسيحي بتقديم الخد الآخر. بداية انطلاق المغامرة...

تنهدت مرة أخرى.

أن تحتفظ بكلّ شيء لنفسها أعقل.

شربت جرعة شمبانيا.

وفي الوقت نفسه، تصرف أناني، لا؟

أنا-ني...

عضت شفتيها.

- مستحيل! أطلقَت بصوت خفيض.

- عفواً؟ سألها المراهق.

- لا شيء.

يجب أن تتصرّف بحيث يستطيع الجميع الاستفادة من ذلك، أن يتمكن الجميع من إيقاف إفساد حياتهم بسبب الأنا! جميع الناس... بدءاً بالذين يمكن أن تتصرّف معهم بسرعة، بسهولة... الذين...

- ماذا ستفعلان خلال نهاية الأسبوع؟ سألها الزميل.

- لم نخطّط لشيء، أجاب بول. ربما ذهبنا لنتنزه في المستنقعات...

- لا، قالت أليس. نهاية هذا الأسبوع سنذهب إلى كلوني!

الجزء الثالث

حان الوقت لنستيقظوا أخيراً من النوم [. . .].
قد تناهى الليل وتقارب النهار.
فلنخلع أعمال الظلمة،
ونلبس أسلحة النور.

رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية، XIII، 12

21

صرّ الباب الخشبي المبطن بالجلد على مفصلاته، ثم انغلق في صوت منفاخ مكتوم. عندما دخلت أليس إلى الكنيسة، أحسَّت برائحة الحجر الرطب المختلطة بالبخور المألوفة. كان صدى صوت جيريمي وهو يُنهي القداس يرنّ في الصحن. التحقَت خِفية بجانبٍ منخفضٍ كي تنتظر. في الظلام، لاحظت لأول مرة لوحة تذكارية مثبتة في قدم تمثال للعذراء، بعد تجديدها منذ بضع سنوات. «تمّ تدشينها بحضور سيادة الأسقف فرانسوا دوبيني، أسقف أوتون». كان اسمه قد نُقش باهتمام على البرونز من أجل الأجيال القادمة...

صَعدت أليس الجانب المنخفض في صمت. كان عدد الأوفياء مشرّفاً وأحسَّت بالسعادة من أجل جيريمي. تعرَّفت على السيدة دو سيردغو، المستقيمة في كرسيها في الصف الأول على حافة الممرّ، بقلادتها ذات الصليب المطعّم بياقوتة كبيرة، ومباشرة خلفها، فيكتور، العجوز صانع النبيذ الأصمّ تقريباً، مع إتيان، صديقه المتأتئ. من الجهة الأخرى للممرّ، جيرمين وكورنيليا، بنظارات نصف دائرية، كتاب الصلاة في يد والسبحة في اليد الأخرى.

كان المذبح غارقاً في ضوء طبيعي وكان جيريمي بلباس

الكهنوت الأسود والطوق الأبيض الصغير، بارزاً أمام الجدران الحجرية الباهتة.

نطق الكلمات الأخيرة فدوّت آلات الأرغن الكبيرة بينما نهض أبناء الرعية للخروج، تحملهم الموسيقى المؤثرة لجان سيباستيان باخ. اغرورقت عينا أليس بالدموع، كما يحدث في كلّ مرة تسمع **يسوع فليدم فرحي**. يتمكن بعض الفنانين فعلاً من التأثير في المرء بعمق.

اقتربت الراهبة التي أصبحت أليس تكنّيها الأخت إيكيا ببطء ودسَّت في يدها ورقة صغيرة قبل أن تختفي. بسطت أليس الورقة، اقتباس جديد من الأناجيل مكتوب بخطّ اليد.

انتظرت بصبر أن تفرغ الكنيسة تماماً. توقف الأرغن، رن آخر مقطع تحت القبة الضخمة قبل أن يتلاشى. عمّ الصمت المكان من جديد. تقدَّمت أليس نحو جيريمي. رفع عينيه عندما سمعها تقترب، واستقبلها بابتسامة عريضة.

- لقد عدت، قالت وهي تبتسم بدورها.

- عدت...

- عدت لأشتغلَ معك.

قامت ببضع خطوات حول المذبح، بهدوء، وتمهّل. دوى صدى خطواتها في الكنيسة الفارغة.

- أظنّ أنه لا يزال هنا بعض الأشياء الصغيرة التي يجب أن تتغير...

لاحظَت أن جيريمي يستمع إليها بمزيج من الخوف والاستمتاع.

- سنمرّ إلى الأشياء الجادة. بدءاً من الآن، سنوصل **المحتوى الحقيقي** لرسائل المسيح.

رفعَ حاجبه.

- باختصار، سنوقف الحماقات.

قام بحركة تراجع بالكاد مرئية.

- تحبين إثارة الآخرين، أليس كذلك؟ قال بنبرة فيها تسلية.

وجهت إليه أجمل ابتساماتها. من كلّ النواحي، على الزجاج الملون، بدا أنّ القديسين ينظرون إليها باهتمام. في أعلى عموده، بدا بيدو بيرلو كأنه يفرك أعين وجوهه الحجرية الثلاثة.

- هل لديك فكرة عن السن الذي نقرأ فيه الميثولوجيا الإغريقية، عامة؟

- عشرة، أو اثني عشر؟

- هل تعرف أنها تحتوي على تأمّلات فلسفية ذات عمق سحيق؟ ذلك النوع من التأملات الذي يسبب لك في دوار ميتافيزيقي. ومع ذلك، قليل هم الراشدون الذين يقرؤونها، أليس كذلك؟ لماذا؟ لماذا يتركون أمر قراءتها لأطفال العاشرة الذين لا يفهمون المعنى العميق في حين أنها تحتوي على ما يمكن أن يغذي مثقفاً في الخمسين؟ لأنّ الميثولوجيا يُنظر إليها بشكلٍ شامل مثل مجموعة حكايات لا تصدّق، صالحة لجعل الأطفال يحلمون. خسارة، لا؟

رنّت كلماتها الأخيرة في الصحن.

- أرى إلى أين تريدين أن تَصِلي.

- لقد اهتممت بالرموز والتعبيرات المجازية في الروحانيات الشرقية، لقد قرأت كامبل، مئات الصفحات لتحليل ميثولوجيا العالم أجمع. و... فهمت عدداً من الأشياء حول الكتاب المقدّس لم يسبق أن سمعتها أبداً في أحد القداديس.

- ربما لم تحضري ما يكفي...

ضحكَت أليس.

- وفهمت خاصة أنّ الأحداث الخارجية التي توجد بها تصف واقعاً... داخلياً، فينا نحن. إذا لم نعلم ذلك، فإنّ الأحداث المعنية تُضحكنا لأننا نجدها، في الأفضل، من دون أساس أو أسوء من ذلك خرقاء.

تحجر جيريمي قليلاً، بينما تابعت:

- إذا لم تقل لنا إن طوفان نوح يمثل رمزياً تدفق النبض والعواطف التي تزعزع استقرارنا، وأنك تكتفي بمدح حلقة السفينة وحيواناتها اللطيفة التي تظلّ عاقلة على المركب، فنحن نمزح، حتى الأطفال يعرفون أنّ الأسد لن يمسك الغزالة من حافرها كي يواسيها لإصابتها بدوار البحر... إذا واصلت التحدّث عن الهجرة كما لو أنّ موسى قد قاد شعبه بالفعل من أرض الاستعباد إلى أرض الميعاد، فإنّ هذا يُضحك كل الذين يعرفون أنّ علماء الآثار قد قلبوا سيناء طولاً وعرضاً دون أن يعثروا على أقل وعاء خزفي يمكن أن يدلّ على أنّ ستمائة ألف أسرة قد عاشت هناك خلال ما يقرب أربعين سنة... يمكن أن نتقبّل أكثر، إذا فسرت أنّ هذا النص خرافة توضح المسار الداخلي الذي يمكن أن يقود كلّ واحد منا من العبودية العقلية إلى الحرية... عندما تقول إنّ المسيح صعد إلى السماء دون أن تشرح لنا ماذا تعني كلمة «سماء»، الناس الذين أمضوا قليلاً من الوقت على مقاعد الدراسة يضحكون. إذا كنت تجلد الخطيئة دون أن تفسّر لنا أبداً أنّ المبالغة في اتّباع الشهوات يقلّل من حظوظنا في أن نصحو لشيء آخر أجمل، سينظر إليكم كمفسدي بهجة. وهذا صحيح بالنسبة إلى كلّ الأمثال التي حكاها المسيح، إذا لم تقدّموا

المفاتيح كي يتمّ فكّها والتقاط الرسائل المفيدة كي يتقدم المرء في الحياة، فالكل يضحك منها -وأنا أولهم- ويهجر الكنيسة.

تنهّد جيريمي.

- أجدك قاسية بعض الشيء...

- في لحظة ما، يجب أن يعرف المرء كيف يقيس نتائج أفعاله.

- تبدين واثقة من نفسك بالنسبة إلى قياس نتائج أفعالنا نحن، في جميع الأحوال...

ابتسمت.

- امسك، استطلاع حديث للرأي. 34% من الفرنسيين يعتقدون بوجود الشيطان كشخص. هذه نتيجة أعمالكم! و59% من الأميركيين. لقد نجحتم هناك أكثر.

ساد الصمت في الكنيسة.

- ربما كنت تظهرين أعمالنا بشكلٍ كاريكاتوري؟ قال بخجل.

ابتسمت أليس من جديد.

- انظر إلى المتزمتتين...

- مَن؟

- جيرمين وكورنيليا! تحفظان كتاب الصلاة عن ظهر قلب. هل تجد أنهما صاحيتان؟

خمّنت أليس أنه يحبس ابتسامته. ثم هزّ رأسه بطريقة رافضة.

- لقد قال المسيح: «لِمَاذَا تَنْظُرُ إِلَى الْقَذَى الَّذِي فِي عَيْنِ أَخِيكَ، وَلَا تَفْطِنُ إِلَى الخَشَبَةِ الَّتِي فِي عَيْنِكَ؟».

- حسناً، أقبل الإطراء. لكن أنا لم أقضِ ستين سنة أتردّد على مكان عبادة بِدَأب...

تنهد عوض الإجابة، وهو يبدو مستسلماً.

- نحن في القرن الواحد والعشرين، جيريمي! استيقظوا! استيقظوا حتى تتمكنوا من إيقاظنا...

ظلّ صامتاً لحظة طويلة قبل أن يتحدّث.

- إذاً تريدين أن نشرح الاستعارات، هو ذا؟

- أجل.

- المشكلة هي أنّ الجميع ليسوا ناضجين لتلقي هذا الخطاب. لهذا السبب كان المسيح يعبِّر من خلال الأمثال عندما كان يخاطب الحشد، في حين أنه لم يكن يتوانى عن تفصيل كل شيء للحواريين الذين كان قريباً منهم.

كان جيريمي ممزّقاً. أحسّت أليس أنها زعزعت قناعته لكنه كان لا يزال يقاوم.

- ذكرتِ الروحانيات الشرقية. المعلمون الروحانيون الآسيويون ينتظرون أن يأتي التلميذ نحوهم ويسألهم، ذلك مبدؤهم. هم أنفسهم كانوا يوصون بألّا يُقال للناس ما ليسوا مستعدّين لسماعه.

- أنا متأكّدة أنّ العديد من الناس مستعدّون.

هزّ رأسه بتفكُّر.

- كان المسيح يوصي بالحذر الشديد في هذا المجال...

- مَن كان شديد الحذر لا يفعل شيئاً.

- هو حتى كان يقول: «لَا تُعْطُوا الْكِلَابَ مَا هُوَ مُقَدّس، وَلَا تَرْمُوا دُرَرَكم إِلَى الخَنَازِير، لِئلاَ تَدُوسَهَا بِأَرْجُلِهَا وَتَلْتَفِتَ إِلَيْكُمْ فَتُمَزِّقَكُمْ».

- أتباع أبرشيتك يقدّرون المقارنة.

انفجر جيريمي من الضحك.

- لا تُقَوّليني ما لم أقُله، ولا فكّرت به!

هزّ رأسه قبل أن يضيف:

- أنتِ فعلاً عنيدة! ولا ترين إلى أين يمكن أن يؤدي بنا كلّ هذا...

- هذا ليس خطئي، عندي خشبة في عيني.

تنهّد بعمق.

- حسناً... إذاً تريدين تفسير الأمثال. ماذا أيضاً؟ لأني أفترض أن هذا لا يتوقّف هنا...

ابتسم.

- لا يمكن أن نخفي عنك شيئاً.

- إذاً؟

- توجَد مشكلة في الكنيسة بحسب رأيي، وهو أنهم يطلبون منا أن نصدّق دون أن نتحقّق، دون أن نجرّب. بينما تدعو الهندوسية إلى التجربة والاختبار.

- وماذا تقترحين؟

- أريد أن أقترح تمارين روحية تُستلهم من التنمية الذاتية، كي نتيح لمن يرغب بذلك أن يتخلّص من الأنا، ومن العقل، وأن يجرّب ولو قليلاً الواقع الآخر، **الشاطئ الآخر**، كما كان المسيح يقول.

- أليس، رغم الإرادة الصادقة، نحن في كنيسة، وهي دار عبادة! لا يمكن أن نقوم بتمارين. نحن لسنا عند توبي كولينز! يجب أن نحترم تقاليد الكنيسة...

- التقاليد؟ لكن المسيح كان أوّل من يخرق التقاليد! حصل أن أبرأ المرضى يوم أحد رغم أنّ ذلك ممّا تمنعه التقاليد بشدّة. كان يأكل كلّ ما يرغب به، في حين أن التقاليد كانت تفرض قواعد غذائية صارمة.

- أليس، أنا مضطر لاتّباع الطقوس الدينية، هل تفهمين؟

- هل يجب أن أذكّرك بكلام أشعياء الذي كان المسيح نفسه يكرّره في تلك الفترة؟ **يَقْتَرِبُ إِلَيَّ هذَا الشَّعْبُ بِفَمِهِ، وَيُكْرِمُنِي بِشَفَتَيْهِ، وَأَمَّا قَلْبُهُ فَمُبْتَعِدٌ عَنِّي بَعِيداً، وَبَاطِلاً يَعْبُدُونَنِي وَهُمْ يُعَلِّمُونَ تَعَالِيمَ هِيَ وَصَايَا النَّاسِ**. أمّا بالنسبة إلى أماكن العبادة فلا يجب تقديسها أكثر من هذا. علاوة على أنّ المسيح كان قليلاً ما يرتادها، إنْ لم يكُن فقط من أجل أن يتعارك مع التجار.

هزّ جيريمي رأسه وهو يبتسم. لكن أليس كانت تحسّ أنها تحرجه.

- دعنا لا نخلط بين الهدف والوسائل. تقاليدكم، هي خطابات وطقوس تمّ تصوّرها في فترة متأخّرة على أنها أفضل وسيلة لإيصال الرسائل للناس. لكن العصر تغيّر، تطوّر الناس، وهل يجب أن تظلّ تقاليدكم غير قابلة للتغيير؟ مرّت ألفا سنة، كان العلم في الطور اليرقي، لا أحد كان يفهم الكون، كان الناس غارقون في الخوف، والخرافات، والمعتقدات الخرقاء. ربما كان يكفي إضافة معتقدات جديدة كي يتبعوكم، كان البشر في حاجة إلى التوجيه. ليس اليوم، حيث أصبح الناس أذكياء، ومثقفين، ولا أحد يمكن أن يصدّق العبث. الناس في حاجة إلى أن يفهموا. يجب أن تفصّل الأشياء وأن يجربها الناس.

لم يُجِب جيريمي.

- انظر إلى الهندوسية، قبل ألفي وثمانمائة سنة، انفصل المعلمون الأوبانيشاد عن طقوس الفيدا كي يقتربوا من المعنى العميق لرسائل الفيدا. حان الوقت لنقوم بالشيء نفسه اليوم في المسيحية

بدل التشبّث باسم تقليد مزعوم بخطاب فَقَدَ كلّ معنى في أعين أغلبية الناس.

قطّب جيريمي.

- ما هي الطريقة التي تقترحها لمساعدة الأوفياء في التخلص من الأنا؟ الجلد؟ الخيش؟

- الشيء الجميل معك هو أنّ الأمر ليس أبداً كاريكاتورياً.

ضحكت أليس.

- التأثيم، في جميع الأحوال. منذ قرون وهو يعفّن حياة المسيحيين دون أن يضيف لهم شيئاً. وماذا لو حاولنا شيئاً آخر؟

ظلّ جيريمي صامتاً، وهو يفكّر، بينما استطردت أليس:

- يوجد أكثر من ملياري مسيحي في العالم. كم من بينهم استطاعوا رؤية النور؟ كم منهم استطاعوا الوصول إلى الواقع الآخر الذي ينفتح للمرء عندما تنمحي الأنا؟ رغم مرور ألفي سنة وأنتم تشتغلون! لا بد أنّ المسيح يتعذّب في قبره!

رفع عينيه نحوها ببطء.

- هو لم يعُد هناك، أليس.

22

- ليس هنا.

- ألِحّي! ربما ذهب إلى الحمام.

لم تجِب السكرتيرة، وسمعت أليس من جديد رنات طويلة تتوالى. كان قد مرّ على الأقل خمسة عشر يوماً منذ أن تمّ تحديد الموعد الهاتفي مع جاك لابوري، عالم الفيزياء الفلكية الشهير. وهو لا يمكن أن يخلفه.

تتالت الرنات، وفي الأخير فتح الخط.

- السيد لابوري؟

- نفسه.

أحسَّت أليس بالارتياح.

- لدينا موعد، أنا أل...

- نعم، كان لدينا موعد في الساعة الثانية بعد الزوال ولا وقت لدي الآن.

- الثانية؟ كنت قد كتبت الثانية والنصف، أنا مرتبكة...

- أمامي القليل من الوقت، يجب أن نؤجل حديثنا، إلّا إذا

كانت عشر دقائق كافية لأجيبك. كلّ شيء يتعلق بما إذا كان سؤالك معقداً...

- لا أبداً، أنا فقط أريد أن أفهم خلق الكون!

سمعته يضحك.

- في الواقع...

- يمكن أن أكتفي بالنسخة الموجزة. ولو كان ممكناً المبسّطة، معرفتي في الفيزياء جدّ بسيطة...

- موافق.

مرّت لحظة صمت قصيرة.

- انطلق كلّ شيء من الفراغ. فراغ صغير ومكثّف، مليء بالطاقة، وقع في داخله انفجار عظيم، كان بداية نشأة الكون.

- الانفجار البدئي، أفترض.

- حدث ذلك قبل 14 مليار سنة. انبعثت طاقة وتمدّد الكون في جميع الاتجاهات. منذ ذلك الحين، لم يتوقف الكون عن التمدّد، والمجرّات عن التباعد أكثر فأكثر بعضها عن بعض. من فوضى الانفجار العظيم تكوّنت العديد من الجسيمات التي تجمّعت كي تكون نُظماً معقدة. العناصر الكيميائية الوحيدة التي نتجت عن الانفجار هي الهيليوم والهيدروجين، وهي عناصر جد بسيطة بردت وانكمشت بسبب وزنها. تجمّعت بعد ذلك الذرات في جزيئات. تركّزت المادة بعد ذلك وتجزأت. وبعد أن تعرّض لضغط شديد، اشتعل الغاز الحار. إنها نيران التخليق النووي النجمي. ثم تكوّنت النجوم الأولى.

- ظهرت الحياة في ذلك الوقت؟

- الحياة بالمعنى البيولوجي للمصطلح ظهرت بعد ذلك بوقت

طويل. في البداية تكوّنت الشمس، نجم تحيط به ثمانية كواكب من ضمنها الأرض، قبل 4,5 مليار سنة. ظهرت عليها الحياة منذ 3,8 مليار سنة، والإنسان، منذ فقط بضع ملايين سنة.

- ما الذي أتاح ظهور الحياة؟

- من خلال تفاعلات الانصهار النجمي في قلب النجوم الأولى تشكّلت عناصر كيميائية ثقيلة. عندما انفجرت تلك النجوم التي هي عبارة عن شموس عظيمة، زرعت في الكون عناصر كيميائية، ثمرات أحشائها. على كوكب الأرض، التأمت تلك الشظايا من النجوم كي تعطي الحياة. أقلّ ذرة من أجسادنا ليست سوى غبار نجوم، كي أستعمل العبارة العزيزة على هوبرت ريفز.

غبار نجوم...

فكرت أليس في مفهوم الوحدة الأساسية في الروحانيات الشرقية التي تحدّث عنها رافاييل دوفيرني. كانت كلماته لا تزال ترن في أذنيها: **يعود إلينا، لتحقيق هذه الطبيعة الحقيقية، أن نرى وأن نحسّ بهذه الوحدة المخفية، وأن نفهم أنّ الإنسان يُكَوّن وحدة مع كل شيء.**

- هناك سؤال آخر يؤرقني...

- متأسّف، لا وقت لديّ الآن. فلنتفّق على موعد آخر. سأذهب إلى مرصد ميدلبري لثلاثة أسابيع. يمكن أن أقترح عليك أن نتحدّث بعد عودتي. ما رأيك في الأربعاء 10 أغسطس عند الساعة الثانية زوالاً؟

- ممتاز!

- سَجَّلْتِ الثانية زوالاً، أليس كذلك؟

أغلقَت أليس الخط. أحسَّت بنفسها معززة في رأيها، في رؤيتها

للأشياء. إذا لم يكن عندها تفسير للعالم الموازي الذي رأته، فإن خلق العالم المادي تفسِّره الفيزياء بشكل جيد. لا يبدو أن وجود الإله كان ضرورياً لتحدث التفاعلات الكيميائية في الكون!

* * *

كانت فترة بعد الظهيرة رائعة. في حديقة والدها المظلّلة، جلست أليس وجيريمي حول مائدة الحديد المزخرفة في ظلّ شجرة الجوز العتيقة يتذوقان كعكة بالبرتقال ويشربان الشاي الذي كانت تنبعث من إبريقه روائح الورد والياسمين.

لأنّ زيادة 5% في المرتب لم تكفِ لتمويل سفر أسري إلى أستراليا، قررت أليس قضاء العطلة في كلوني. المكان أقل غرابة، حقاً، لكن على الأقل، لا عناكب سامة ولا تماسيح في الأنهار! كان بول قد احتجّ، لكنها استغلت نقطة ضعفه: «تسجل طيلة الصيف في دروس الرسم عند جان بيير جيلو، في شارع ميرسيير. ذلك الرجل جد موهوب حتى أنه يستطيع تحويل مشتغل في طلاء المنازل إلى رامبرانت».

قضمت قطعة من الكعكة بينما كانت تستمع إلى جيريمي يقرأ بصوت مرتفع.

ممم... لذيذ...

قد يبدو لكم هذا متناقضاً، لكن من أجل أن تتحرّروا من الأنا خاصّتكم، ننصحكم بالبدء بتنمية الأنا في داخلكم، لكن أنا سليمة. في الواقع، إذا جرحت الأنا خاصتكم، مثلاً بسبب حكاية خاصة أوقفت تطوير تقدير الذات، ستدفعك المعاناة التي ستنتج عن ذلك لاشعورياً إلى تعويض هذا الجرح بهيئات أنانية غير متكافئة، ستحاول الأنا خاصتك أن تستعيد السيطرة على الوضع،

وأن تكون رغم كلّ شيء، وستتطور بشكلٍ غير متوازن. حينئذٍ قد تغرق في قاع الهويات الزائفة التي ستتشبث بها الأنا.

- لا يمكن أن أقدّم موعظة بهذا الشكل، قال جيريمي. هذا فارغ تماماً من العقيدة. أنا كاهن ولست مُدرساً!

- واصل، ستتحدث عن هذا من بعد!

تنهّد، متضايقاً، لكنه تابع القراءة.

أن تكافحوا ضد الأنا ليس حلاً أيضاً، تأثيره الوحيد هو أن يدعمها، وسيخلق في داخلكم إحساساً بالذنب يزعزع الاستقرار، صراعاً داخلياً. علاوة على أنّ المسيح كان يقول: «كُلُّ مَمْلَكَةٍ مُنْقَسِمَةٍ عَلَى ذَاتِهَا تُخْرَبُ».

- هذه النقطة جدّ مهمة، قالت أليس. يمكن أن تقوم بمقارنة مع إحدى الحميات: مقاومة الرغبة في الشوكولاتة لن تُجدي.

- بما أننا لا ندعمها بكلام للمسيح خارج السياق، من نوع «طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ، لأنهم يشبعون»...

انفجرت أليس من الضحك.

- هيا، واصل!

قضمت قطعة أخرى من كعكة البرتقال بينما واصل:

إنه السبب الذي من أجله تعلمنا، في هذه الكنيسة، ومنذ عدة أشهر، أن نتحاب. بعد استعادة تقدير الذات، سيكون من السهل أن نتحرّر من سلطة الأنا. يتعلق الأمر حينئذٍ بأن نتخلى عن هوياتنا الزائفة، والأدوار التي نلعبها، وأن نلتحم من جديد مع أنفسنا ثم نكتشف قيمة ذواتنا بشكلٍ مستقلّ عن ما نعمله، أو ما نملكه، ثم نتعلّم ليس أن ننسى أنفسنا، بل أن نتجاوز شخصنا، وعندها ونحن

لا نبحث عن ربح شخصي، سنكتشف السلطة والقوة التي تكتسبها أعمالنا.

- طيب، قالت أليس، ما قولك؟

لم يُجب، الشيء الذي كان علامة جيدة.

- يمكن أن ترفقه بصلصة كاثوليكية لو أردت.

بقي جيريمي صامتاً، وهو يفكر.

شرب جرعة من الشاي الساخن.

- في ماذا تفكر؟ سألته أليس.

- في كاهن آرس.

- من يكون؟

- كاهن من القرن التاسع عشر.

- آه طيب. لماذا تفكر فيه؟

استغرق وقتاً قبل أن يجيب.

- غالباً ما أفكر فيه، هو إلى حدٍّ ما مَثَلي... كان رجال الدين الأعلى منه درجة يعتبرون عظاته ضعيفة في العقيدة، وقد قام أسقفه بكلّ ما يستطيع كي يمنع نشرها. مع ذلك، يعترف الجميع أنه ساهمَ في تغيير حياة أبناء رعيته. كان البعض منهم يعتبره قديساً.

أمسكَت أليس نفسها عن أن تعلن الانتصار، لكنها كانت تعرف أنها قد انتصرت.

عندما رافقته إلى فناء الكنيسة، بعد ذلك بوقت، كانت واثقة. سيعرف كيف يمرّر الخطاب، الخطاب المفيد للناس.

رأته يبتعد ثم يختفي في بيت الكاهن.

- من فضلك، سيدتي؟

استدارت.

كان هناك زوجان في حوالي الثلاثين ينظران إليها بهيئة خجولة. كانا يمسكان بيدي بعضهما مثل الأطفال، كان ذلك مؤثراً.

- صباح الخير، قالت وهي تبتسم.

تبادل الزوجان نظرة، كما لو أنّ كلّ واحد منهما كان ينتظر أن يتحدّث الآخر. كان لهما هما الاثنان وجه وديع. كان شعر المرأة الكستنائي معقوصاً على شكل ذيل حصان. وأخيراً تحدّثت هي.

- هل تعرفين أين يمكن أن أجد الأب جيريمي؟

- من سوء الحظ، لقد غادر للتو وأعرف أنه ليس شاغراً.

كان يبدو ظاهراً أنهما شعرا بالخيبة.

- سيُلقي القداس هذا المساء، أضافت، يمكن أن تتحدثوا معه بعد ذلك بالتأكيد.

- هذا المساء، غير ممكن.

- نحن لسنا من الأبرشية، أضاف الرجل. جئنا من شارول، من بعيد.

- زوجي حارس ليلي، سيشتغل هذا المساء، لا يمكننا أن نبقى.

أحسَّت أليس أنهما مهمومان، وفي الوقت نفسه منزعجان، كأنهما يعيشان وضعية جدّ حرجة.

- هل تريدان أن أبلغه رسالة ما؟

تبادلا النظرات من جديد.

- في الواقع، كنا نريد أن نعمِّد طفلنا الثاني.

- هل تعرفان الأب جيريمي؟

- لا، يجب أن نكلمه، قال الرجل. سنعود.

راقَبَتهما أليس يبتعدان، يداً بيد. لماذا بحقّ السماء يريدان

تعميد ابنهما في كلوني وهما يقطنان في شارول على بُعد أربعين كيلومتراً؟

أخذت طريق بيت والدها وهي تفكر في جيريمي.

كان يخشى أن يرى الأوفياء ينصرفون عنه. هي كانت مقتنعة أنهم سيبقون وأن آخرين سيأتون. لكن بالتأكيد كان رهاناً، ولم يكن عندها ما تخسره. يمكن أن تخطئ، أو أن تضلّ ولن تتحمّل أية نتائج. أما بالنسبة إلى جيريمي فالتحدي كان كبيراً، هو كان قد اختار أن يخصّص حياته للكنيسة، ورجال الدين الأعلى منه ينظرون إليه بعين سيئة بسببها هي. لكن ربما غضّوا الطرف بسبب النجاح الشعبي. لو أدار له الأوفياء ظهورهم، لانتهى الأمر بالنسبة إلى وظيفته...

كانت واعية بذلك، وتحتفظ به في ذهنها، ومع ذلك، لا شيء كان يؤثر فيها، شيء ما كان يدفعها لتجرّ جيريمي في هذا الطريق. كانت تحسّ به مثل نداء غامض.

23

- مَن أنت؟ سألت المرأة بصوت رخيم وعميق.

كانت سمراء في حوالي الأربعين، من ضمن أبناء الرعية الجدد. كانت قد أدارت كرسيها من القش كي تواجه جارها، في آخر صفّ من الكنيسة.

- أنا شخص... عامل، أجابها الرجل، شاب في الثلاثينيات.

- أنت شخص عامل، وأنت أحياناً شخص متكاسل، قالت له بهدوء وبنبرة رقيقة. ومن الممتع أن تعرف أنك يمكن أن تكون الاثنين في الوقت نفسه.

أقرّها الرجل ببطء وهو يستقبل بحسب إيقاعه هذا الكلام غير المألوف.

- مَن أنت؟ سألته المرأة من جديد.

- أنا... شخص معترف به، أجابها.

- أنت شخص معترف به، وربما كنت أيضاً أحياناً متجاهَلاً. ومن الممتع أن تعرف أنك يمكن أن تكون الاثنين في الوقت نفسه...

خَطَت أليس بضع خطوات في الممر وسمعت ثنائياً آخر من بعيد. كانت قلقة لأنّ الأوفياء كانوا قد استقبلوا هذا التمرين النفسي ببرود. اضطرّ جيريمي إلى إظهار كثيرٍ من الرقّة والروح التربوية كي يشرحه ويبرّره.

صعدت أليس الممر بصمت. أخيراً، في الكنيسة بدا الجميع يمارسون اللعبة، وإنْ كان بعضُ القدامى يصرّون أسنانهم.

كان الأوفياء قد توزّعوا إلى مجموعات من شخصين، وبدا أنّ كل واحد يتبع تعليمات التمرين بدقة.

بقي جيريمي قرب المذبح، كان يدقق في الحضور باهتمام، وهو مهموم.

كانت أليس قد تخيّلت هذه الحصة وهي تستلهم بحرية من تمرين للطبيب النفسي الأميركي الكبير ستيفن جيلجان. كان الهدف ثلاثياً، التخلص من تحديد الكينونة بالأدوار أو الصفات التي نتوفّر عليها، قبول الجهة الأخرى من العملة التي هي حاضرة فينا لكن مكبوحة، وأخيراً إعادة توحيد هذين العنصرين المتضادين في داخلنا مع الإعراض عن صورتنا أو حاجتنا إلى الكمال. أن يقبل المرء حدوده وأن يستسلم لنوعٍ من الضعف يساعد على التنقل إلى حالة صحوة في اللحظة الحاضرة.

إعادة توحيد نزعاتنا المتناقضة يحرّرنا من التوترات والصراعات الداخلية، ويقودنا إلى الانسجام التام.

كان جيريمي حذراً، واستغرق الوقت الكافي كي يقدّم التمرين لأبناء الرعية. كان قد قدّمه بكلام المسيح: **وَلَسْتُ أُصَلِّي مِنْ أَجْلِ هَؤلاءِ فَقَطْ، بَلْ أَيْضاً مِنْ أَجْلِ الذِينَ سَوْفَ يُؤمِنُوَن بِي بِسَبَبِ كَلِمَةِ**

هَؤلَاءِ، لِيَكُونَ الجَمِيعُ وَاحِداً، [. . .] لِيَكُونُوا وَاحِداً كَمَا أَنَّكَ أَنْتَ فِيَّ وَأَنَا فِيك [. . .] لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضاً وَاحِداً فِينَا.

بالنظر إليه من الخارج، كان التمرين يبدو غريباً، لكن عندما يجرِّبه المرء بنفسه فهو لا يبقى على لا مبالاته، ويجد فيه سلاماً داخلياً جديداً. ابتسمت أليس وهي تفكر أنّ أيّ زائر يدخل فجأة سينطبع لديه بلا شك أنه قد دخل عند طائفة غريبة.

اقتربت خفية من امرأتين.

- مَن أنت؟ سألت الأولى.

بقيت الأخرى، امرأة في حوالي الخمسين، حزينة وصامتة لحظة طويلة قبل أن تُجيب بصوت ضعيف.

- أنا امرأة وحيدة.

- أنتِ امرأة وحيدة، وربما أنتِ أيضاً امرأة على علاقة بالآخرين. . . ومن الممتع معرفة أنكِ يمكن أن تكوني الاثنتين في الوقت نفسه.

انتظرت بضع لحظات قبل أن تستأنف.

- مَن أنت؟

- أنا. . . لا أجد من يفهمني.

أخذت الأخرى نفسها.

- أنتِ لا تجدين مَن يفهمك، وأحياناً. . . تجدينَ من يفهمك. ومن الممتع معرفة أنك يمكن أن تكوني الاثنتين في الوقت نفسه.

انتفضت أليس وهي تحسّ بملمس يدٍ على كتفها واستدارت بسرعة. كانت الراهبة إيكيا تقدِّم لها ورقة مطوية. بسَطَتها أليس. كما العادة وجدت اقتباساً من الأناجيل.

وجَّهت إليها ابتسامة وسارت بضع خطوات وهي تضع الورقة

في حقيبتها بشكل آلي، إلى أن وصلت على مرمى السمع من إتيان وفيكتور.

- ماذا؟

- مَن... مَن أنت؟ تأتأ إتيان.

- كيف؟ أنا لا أفهم شيئاً في هذا التمرين!

- قلْ... قلْ لي فقط مَن... مَن أنت! قال إتيان وهو يرفع صوته كي يسمعه.

- مَن أنا، أنا... أنا... إنسان ذكي، بالتأكيد، أجاب فيكتور بنبرة واثقة.

- أنت... شخص... ذك... ذكي، وربما... ربما أيضاً... أحياناً شخص غب... غب... غبي.

- ماذا؟

- أنت... أنت... أنت غ... غبي.

- هيه؟

- أنت غب... غب... غبي، قال إتيان، منهكاً.

- تحدّث بصوت مرتفع!

- أنت... أنت مغفل! صاح في الأخير.

كان فيكتور مصدوماً إلى درجة أنه صفع إتيان الذي انفجر ضاحكاً.

- وهذا م... ممتع.

مباشرة أمامهما، رجل في الخامسة والعشرين أو الثلاثين يحمل نظارة زرقاء يجلس قبالة السيدة دو سيردغو، التي كانت تبدو منزعجة من التمرين.

- مَن تكونين؟ سألها الرجل.

- الجميع يعرف من أكونُ!
- أجل، لكن من أجل التمرين يجب أن تجيبي.
تنهدت بصوت مسموع.
- عندي لقب بارونة، أنت لا تجهل ذلك أيها الشاب!
- ربما كنتِ تتوفرين على اللقب، لكن مَن أنت؟
- عندي سمعة الكل يعرفها...
- نعم، أسمع ما عندك، لكن من أنتِ؟
- أنا لم أكفّ عن ترديد ذلك! عندي اسم معروف في المنطقة... عائلة دو سيردغو كانت عندها لوحة باسمها على هذا المقعد في الكنيسة قبل أن تخرج أنت إلى الوجود، صديقي العزيز!
- أنا لا أسألكِ عمّا عندك، لكن عن مَن تكونين...
- هذا مثير للسخرية، كل هذا! عندي إيمان، عندي إيمان، إذاً لماذا تزعجني؟
- عندكِ أيضاً الإيمان، عندك العديد من الأشياء، بالفعل.
كانت السيدة دو سيردغو غاضبة، فصاحت:
- هذا يجنّنني، هذا يُخرجني عن طوري!
مباشرة خلفها، فيكتور الذي فهم أخيراً التمرين والذي كان يعتقد أنّ الحديث موجّه له، أجابها:
- وهذا يجعلكِ سليمة وتحسّين بالرضا عن نفسك، وذلك رائع.
- آمين، تمتم جيريمي، بينما ارتسمَت ابتسامة خفيفة على شفتيه.
استمرّ برنامج أليس الديني، إذا استطعنا أن نسمّي ذلك الخليط من التنمية الذاتية والصحوة الروحانية الرامي إلى نقل ما تعلّمته من

رسائل المسيح، عدة أسابيع. كان يناوب بين الخطب الصريحة، والتمارين العملية، وصلوات تهدف إلى إرشاد أبناء الرعية في تجربة **الشاطئ الآخر**، الواقع الآخر، التجربة التي كانت الهدف من التأمل البوذي بحسب دوفيرني.

نحن نحسّ في داخلنا صوت عالم آخر، لكننا نجهل ما هو هذا العالم، كان إرنست رينان يقول. أليس هي كانت مقتنعة أنّ تجربته كانت أفضل طريقة لتطويعه.

كانت قد ألحّت، عبثاً، كي تسمي «تأملات» عدداً من الصلوات من أجل أن تلمس عدداً كبيراً من الناس، لأنّ وحدها كلمة «صلاة» يمكن أن تنفر. لكن جيريمي كان قد رفض:

- أنت تذهبين بعيداً، مهما يكن، نحن في كنيسة!

- اعترف أنّ الأمر سيان.

- ليس تماماً، الصلاة نتوجه بها إلى الله.

قطّبت أليس.

- هل يجب أن أذكرك أنّ المسيح كان يقول: «ليس كلّ مَن يقول لي يا رب! يا رب! يدخل ملكوت السموات»؟

لكنها لم تلحّ.

انتهى الأمر بالأوفياء إلى التعوّد على ذلك الطقس الديني وحتى أن يحسوا بمحاسنه. استمرّ الحديث ينتقل بين الناس وأخذت الكنيسة تمتلئ تدريجياً أسبوعاً بعد أسبوع.

لكن ما كان يجذب عدداً أكبر من الناس كان الاعتراف، الذي خضع هو أيضاً لتغيير من طرف أليس. كانت قد اخترعت مفهوم **الكفارة المتناقضة**، التي كان الهدف منها التحرّر من الأنا بالتهوين من النزعات الأنانية وبتعلم الضحك منها. الضحك يخلق مسافة مع

الأحداث، وأن يضحك المرء من نفسه له فوائد منقذة. كانت الفكرة أيضاً إثارة الوعي بنوازعنا، بعد أن نجعلها سخيفة من أجل أن تواصل الأنا الاستمتاع بها بصعوبة. الأنا بالنسبة إلى اللاوعي مثل معجون الأسنان بالنسبة إلى الأنبوب، عندما نخرجه، يصعب إعادته إلى الداخل...

كانت المتزمتتان، جيرمين وكورنيليا، قد فهمتا أن أليس تتحمَّل جزءاً من المسؤولية في تغيير عاداتهم في الأبرشية. كانتا ترمقانها بخبث وتلقيان عليها نظرات لاذعة وتشيحان ببصرهما بمجرد أن تمرّ بالقرب منهما. كانت أليس تخشاهما مثل الطاعون وتراقبهما بطرف خفيّ.

صباح ذات أحد في فناء الكنيسة، سمعت بعض أجزاء حديث مع السيدة دو سيردغو.

- يجب أن نتصرّف، قالت جيرمين.

- لا يمكن أن يستمرّ الوضع على هذا الحال، أضافت كورنيليا.

- أنت التي تتوفرين على نفوذ، يمكن أن تفعلي شيئاً!

- لم أنتظر حتى تطلبا ذلك، قالت السيدة دو سيردغو بترفّع.

نظرت إليها المتزمتتان وهي تبتعد، ثم توجّهتا نحو إتيان كي تتابعا عملية التقويض.

* * *

تشنج جيريمي كي يتمكّن من إرخاء ساقيه. ضحية نجاح العملية، كان محبوساً منذ أكثر من ساعتين في المعترف الضيق وبدأ يشعر بتشنّجات.

- عارضني أحد ما، أيها الأب، قال الصوت الأنثوي. صديق

لزوجي كان جالساً معنا في شرفة أحد المقاهي. لقد عارضني وفهمت جيداً أنه يريد أن يبرهن على أني مخطئة. لقد أحسست... بأني مغتاظة، تقريباً... مذلولة. منبوذة. ربما كان خطيئة كبرياء من جهتي...

- هل هي المرة الأولى التي يحدث لك هذا؟

- لا، في الواقع، هذا يحدث لي بانتظام، وليس فقط معه. أحسّ أني لست في حالٍ جيد عندما يعارضني أحد ما. أودّ بشدّة أن أتمتّع بسرعة البديهة، لكنها تنقصني.

فكَّر جيريمي للحظات.

- في المرة المقبلة عندما ستكونين في الوضع نفسه، قولي لنفسك «أنا أكون أفكاري».

- أنا أكون أفكاري؟

- أنا أوجد أساساً من خلال آرائي وأفكار وكلامي.

- أنا لا أفهم.

- قولي لنفسك «قيمتي الشخصية تنحصر في كلامي. إذا كان خاطئاً أو يُنظَر إليه على أنه كذلك، فهذا يعني أني لا أساوي شيئاً».

صمت.

- تعتقد ذلك، أيها الأب؟

- قولي لنفسك: «بمعارضته لي، هذا الرجل يقصدني أنا».

- ربما، في الواقع...

- بعد ذلك، أرغمي نفسك على برهنة أنك أنتِ التي على حق. لا تنتظري أن ينتهي الآخر من صياغة كلامه. بمجرد أن تخمّني أنه يعبّر عن خلاف، قاطعيه وأكدي وجهة نظرك، دون أن تدعيه يتحدث. يجب أن تكون لك الكلمة الأخيرة. عندما تكوني قد فعلت

ذلك، قولي لنفسك «لقد حافظتُ على قيمتي، سيحترمني الآخرون». ولو حدث أنك أدركتِ وأنت تسمعين أول اعتراض من الآخر أنه على حقّ وأنك مخطئة، لا تعترفي بذلك، لا تعيدي النظر أبداً في وجهة نظرك، بل على العكس أكّديها، وافرضيها. كرّري هذه التجربة عشرات المرات.

- لكن... أنا... لا أستطيع أن أفعل شيئاً مشابهاً...

- إذا لم تستطيعي ذلك، تعلّمي من رجال السياسة، هم جدّ موهوبين بالنسبة إلى هذه الأشياء.

- أنا... لست متأكدة أنها فكرة جيدة...

رغم كونه في منأى عن الأنظار خلف التشبيك الخشبي، حبس جيريمي نفسه من الابتسام، خوفاً من أن يظهر أثره في صوته.

- أنت تعارضينني؟

- طيب... فلنقُل إني لست متفقة تماماً.

اتخذ صوتاً متألماً.

- بحقّ أنت تعارضينني.

- أنا متأسفة، لكن... يصعب عليّ أن أوافقك.

سمح للصمت بأن يستمرّ، ثم اتخذ نبرة مجروحة ومكتئبة.

- أنت تنبذين كاهنك، أليس كذلك ابنتي؟

- لكن لا، أبداً! سارعت إلى القول مبرِّرة نفسها.

- أنت لا تحترمينني...

- بلى!

- أنت لم تعودي تحترمينني، أفهم ذلك جيداً...

- لا علاقة لذلك!

عمّ الصمت...

ثم أخذت تضحك، انفجرت من الضحك، رنّت ضحكتها في كلّ صحن الكنيسة.

ألقى جيريمي نظرة عبر الستار ولمح جيرمين وكورنيليا في الممر الرئيس، وهما ساخطتين.

- شكراً أيها الأب، قال الصوت الأنثوي. أعتقد أني بدءاً من الآن سأعيش الجدال بشكلٍ مختلف.

بعد دقيقة، بعد أن مدَّد ساقيه على قدر ما استطاع، سمع جيريمي صوت رجل.

- صباح الخير أيها الأب. في أحد الأيام رافقت ابني عند رفيقه. حفلة عيد ميلاد.

تحدثت قليلاً مع الأب، حديثاً شيقاً. في ذلك الوقت قلت إننا استلطفنا بعضنا ويمكن أن نلتقي من جديد. لكن عندما علمت أنه مدير مصنع، انتابني شعور غريب. هذا غباء لكني أحسست... بالخجل لأننا لسنا بالمستوى نفسه. مع أني في العادة فخور بمساري. أنا تقني تجاري. قبل ذلك كنت تقنياً واشتغلت بجدّ كي أترقى، وأنا فخور بذلك. لكن هنا... عندما أخبرني عن وظيفته... أحسستُ أني لست في المستوى، كما لو كنت... أقل. قلت لنفسي إني لا أشعر برغبة في رؤيته ثانية. أو في وقت آخر، عندما أكون قد حصلت على موقع ذي قيمة.

أخذ جيريمي نفسه.

- في المرة المقبلة، في حالة مشابهة، قلْ لنفسك إنّ هذا الرجل حاضرٌ أفضل منك.

- أنت قاسٍ...

- كي تستحق صداقته، يجب أن ترتفع اجتماعياً.

- هذا صحيح.

- من الآن، توقف عن رؤية أقربائك وعائلتك كي تخصّص أمسياتك ونهايات الأسبوع للعمل كي تحصل على ترقية. عندما ستحصل عليها، لا تتوقف عندها. كي تظلّ محفزاً للعمل أكثر، حافظ على إحساس أنك أقل قيمة كلما كنت بحضور أشخاص وضعهم الاجتماعي أعلى. سترى، هذا جدّ فعال.

- موافق.

- واصل العمل إذاً كي ترتقي درجات أخرى. وتذكر أن تشعر بأنك لست على ما يرام ما دام هناك أحد في مركز مرموق.

هذه المرة عمّ الصمت. عندما استأنف الرجل الكلام، كان صوته قد فقدَ حماسه.

- لكن سيكون هناك دوماً شخص فوق!

- لهذا لا يجب أن تتوقف عن التفرغ جسداً وروحاً من أجل الارتقاء الاجتماعي. لن تكون موجوداً بحقّ سوى في اليوم الذي ستكون فيه في المركز الأول.

ولأن الرجل لم يُجِب، أضاف جيريمي:

- أدعوك إلى تأمل هذه الأشياء لبعض الوقت...

لكنه كان يعلم أنّ الفكرة قد أخذت طريقها.

بدأ الجو يصبح حاراً. المعترف جيد في الشتاء، لكن في الصيف، يتحوّل إلى فرن.

الشخص الآخر الذي جاء ليعترف كان أيضاً رجلاً، مشكله الذكوري المحض جعل جيريمي يبتسم: كان مغتاظاً، ومقروصاً... في كلّ مرة ينطلق أحد قبله عند إشارة الضوء.

- جيد، قال له جيريمي. في المرة المقبلة عندما سيحصل لك

هذا، قل لنفسك: «أنا لم تعُد لي كينونة، لم تعُد لي قيمة، أنا لا أساوي شيئاً لأن قيمتي الشخصية تتوقف على تسارعي في الانطلاق. يجب أن أشعر بالخجل لأني فشلت وكلّ أسرتي الموجودة في السيارة يجب أن تحسّ بالخجل من أجلي، وكل المارة الذين حضروا الواقعة ينظرون إليّ كشخص منحطّ، رجلٍ أدنى فَشِلَ في حياته».

انفجر الرجل من الضحك. واصل جيريمي.

- افرض على نفسك أن تنطلق الأول عند إشارة المرور، وإذا تمكّنت من ذلك، هنئ نفسك: «ها هو، أنا رجل صالح، الجميع سيرون قيمتي، الكلّ سيُعجب بي، لقد نجحت في حياتي». كرِّر العملية عشرات المرات، مهما حصل.

- خرج من المعترف وهو يضحك.

- عندما أجد امرأة أجمل مني، أكون تعيسة، اعترفت الموالية. أمس تمّ مدح جمال سكرتيرة القسم التجاري أمامي فأحسستُ أني لستُ بحال جيد.

- أنتِ على حق في أن تكوني تعيسة، لأنّ تلك المرأة هي أيضاً أذكى منك...

صمت...

- ما...

- وهي تتمتع بصحة أفضل من صح...

- لكن...

- وهي أيضاً أكثر ثقافة، هي...

- لكن... ماذا تعرف أنت، أنا...

- هي أكثر روحانيةً منكِ...

- لكن. . .

- هي ناجحة أكثر منكِ في عملها، هي. . .

- لكن هذا غير صحيح!

رنّ الصوت في الكنيسة.

ترك جيريمي الصمت يعمّ، قبل أن يضيف، في نَفَسٍ:

- انتهت الجلسة.

24

عندما خرجت السيدة دو سيردغو من سيارتها التي ركنتها في الموقف الخاص في نادي الغولف في شالون، رأت السيدة لافونتين، لاعبة أخرى في النادي، تغلق باب سيارتها في اللحظة نفسها. سمراء شعرها قصير، تميل قليلاً إلى السمنة وتخفيها بالثياب الأنيقة، كانت امرأة تخصّص لطفها لبعض أشخاص تختارهم بحرص. بضعة أشخاص لا توجد ضمنهم السيدة سيردغو.

– كيف حالك؟ سألتها السيدة لافونتين بابتسامة مرحة.

– فهمت السيدة دو سيردغو بسرعة سبب البهجة غير المألوفة عندما لمحت حقيبة اليد فويتون التي تعلّقها على كتفها، الحقيبة التي جعلتها كلّ الصحافة النسوية في المقدمة، تلك التي شكّلت رغبة جميع النساء.

أجبرت نفسها على تحيتها بحركة خفيفة من رأسها ثم أدارت لها ظهرها كي تضع المفتاح في القفل اليدوي لسيارتها. كانت عتيقة، بالفعل، لكن على الأقل كانت جاغوار!

لكن الأخرى، التي كانت عادة تحتفظ ببعض المسافة، كانت عندها فجأة رغبات بالتقرّب.

- جئت باكراً اليوم!

من الواضح أنّ اهتمامها بذلك كان بقدر اهتمامها بالعام أربعين، ذلك كان فقط حجة لتتبختر.

واصلت الالتصاق بها وهي تضع حقيبتها تحت عينيها.

أسرعت السيدة دو سيردغو الخطى نحو النادي وهي متبوعة. كانت تحسّ بتشنج في بطنها، كأن سادياً يلوي لها مصارينها.

- رائعة هذه الشمس، تابعت الأخرى. يجب القول إننا انتظرناها، هذه السنة!

دجاجة، قالت السيدة دو سيردغو. كأنها دجاجة تقاقي.

في المساء، وحدها في ظلام القصر الخاص الذي تنازل لها عنه زوجها بعد الطلاق، فكرت في تلك الواقعة المغيظة. في كلّ مرة، كان الأمر مشابهاً. بمجرد أن يضع أحد ممتلكات لا تملكها هي في المقدّمة، كانت تحسّ بالغضب يتصاعد، مع بعض الكراهية. غضب لأنها بتلك الطريقة تمّ شتمها، غضب خاصة أنها لا تستطيع المنافسة بعد أن سلبها طلاقها الإمكانات. كان ذلك يفسد عليها يومها، وأحياناً الأمسية أيضاً، وبمجرد أن تلتقي المذنبين من جديد في طريقها، كانت الضغينة تظهر من جديد مثل جمرات تشتعل في الموقد عندما يعتقد الجميع أن النار قد خبت.

كانت قد أسرَّت بشياطينها لسلف الأب جيريمي. كانت لا تزال تتذكر جوابه. بعد أن استشهد بالمسيح، كان قد قال: «حيث يكون كنزكَ هناك يكون قلبكَ أيضاً». كان ذلك جميلاً، كان ذلك قد لمسها، بطبيعة الحال، وغالباً ما فكرت فيه. لكن ذلك لا يغيّر في ما تحسّ به، عواطفها التلقائية، أفكارها التي تخرج عن السيطرة بحضور امرأة مثل السيدة فونتين.

فكرت في الأب جيريمي. لا تملك الشجاعة لتذهب لرؤيته. هي التي كانت تهاجم طرقه غير المحترمة للتقاليد وكانت قد اشتكته إلى الأسقف عدة مرات.

فتحت الخزنة، وأخذت زجاجة برونيل دي بورغوندي، وصبّت بضع قطرات في كأس صغير خاص بالشراب.

احتفظت بالكأس في يدها واقتربت من النافذة ذات المربعات الصغيرة. أنّت الأرضية القديمة على شكل عظام الرنكة تحت وقع أقدامها. الزجاج القديم، ذو الواجهة المتموجة كان يشوّه رؤية الخارج. فوق أسقف المنازل القرن أوسطية، بدا برج جرس الكنيسة كأنه يميل قليلاً نحوها.

أغلب أبناء الرعية كانوا يقدّرون الأب جيريمي. خاصة الوافدين الجدد، الذين كانوا في غالبيتهم من الشباب. تنهّدت. ربما كانت قد أصبحت عجوزاً في رأسها حتى تقدّر الجديد...

شربت جرعة من الشراب، واستمتعت بنكهة اللوز. الشراب جاكولو... ابتسمت وهي تفكر أنها تأخذ الشراب نفسه منذ... ثلاثين سنة على الأقل.

بدا برج جرس الكنيسة كأنه يميل قليلاً نحوها.

كان أبناء الرعية الذين يعترفون للأب جيريمي يبدون مبتهجين. كانت أحاديث الفناء تدور كثيراً حول الحديث الذي جرى خلال الاعتراف. كان البعض يتحدثون وهم يضحكون، وآخرون وهم يذكرون الفائدة التي استقوها من ذلك.

أكيد، كان مغرياً...

حتى جيرمين وكورنيليا تبدوان كأنما أثير فضولهما. أكيد، هما

تواصلان شجب ممارسات الكاهن التي يخبر عنها المعترفون، لكن ألا يخفي الشجب المحتدّ رغبة مكبوحة؟

شربت جرعة أخرى من الشراب وتساءلت فجأة إن لم يكن ذلك التفكير متطابقاً مع تفكيرها. أزعجتها الفكرة، ونامت تلك الليلة وهي تائهة.

في صباح اليوم الموالي، أخذت قرارها بمجرد أن استيقظت. تهيأت، لبست ثيابها وتبرجت مثل كلّ يوم بعناية، ووضعت حليها. كانت واعية بالطابع اللامعقول للوضع، أن تضع كلّ زينتها كي تذهب لتعترف بارتباطها بالمادة والصورة. لكن حالنا لا ينصلح، علاوة على أنه كان من غير المتخيل أن تضع رِجْلاً في الخارج دون أن تشتغل على مظهرها كي تحافظ على مركزها وتحافظ على سمعتها كالمرأة الأكثر أناقة في كلوني.

عندما انتهت من تحضير نفسها أخيراً، قصدت الكنيسة. كان هناك العديد من الناس ينتظرون في ظلام الجانب المنخفض، واضطرت للانتظار في الصف، الشيء الذي لم يعجبها البتة. وأخيراً دخلت المعترف. كان عطر المرأة التي سبقتها لا يزال يطفو في الجو. عطر عادي.

كانت تشكّ أنّ الأب جيريمي سيتعرّف على صوتها، وكان ذلك يكلّفها أن تصرّح بدناءتها.

حاولت أن تقوم بذلك بكل عزة نفس.

عندما انتهت، سقط الصمت وانتظرت رابطة الجأش أن ينطق الكاهن بكفارتها.

- بدءاً من الآن، ستجمعين أجمل ثيابك. . .

- جيد.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- وترتديها كلها.

- عقدت حاجبيها.

- أرتديها كلها...

- أجل.

- أيها الأب، أعتقد أنّ كلامك يحتاج إلى بعض التوضيح.

- الأمر بسيط، ستضعين ثيابك فوق بعضها.

- أضعها فوق بعضها؟

- تماماً.

- لا أفهم.

- بلى، تفهمين.

كيف يمكن أن نطلب من تائب شيئاً مضحكاً؟

أحسّت بالغضب يعتريها وأجبَرت نفسها على أن تتنفس بعمق كي تسيطر عليه. لا يجب أن يكشف صوتها عن انزعاجها.

- فلنكُن واقعيين، هذا ليس عملياً.

ما الذي دهاها لتذهب للاعتراف عند هذا الشاب الطائش؟

- بعد ذلك ستجمعين كلّ مجوهراتك...

- مجوهراتي...

- وتضعيها كلها.

- أضع كل مجوهراتي؟

- أجل.

- كلها مرة واحدة؟

- فعلاً.

أيّ شيء.

أحسّت بتوترها يصعد عدة درجات.

- بعد ذلك ستحضرين جميع أدوات الزينة لديك.

- الزينة.

كانت تحبس غضبها إلى درجة أن شفتيها أخذتا ترتعشان وصوتها يخرج ضعيفاً.

- ستضعين عدة طبقات من كريم الأساس...

- من كريم الأساس.

- عدة طبقات من ظلال العيون...

- من الظلال.

بالكاد كان صوتها يصل إلى أذنيها.

لماذا يتركون سادياً شاذاً يُقيم القداس في كلوني؟ أحسّت أنها تشبه طنجرة ضغط غطاؤها مسمّر إلى العمق.

- ثلاث طبقات من الماسكارا...

- الماسكارا.

ماذا كان يفعل الأسقف، بحق الرب؟

- أربع طبقات من أحمر الشفاه...

- لكن هذا لا يدلّ على شيء! انتهى بها الأمر إلى الانفجار. تخيّلني لحظة بتلك الأشياء! سأختنق! لو حملت كلّ تلك الأشياء، فلن يستطيع أحد رؤيتي!

رنّ صوتها في الكنيسة، وفي رأسها.

لم يُجِبْ الكاهن بشيء.

قطعاً لا شيء.

غادرت المعترف وهي مذهولة ومرتبكة. عادت إلى بيتها وحبست نفسها بقية اليوم. تكررت الكلمات التي نطقتها بشكل مستمر في ذهنها.

سأختنق... لو حملت كلّ تلك الأشياء، فلن يستطيع أحد رؤيتي.

خلال المساء، حملت كأس البرونيل في يدها، والزجاجة تقريباً فارغة بالقرب منها، كان الضغط قد خفّ، تأمّلت ما تعنيه الجمل التي خرجت من فمها في لحظة الغضب.

التملُّك يُبعد عنا الآخرين.

كلما اعتنينا بصورتنا، كلما خنقنا كينونتنا.

25

كانت سحنة تيو الفرحة تسرّ العين. جالساً على مقعده الفيروزي أمام طاولة معدنية ضاربة إلى الحمرة، كان يستمتع بكرة الآيس كريم من الخوخ التي تتخطّى قرنها.

كانت أليس تعشق المجيء عند لويز، محل المثلجات الموجود مباشرة عند باب الدير القديم. من الشرفة المرتجلة على الأرض الوعرة ذات الأرضية الرديئة، بين أنقاض الحجارة الذهبية التي تسترد أيضاً حرارة الشمس، كانت الرؤية المطلّة على الأنقاض المشمسة ممتعة.

كانت أليس تشرب قهوتها بهدوء عندما لمحت زوجَي شارول اللذين كانا يرغبان في رؤية جيريمي ذات يوم سبت. تعرَّفا عليها وجاءا نحوها.

- هذا جيد، قالت المرأة. كنا نسعى لرؤيتك.

- أنا؟

- الأب جيريمي لا يكون هنا عندما نأتي، ثم... طلبُنا خاص نوعاً ما... قيل لنا إننا لو مررنا عبرك أنت فإنّ حظوظنا لإقناعه ستكون أوفر.

كانت أليس مشدودة.

- مَن قال لكما ذلك؟

- امرأة في فناء الكنيسة.

- حسناً... لكن لستما بحاجة إلى دعم من أجل طلب تعميد، تعرفان...

بحثَت المرأة التي أحسّت بالضيق بعينها عن دعم زوجها. ظلّ ينظر إلى قدميه.

- في الواقع، رفض الكاهن في شارول تعميد ابننا، لذا طلبنا من كهنة القرى المجاورة.

- رفض؟ لماذا بحق الله رفض؟

- بحثت المرأة عبثاً عن نظرة زوجها.

- حسناً، في الواقع، عندما عمّدنا الابن البكر كنا قد التزمنا بأن نُدخله التعليم الديني.

و... لم نفعل ذلك. ليس خطأنا، هو لا يريد. لقد تحدّثنا معه، حاولنا أن ندفعه. لكنه لا يريد. لا يمكن أن نرغمه... لكن الكاهن يقول إنه في هذه الظروف لن يعمِّد الصغير.

تساءلت أليس عن المشكل الذي يطرحه تعميد الطفل الثاني للكاهن. لا بدّ أن شيئاً ما يفلت منها.

- وبالمرة، واصلت المرأة، رفَضَ كهنة الأبرشيات المحيطة هم أيضاً، لأن الجميع على علم، ترين؟ نحن محصوران...

تنهدت أليس.

- هل تحرصان فعلاً على تعميد الطفل؟

اتّسعت عيناهما اندهاشاً.

- لكن أجل... نحن حريصان على ذلك! قالت المرأة.

- سيكون الأمر فظيعاً إنْ لم نفعل، أضاف زوجها.

لم تكن أليس تفهم سبب الفظاعة في ذلك، لكن نبرة الصّدق في هيأتهما أثّرت فيها.

- سأتحدث مع الأب جيريمي، انتهت إلى القول.

- آه، شكراً!

اعتقدت أنهما سيقعان على ركبتيهما أمامها.

- أنا مقتنعة أنه سيقبل، أضافت مطمئنة.

- صحيح؟

- أعتقد ذلك.

- آه، شكراً! شكراً!

- أرجوكما.

- تَعِدِيننا، هيه؟

نظرت إليهما أليس، وهما يمسكان بيد بعضهما، مترجيان. كانا مؤثِّرَين. وافقت.

* * *

أدار الأسقف الجمشت بعصبية حول أصبعه، وهو يسير على طول النوافذ المرتفعة في مكتب الأسقفية. في الخارج، كانت السحب تتراكم في السماء. هبّت الريح، العاصفة التي تمّ الإعلان عنها ستصل قريباً. كانت الريح تحمل رائحتها.

- لقد كنت صبوراً إلى حدّ الساعة، سيادتكم، قال معاون الأسقف.

كان واقفاً، متصلّباً كالعادة، شعره رمادي وملامحه رُسم عليها التعنّت رغم صغر سنه.

لم يُجِبه الأسقف.

كان دائماً مشجعاً لنوع من الحرية داخل الأبرشيات، لكن صحيح أنّ الأب جيريمي يبالغ.

- هو لا يستمع إليك، ألحّ المعاون وهو يزم شفتيه.

في الخارج، ظهرت أولى قطرات المطر. كانت طيور السنونو تطير بمحاذاة الأرض، في حفل سريع.

فكّر الأسقف في الشهادات التي توصّل بها. كلها تتوافق. كان الأب جيريمي يتوه...

- يجب أن نثابر، قال الأسقف. حاول أن تُعقِّله.

- لا داعي لذلك. هو لا يستمع لنصائحنا.

كان المطر يسقط غزيراً. انطلقت مِهار المرج المجاور راكضة.

- المسيح يدعو للبحث عن الشاة الضائعة، قال الأسقف.

- هذه الأخيرة لا تريد العودة إلى الحظيرة، سيادتكم.

تنهّد الأسقف. كان معاون الأسقف محقاً، بكلّ وضوح.

- إنها صورة الأبرشية هي التي يمكن أن تعاني، قال المعاون.

لم تكن الحقيقة بمثل تلك البساطة التي تبدو عليها. كان هناك احتمال قليل أن تصل تجاوزات جيريمي إلى الكرسي الرسولي. تزايد عدد الأوفياء الناتج لا يمكن سوى أن يخدمه، هو. كان البابا يقدِّر الأساقفة القادرين على جذب القطعان إلى حظيرة الكنيسة.

- سأفكّر في الأمر، قال له. سيقود الله قراري.

* * *

الأربعاء 10 أغسطس، الثانية بعد الزوال.

أمسكت أليس هاتفها وركّبت الرقم.

فتحت السكرتيرة الخط، أعلنَت أليس لمخاطبها، ومرَّرت المكالمة.

- إذاً، ما هو ذلك السؤال الذي كان يؤرقك؟ قال جاك لابوري.

ابتسمَت أليس. استئناف حديث بدأ منذ أسابيع كان شيئاً سريالياً.

- حسناً... لقد شرحتَ لي الانفجار الأولي، الانفجار العظيم، تكوّن النجوم والكواكب، ظهور الحياة الناتجة من النجوم أو من انفجارها، وأتساءل عن نقطة جد خاصة. غالباً ما سمعت العلماء يجيبون المؤمنين بأنّ الله لم يخلق الكون، بما أنّ الانفجار العظيم هو الذي يشكّل أصله.

- أجل.

- جيد. الانفجار العظيم خلق الكون. وسؤالي هو مَن خلق الانفجار العظيم؟

أخذ العالم الفيزيائي يضحك.

- أرى إلى أين تريدين أن تصلي. لكن إن كنتِ تبحثين عن إله في مكان ما، من الأفضل أن تبحثي عمّا حدث مباشرة بعد الانفجار الكبير.

- بعده؟

- سأقول بأنّ هناك يكمن سرّ يمكن أن يسمَح بطرح بعض الفرضيات.

- أنت تثير فضولي...

- لقد شرحتُ لكِ في آخر مرة أنّ الحياة نتجت عن الشظايا التي التحمت.

- أجل، وبأننا جميعنا غبار نجوم.

- يجب أن نفهم أنه لو لم تكن هناك نجوم، لم تكن الحياة لتوجد. كان الكون المخلوق ليكون عقيماً.

- أفهم.

- ينبغي أن ننهمك للشيء الذي جعل ظهور النجوم في الكون ممكناً.

- طيب.

- وهنا، ندرك أنه كان يلزم أن تجتمع بعض الشروط خلال خلق الكون، شروط محدّدة بدقة.

- حسناً.

- هذا يخصّ خصائص الكون. كان يجب أن يتوفر الكون على خصائص خاصة ومحدّدة. وإلّا فإنّ النجوم لم تكن لتظهر.

- ومَن يحدد خصائص الكون؟

- عدد من العناصر، مثل معدّل المادة السوداء، معدل الانتشار الأولي، كتلة البروتون، سرعة الضوء، كتلة الإلكترون، ثابتة الجاذبية، وأشياء أخرى.

- حسناً.

- كان يجب أن يوجد كلّ واحد من هذه العناصر في مستوى جدّ محدّد كي يجمع الكون الخصائص اللازمة لظهور النجوم.

- طيب.

- كأنما كان يجب استعمال ضبط جدّ دقيق لكلّ واحد من هذه العناصر، لأنه لو تحدّد واحد منها بشكل مختلف، باختلاف ميكروسكوبي، متناهي الصغر، فإنّ الشروط لم تكن لتكون مجتمعة من أجل خلق النجوم. وكما كنت أقول: لا نجوم، لا حياة.

فكَّرَت أليس بضع لحظات.

- السؤال الذي يحضر إلى الذهن هو مَن وضع هكذا ضبط؟

- هذا هو!

- ألا يمكن أن تكون... الصدفة؟ يحدث الانفجار العظيم، وبالصدفة البحتة، يجد الكون الذي يظهر دفعة واحدة كلّ الخصائص اللازمة لتكون النجوم، المعدل اللازم من المادة السوداء، المعدل اللازم من الانتشار، المعدل اللازم من كتلة البروتونات وكل الباقي. لا؟

- هذا احتمال.

- لكن؟ لا أشعر أنك مقتنع...

أخذ نفَسَه.

- كان يكفي أن يتغيّر واحد من العناصر المحدّدة لخصائص الكون بشكل طفيف كي لا تجتمع الشروط، وألّا تظهر النجوم أبداً. يجب أن نفهم أنّ الأمر يتعلق بضبطٍ شديد الدقة.

أقرّته أليس بتفكر.

- وما هو احتمال أن يقع هكذا ضبط صدفة؟

- احتمال بقدر 10^{-60}. تغيرين عدداً واحداً في العشرات الستين، ويضيع كلّ شيء، لا نجوم، لا حياة. الفراغ.

صمتت أليس، وهي مشغولة البال.

استأنف جاك لابوري:

- يستعمل زميلي ترينه شوان ثْوانْ صورة ليوضح احتمال 10^{-60} بأن تكون الحياة ثمرة الصدفة، إنه احتمال أن يصيب ضاربُ رمح هدفاً من سنتمتر مربع في آخر الكون، على بعد 14 مليار سنة ضوئية.

26

واقفة قرب جرن الماء المقدّس، كانت جيرمين تراقب بِحَيرة صفّ أبناء الرعية أمام المعترف.

- هذا جنون، قالت.

- لم أتخيّل أبداً طيلة حياتي الكنيسة ملأى، قالت كورنيليا.

- هل كنتِ تتوقعين رؤية ذلك بعد موتك؟

- أنت تسخرين مني، تأوهت كورنيليا.

نظرت جيرمين بازدراء إلى وافدٍ جديد، رجل في حوالي الثلاثين من العمر.

- يوجد أناس لا نعرفهم.

قطّبت كورنيليا.

- كان الوضع أفضل عندما كنا لوحدنا.

عقدت جيرمين حاجبيها وأشارت بذقنها ناحية المعترف.

- أتساءل لماذا يعجِب هذا الناس. ما حكوه عنه لم يقنعني.

هزت كورنيليا رأسها.

- أودّ لو أكون جرذاً صغيراً. . .

نظرت جيرمين إلى صديقتها وقالت في نفسها إنها تشبه بالأحرى فأرة كبيرة.

- لو فقط كنت أستطيع أن أتسلّل إلى الداخل دون أن يراني أحد...

- ابدئي حمية في الحال.

خرجت من المعترف امرأة، كانت جذلى.

تبعتها جيرمين بعينيها بينما كانت تصعد الجانب المنخفض.

- هذا ليس طبيعياً، قالت وهي تهزّ رأسها. الدين ليس من أجل الضحك.

- تعتقدين؟

- يجب أن نكون على صورة المسيح.

رفعت كورنيليا عينيها ببطء نحو المسيح المصلوب، ثم أقرّت وهي تتنهد بهيئة منزعجة.

مرت المرأة أمامهما وهي مبتسمة كي تخرج من الكنيسة.

كانت جيرمين ممزّقة بين عدم رضاها والفضول الذي كان ينهشها.

- عندي فكرة! ستذهبين لتعترفي. بهذه الطريقة سنعرف ماذا يحدث!

شحب لون كورنيليا.

- آه لا... لن أجرؤ...

- ماذا ستخسرين؟ هيا، تقدمي!

- لن أمتلك الشجاعة. ليس أمامك سوى أن تذهبي أنت.

- لكن أنا ليس لديّ ما ألوم عليه نفسي.

رفعت كورنيليا كتفيها وتركتهما يسقطان دلالة على العجز.

- طيب... ليس عليك سوى أن تتحدثي عن عيبنا الصغير...

- الذي هو؟

- تعرفين جيداً...

- لا.

- نميمتنا... عندما نخبر الناس بما نعتقده حول الآخرين...

- هذه ليست نميمة. نحن نفتح أعينهم.

- بقيت كورنيليا صامتة، الوقت اللازم كي يعالج دماغها المعلومة.

- إذاً في هذه الحالة، تظاهري بأنها عيب. في جميع الأحوال الأمر ليس خطيراً، السرية مضمونة.

- سيتعرّف على صوتي!

- هو ملتزم بالكتمان.

قطّبت جيرمين. هذا يستحق التفكير.

* * *

أمسكت أليس الورقة الصغيرة التي قدّمتها لها الراهبة إيكيا التي كانت تنظر إليها بعينين تشعان طيبة وابتسمت لها بالمقابل. مع حوالي عشر ورقات على الأقل في حقيبة يدها، كانت قد تعوّدت على هذا الطقس الصغير الذي كان معناه لا يزال يفلت منها.

وهي تخرج من الكنيسة بسطت الورقة، وهي تحسّ إحساس طفل يفتح جيب بانيني على أمل الحصول على القطعة الناقصة في مجموعته. مع تفصيل وهو أنها تتوفر على المجموعة الكاملة.

أعماها ضوء الشمس القوي وهي تخرج من الظلّ، وجدت صعوبة في قراءة الكلمات التي خُطَّت باليد.

كان المسيح يقول: **الذي يعرف كلّ شيء، إذا حُرِمَ من نفسه، حُرِمَ من كل شيء.**

قرأت الخطاب ثلاث مرات، بإحساس غريب.

هذا الكلام لا يوجد في الأناجيل.

كانت متأكدة.

حولها، كانت الساحة فارغة. كان السياح قد اضطروا للهروب من حرارة فترة بعد الظهيرة كي يجلسوا في صالون شاي أو مغارات آزي أو بلانو. دخلت إلى بيت والدها وشبكت حاسوبها المحمول بالإنترنت.

كتبت نصّ الخطاب وشغّلت عملية البحث.

أوردته عدة مواقع بالصيغة نفسها. كلها تحيله إلى المصدر نفسه.

إنجيل توما.

لم تسمع أليس بهذا أبداً من قبل.

انتابها شكّ. أخرجت من حقيبة يدها قصاصات الأوراق التي قدّمتها لها الصماء البكماء في السابق، بسطتها أمامها على المكتب. قرأت كلمات المسيح التي نقلتها الراهبة واحدة تلو الأخرى. هل كان مصدرها أناجيل الكتاب المقدس، كما كانت تعتقد؟ كان الأمر يبدو لها كذلك.

ترددت، ثم قرّرت أن تتحقق من الأمر، كتبت نص إحدى الورقات على محرّك البحث، **طوبى لكم عندما تُكرهُون وتُضطهَدون، فلن يُعثَر على بقعة في المكان الذي اضطُهِدتم فيه.** وأطلقت البحث.

إنجيل توما.

أخذت التوراة، قرأت بسرعة مختلف مقاطع الأناجيل الأربعة، ووجدت ما تبحث عنه. بالنسبة إلى كلّ منها، كان المعنى قريباً، لكن الصيغة مختلفة.

فعلت الشيء نفسه مع نصوص باقي الأوراق المكتوبة. في كلّ مرة، كان المعنى قريباً، الشيء الذي ضلّلها، لكن الجمل مختلفة.

تنفست أليس بعمق وهي تنظر من النافذة إلى حديقة والدها، الياسمين المزهر المتسلّق على طول الحائط الحجري العتيق.

كل كلمات الصماء البكماء مستقاة من إنجيل توما الذي كانت تجهل وجوده إلى حدود تلك اللحظة...

قامت ببحث على الإنترنت ووجدَت مصدره بسرعة.

سنة 1945، قرب نجع حمادي، في مصر العليا، وجدَ فلاح صدفة جرّة في إحدى المغارات. كانت تحتوي على ثلاثة وخمسين مخطوطة مجموعة في حوالي اثني عشرة بردية سماها علماء الآثار كوديكس. أحدها كان إنجيل توماس، مكتوب باللغة القبطية، لغة قريبة من الهيروغليفيات المصرية القديمة. كان علماء الآثار على علم بوجود مثل هذا الإنجيل الذي كشفت بعض أجزائه في تنقيب بأوكسيرينخوس، موقع مصري آخر تمّ التنقيب فيه منذ عام 1896. المخطوطة التي تمّ اكتشافها في نجع حمادي تكون نسخة نقلت في القرن الثاني عن النص الأصلي الذي تدلّ حزمة من المؤشرات على أنه كتب في القرن الأول.

بحسب المؤرخين، هو يحتوي على عناصر سابقة لكتابة الأناجيل التي يُقال عنها قانونية، يعني المعترف بها رسمياً من طرف الكنيسة.

واصلت أليس بحثها ووجدت أنّ المسمى توما، أحد حواريي المسيح الاثني عشر، كان قد اشتهر عنه أنه نَصّر سوريا، في منطقة أورفا. كانت قد تأسّست فيها طائفة مسيحية من طرف أحد تلامذته. طائفة تفهم الإيمان على أنه طريقة عيش، مسلك، وليس عقيدة...

طريقة عيش، مسلك. هذا بالضبط ما كانت أليس تستوعبه من كلام المسيح.

في تلك الفترة اختار الفاتيكان أن يعلن إنجيل توما كتاباً منحولاً، يعني غير حقيقي، حتى ولو أنه بعد سنوات خلال جلسة عامة، ذكر البابا بينوا السادس عشر بشكل خجول أهميته. ماذا يمكن أن تكون أسباب الرفض؟

حصلت على إنجيل توما على المباشر.

لأن المسيح لم يكتب شيئاً خلال حياته، كلّ الكلام الذي نعرفه عنه جاء به حواريوه أو أقرباؤهم، الشيء الذي يفسّر اختلافات تعود إلى الذاكرة أو الفهم، كلّ واحد رغماً عنه يكون متأثراً في سماعه بانشغالاته الخاصة وقناعاته ومعتقداته....

الأناجيل القانونية الأربعة، أناجيل متّى ومرقس ولوقا ويوحنا، هي نصوص يسرد كلّ منها حياة المسيح من خلال عيني الكاتب. متّى ويوحنا كانا حواريي المسيح. مرقس ولوقا، قريبان لحواريي المسيح، لم يعرفا المسيح مباشرة. النسخ الأربعة جد متشابهة، خاصة نسختَي مرقس ومتّى.

وجدت أليس إنجيل توما جد مختلف، لم يكن الأمر يتعلق هذه المرة بقصة تحكي حياة المسيح. لا نجد فيه أية طرفة، ولا أية معجزة، لا شيء عن الحكم عليه بالموت، لا شيء عن قيامته...

ذلك الإنجيل يكتفي بإيراد كلام المسيح في حالته الأصلية، من دون تعديلات ولا تعليقات.

منذ بداية قراءتها، أحست أليس بنفسها مضطربة، هذه الكلمات تذكّرها بكلمات معلم شرقي. غامضة وأحياناً متناقضة، لا يظهر معناها من الوهلة الأولى، لكنه يوقظ شيئاً ما في داخلنا، بشكلٍ غامض.

عندما انتهت، تركت نفسها تستلقي إلى الخلف على كرسيها ونظرت فترة طويلة من النافذة إلى الزهور والطيور والسحاب.

الشيء الذي يتضح عند قراءة هذا الإنجيل، هو أنّ المسيح كان يتمتع برؤية لاثنائية تلتقي مع رؤية لاو تسو والمعلمين الروحانيين، التي تتعارض مع الرؤية الثنائية التي تتبناها الكنيسة. الرؤية الثنائية التي تفصل الإنسان عن باقي العالم، التي تفصل الإنسان عن الله...

في ذلك الإنجيل، يدعو المسيح إلى الاستبطان ومعرفة الذات ويلحّ كي يقول إن الله يوجد أيضاً في داخل الذات.

في داخل الذات.. لكن لماذا يقول العكس في الأناجيل القانونية؟ تذكرت أليس أنها تحقّقت منذ أسابيع من الصيغة التي يستعملها بشأن ذلك الموضوع. رداً على مجموعة من الفريسيين سألوه عن مكان وجود ملكوت الله، أجاب المسيح من دون غموض «إنه بينكم»، وليس «فيكم». لماذا هذا التناقض؟ هل أخطأ الإنجيليون في كتابة كلام المسيح، أو أنّ هذا الأخير كان غير مترابط؟

تنهدت أليس وهي تفكّر. نظرت في الحديقة إلى طائر سنونو

يغني على غصن شجرة الكرز، قبالة ثلاثة طيور أخرى مصطفّة على حبل الغسيل. ابتسمت وهي تفكر أنه ربما كان يقدم خطاباً روحانياً لباقي الطيور، ستقوم الأخرى بتوصيله بعد ألفي سنة، ربما بتشويهه قليلاً! ودّت لو تستطيع ترجمة لغته...

خلق فيها ذلك الرغبة في أن تتحقق من أن «بينكم» الصادرة عن المسيح لم تكن ثمرة ترجمة سيئة. وجدت المقطع المعني، آية 21 الإصحاح السابع عشر في إنجيل لوقا. بضع نقرات كانت كافية كي تصل مباشرة إلى الترجمات الرئيسة للكتاب المقدس، المعروفة وأكثرها شهرة وانتشاراً.

في كتاب القُدْس، وجدت أليس، وهي تشعر بالخيبة، التعبير نفسه: «بينكم». ثم لمحت ملاحظة في أسفل الورقة تحدّد «تترجَم أيضاً «في داخلكم»، الشيء الذي لا يبدو أنه يتضح من السياق». حسناً، حسناً...

واصلت البحث.

الترجمة المسكونية للكتاب المقدّس تستعمل أيضاً «بينكم»، مع نجمة تحيل هنا أيضاً إلى ملاحظة أسفل الصفحة، سارعت أليس إلى قراءتها: «تترجم أحياناً: «في داخلكم»، لكن هذه الترجمة من مساوئها أنها تجعل من ملكوت الله حقيقة داخلية فقط وخاصة».

أبحرَت حتى وجدت موقعاً ينشر النسخة اليونانية الأصلية لإنجيل لوقا، عزلت الآية 21، ورصدت التعبير المستعمل:

entos ùmôn estin.

تحققت في عدة مواقع للترجمة المباشرة. جميعها كانت تترجم بـ:

هو في داخلكم.

خشية تقريبٍ محتَمَل، عمقت بحثها حول المصطلح entos، وعلمت أنه لا يعني فقط الداخل، بل العمق الحميمي في الكائن.

استلقت أليس إلى الوراء على كرسيها.

إنه ببساطة شيء ضخم.

كان المترجمون قد استبدلوا عمداً «الله في داخلكم» بـ«الله بينكم»، لأن تلك الفكرة كانت تزعجهم.

هائل.

كانت أليس تعتقد أنّ كل واحد من الإنجيليين يمكن أن يكون قد غيَّر كلام المسيح عن غير قصد بسبب انحيازه لفهمه. لكن أن يكون المترجمون قد غيروه عمداً يتجاوز الفهم.

إذاً طبعاً، هذا يغيّر كلّ شيء...

كلما اقتربنا من تصوّر لاثنائي، حيث كلّ واحد منا، غبار نجوم، سيكون قطعة من الكلّ وبالتالي قطعة من الله، كلّما رسمنا تصوراً أحسَّت أليس أنها يمكن أن تنحاز إليه -حتى ولو لم تكن تعرف ماذا تضع خلف مفهوم «الله»: قوة خلاقة؟ وعي جماعي يتوفر كل واحد منا على جزء منه؟

كلمات المسيح التي أساءت إليها الترجمة تدفع للتفكير بأنّ عناصر أخرى من كلامه أو رؤيته للحياة قد تمّ تحريفها... كيف السبيل لمعرفة ذلك؟

عادت أليس إلى لوحة المفاتيح، أجرت بحثاً، عبثاً، الإصدارات حول الكتاب المقدس كانت جدّ عديدة بحيث كان يستحيل أن نجد أيّ شيء بسرعة دون أن نوجه البحث بدقة.

قام دمها بدورة واحدة. رافاييل دوفيرني. خبير الروحانيات

الشرقية. لا بد أن لديه اتصالات مع اختصاصيين في المسيحية. بالضرورة.

أمسكت هاتفها، واتصلت بالقصر وأجبرت محيطه كي تتمكّن من التحدث معه. كانت تتخيله في قاع قبوه، على كرسيه لويس الخامس عشر على السجاد الفارسي، تحيط به البراميل، والعديد من الزجاجات والكؤوس المتسخة، وقد أعطى تعليمات صارمة كي لا يتمّ إزعاجه. لكن خبرة البحث التجاري تغلّبت على مقاومة المحيط، وانتهى الأمر بأن سمعت الصوت المألوف في البعيد، صوت الاختصاصي المعزول، العدائي بشكل مضحك.

- لماذا جاءت لتزعجني مرة أخرى، سمِعَتْه يقول عندما كان يقترب من السماعة.

لم تستطع أن تحبس نفسها عن الضحك.

- ماذا تريدين هذه المرة؟ قال من دون مواربة.

- دفتر العناوين خاصتك، قالت بكلّ هدوء.

- أنت المرأة الأكثر جرأة التقيتها أبداً.

وأذعن.

27

كان الطريق المتعرّج يواصل التواءه في الجبل. تراكَمَت السحب السوداء بسرعة شديدة في سماء ملبّدة في نهاية اليوم. ستصل أليس قبل حلول الليل. كانت تتمنى فقط ألّا تشتد العاصفة قبل عودتها. كان بإمكانها أن تنتظر إلى اليوم الموالي كي ترى جيريمي بهدوء في الكنيسة أو في البيت، لكن تيو كان قد نام باكراً. من الأفضل أن تستفيد من هذه الأمسية من الحرية.

جرّار معطّل يقطع الطريق إلى قمة جبل سوان. تركت سيارتها على الجانب المنخفض وقطعت على قدميها غابة مورفي المليئة بالصخور الغريبة التي تبدو كأنها سقطت من السماء. عند خروجها من الغابة، سلكت الطريق الذي يصعد في الأرض البور المعطرة، وسط الوزّال والخلنج. على ارتفاع ستمائة متر، كان الهواء أكثر برودة منه في الوادي.

لمحت تمثال العذراء بسرعة، هناك في قمة الهضبة، ثم وهي تقترب أكثر، تعرّفت على خيال جيريمي، من ظهره.

كان رداؤه الكهنوتي الذي تضيئه أشعة الشمس المحتضرة

ينفصل عن السماء، سماء مع ذلك تملؤها سحب داكنة تبدو مستعجلة للوصول إلى مون بلون، هناك في الأفق.

بعد أن التهمته الرياح، ارتفع صوت أجراس الكنيسة الرومانية في الأسفل بصعوبة إليها.

اقتربت. استدار جيريمي وراقبَها تتقدم نحوه، ووجهه خالٍ من أيّ تعبير.

- مررت عند والدتك وأخبرتني أنك ستكون هنا، قالت وهي تستردّ نفسها.

لم يجب، اكتفى بمراقبتها بانعزالية لطيفة بينما كانت الريح تحرّك شعرها. استعادت نفسها وهي تستمتع بالمنظر الطبيعي. في جميع الاتجاهات، الوادي والتلال والغابات تمتد إلى ما لا نهاية، حتى تختفي بعيداً في الأفق.

خطوا بضع خطوات جنباً إلى جنب في صمت، مقتربين من الصخور المستندة بعضها إلى بعض في قمة الهضبة، والتي يهيمن عليها التمثال.

تحدّثت أليس:

- أخبرني أحد ما عن أسطورة هندية قديمة. تتحدث عن وقت كان فيه جميع الرجال آلهة. لكن الرجال استغلّوا ألوهيتهم إلى درجة أن براهما، الإله الخالق، قرّر أن يسحبها منهم ويخبئها في مكان حيث لا يمكن أن يجدوها. اقترحت الآلهة المساعدة أن يدفنها عميقاً، لكن براهما أجاب بأنّ الرجال سيحفرون وسيجدونها. في قاع المحيط؟ لا، سينتهي بهم الأمر إلى أن يغوصوا ويستردونها. اعترفت الآلهة المساعدة بأنها لا تتوفر على أفكار، لا يوجد مكان لا يستطيع الإنسان أن يصل إليه يوماً. حينئذٍ قال لهم براهما: «سنُخفي ألوهية

الإنسان في أعماق ذاته، لأنه المكان الوحيد حيث لن يبحث فيه عنها». ختمت الأسطورة أنه منذ ذلك اليوم استكشف الإنسان الأرض برمّتها وكذلك قاع المحيطات، بحثاً عن شيء يوجد في داخله.

ابتسم جيريمي دون أن يجيب.

قاما ببضع خطوات، صعدا على صخرة، جلسا ورجلاهما في الفراغ.

في البعيد، نحو وادي لالوار في الغرب، مرّ شعاع في السماء في صمت.

- لقد وضَعتُ يدي على إنجيل توما. الإنجيل الذي يطوّر فيه المسيح رؤية لاثنائية جدّ مختلفة عن مذهب الكنيسة.

بقي جيريمي رابط الجأش، طيف ابتسامة خفيفة على شفتيه.

- وفي الحال أجريت بحثاً. لقد تحدّثت للتو مع بعض المتخصصين الذين استطعت الاتصال بهم، أناس رائعون نادراً ما تعطى لهم الكلمة. وعرفت أشياء كنت أجهلها تماماً. يبدو أنّ الكنيسة قد قامت دوماً بكلّ ما في استطاعتها كي تمحي الرؤية اللاثنائية وتقدِّم الله مثل وحدة خارجية عن الذات. في الأناجيل القانونية، تمّ تحويل بعض أقوال المسيح في هذا الاتجاه. حتى البروتستانت، المرتبطين مع ذلك منذ البداية بالكتابات التورانية، أضافوا بعض الأشياء في الصلاة الربانية، الوحيدة التي أملاها المسيح على حوارييه، أضافوا عمداً في الأخير «لأَنَّ لَكَ الْمُلْكَ، وَالْقُوَّةَ، وَالْمَجْدَ، إِلَى الأَبَدِ»...

ظلّ جيريمي صامتاً. رفعت عينيها نحو تمثال العذراء. كان الهواء ينذر بالعاصفة الوشيكة.

- بلا شك من أجل أن تؤكد تلك الرؤية على وجود إله خارجي

قادر على كل شيء، خلقت الكنيسة عقيدة بتوليّة مريم الدائمة. المشكلة هي أنّ المسيح كان له أخوات وأربع إخوة هم يعقوب ويوسف وسيمون ويهوذا، حيث سمّتهم الكنيسة رسمياً «أقارب»، كي تحافظ على العقيدة، وهذا يظلّ الموقف الرسمي إلى حدّ اليوم...

لم يصدر جيريمي أيّ رد فعل، بينما استأنفت أليس:

- مع ذلك، ألوهية الإنسان التي تتحدث عنها الأسطورة الهندية، توجد في كل بقاع الأرض. في اليهودية يوجد مكتوب في المزامير «أنتم آلهة». البوذيون يقولون «نحن وعي بوذا». المسيح نفسه كان يقول «أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ» بعد أن أكّد أن أباه هو أيضاً أبونا... وهذا ما جعل اليهود يتّهمونه بالتجديف، ويحكموا عليه بالموت. الأدهى من ذلك هو أنّ الكنيسة، رغم أنها تتصرف باسمه، لم تتوقّف عن وصم الذين يتبنون النظرة اللاثنائية بالتجديف... لقد جعلتني أكتشف ذلك الصوفي الدومينيكي في القرن الوسيط، المعلم إيكهارت. لقد علمتُ أنّ الكنيسة قد قامت بمتابعته أمام محكمة التفتيش لأنه أعلن للناس تصوره لألوهية الإنسان. البابا نفسه أدانه.

واصل جيريمي الاستماع إليها في صمت. كانت أليس مندهشة لأنه لم يَظهر عليه أنه انزعج أو فوجئ بكلامها. واصلت:

- كان المسيح يذهب إلى حدّ تأكيد أنّ كلّ واحد منا قادر مثله على الإتيان بمعجزات: «فَالأَعْمَالُ الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا يَعْمَلُهَا هُوَ أَيْضاً، وَيَعْمَلُ أَعْظَمَ مِنْهَا» وهل تعرف جيريمي، الشيء الذي أذهلني أكثر، هو أن أفهم معنى هذه الكلمات التي وجّهها إلى تلاميذه: «كُلُّ مَا تَطْلُبُونَهُ حِينَمَا تُصَلُّونَ، فَآمِنُوا أَنْ تَنَالُوهُ، فَيَكُونَ لَكُمْ» لقد فضّل المترجمون تغيير النهاية بهذا «وسيُمنح لكم ذلك»، من طرف إلهٍ قادر على كلّ شيء منفصل عنكم... الشيء الذي يصدمني، هو أن

المسيح لم يقل «فآمنوا أنكم ستنالونه»، ويجعل الأمل متوقعاً في المستقبل، لكنه قال «فَآمِنُوا أَنْ تَنَالُوهُ»، مؤكداً أن الواقع سيكون مطابقاً لإدراكنا. هذا حقاً مدهش، مقلقٌ لمن كان له عقل رشيد. لقد فكّرت كثيراً في ذلك هذه الأيام الأخيرة، وأعتقد أني وجدت طريقاً، فلنتخيل أن الله موجود...

- هذا لا يتطلب مني مجهوداً كبيراً، تعرفين ذلك...

ضحكت أليس.

- إذا كنت آمل الحصول على شيء، صياغة هذه الفكرة تفترض أني لا أتوفر على هذا الشيء، إذا كنت أريد هذا، فهذا يعني أني لا أتوفّر عليه. «لا أتوفر عليه» إذاً هي الرسالة التي أرسلها لله. على العكس، إذا آمنت أني تلقيته، إذا نجحت في أن أؤمن أنه مُحصّل، فهي الرسالة التي أرسلت لله. ربما توافق الله من رؤيتي، لأن الله... موجود فيّ. إذا كنت جزءاً من الله، يوجد فيّ قوة خلاقة. قوة خلّاقة تحقق أفكاري، تدرك ما أعتقده حقيقة. ربما السبب الذي كان يجعل بوذا يؤكد: «بأفكارنا نخلق عالمنا»؟ وتتذكّر دوراتنا الدراسية مع توبي كولينز في التنمية الذاتية؟ من أجل أن يساعدنا على تحقيق أحلامنا، كان ينصحنا بأن نتصرف **كأننا** نملك الوسائل...

كانت السحب السوداء تتحرك بكثافة نحو بوجوليه، مُظهِرَة في الغرب أفقاً بلون ذهبي، ومحرِّرة في بعض الأماكن الشمس التي كانت تعكس على الأرض مناطق مضيئة متحركة. بعض الطيور الكاسرة تحلِّق بسيادة في السماء، ينفصل خيالها الأسود على الطبيعة في الأسفل.

•

جالسة على طرف الصخرة في قمة الجبل، رجلاها في الهواء

ووجهها تداعبه ريح محمَّلة برائحة المطر والعاصفة، كانت أليس تحسّ كأنها في الصفوف الأولى من عرض بضخامة آسرة.

- هذا التصوّر بوجود إله داخلي يدعو إلى مزيج من الثقة في النفس وفي الحياة، ربما كان هذا هو الإيمان...

ابتسم جيريمي.

- لو كنّا في القرن الوسيط، هذا التصوّر كان سيجعل رجال الدين يرمون بك في المحرقة حيث ستحترقين لأنك كافرة!

انفجرت أليس ضاحكة.

- مفهوم الثقة، والإيمان الذي يخلق الواقع يذكّرني بحكاية المسيح وهو يمشي على الماء، في الكتاب المقدّس. أول مرة قرأتها فيها، ضحكت كثيراً، لكن إذا استوعبنا ذلك من الناحية الخارقة، يوجد شيء مهم هنا. لا أتذكر الكلمات بالتحديد، لكن...

سرد جيريمي من الذاكرة:

- وكانت السفينة في وسط البحر تكدّها الأمواج، لأن الريح كانت معاكسة. وفي الهجعة الرابعة من الليل، أقبل يسوع نحوهم ماشياً على سطح ماء البحر، فلمّا رآه التلاميذ ماشياً على سطح ماء البحر، اضطربوا وقالوا: «إنه خيالٌ». ومن المخافة صرخوا، فكلَّمهم يسوع قائلاً: «ثِقوا، أنا هو... لا تخافوا». فأجابه بطرس قائلاً: «يا رب، إنْ كنت أنت هو، فمُرني أن آتي إليك على المياه». فقال: «هلمَّ!» فنزل بطرس من السفينة، ومشى على المياه آتياً إلى يسوع. لكنه لمّا رأى شدة الريح خاف، وإذ بدأ يغرق، صاح قائلاً: «يا رب، نجِّني!» فمدّ يسوع يده وأمسكه، وقال له: «يا قليل الإيمان، لِمَ شكَّكت؟» ولمّا ركِبا السفينة، سكنت الريح.

- هذا هو. المسيح لا يقول إن هذه القدرة الخارقة هي قوة

إلهية خارجية. هو يعني أنها تأتي من حالة الثقة. عندما تسرّب الشك إلى بطرس، فَقَدَ قدرته.

شقَّت ومضتَي برق متتابعتين السحاب ناحية بوجوليه. كانت العاصفة تنتقل نحو الجنوب.

استأنفت أليس:

- في إنجيل توما، يقدِّم المسيح طريقاً آخر للوصول إلى تلك القدرة: «وإن لم تعرفوا أنفسكم، فستحيون في فقر، وتكونون الفقر نفسه» بمعنى آخر، معرفة الذات تساعد على التحرّر من الأنا، وإلّا فلن تكون لنا أية مقدرة.

نظرت أليس بعيداً.

بأجنحة مفردة، حام أحد الصقور تحمله الريح بسرعة كبيرة دون مجهود ظاهر، كأنه ينزلق بين السحاب في السماء.

قالت أليس:

- هذا التصوّر بوجود الإله الداخلي يعطيني الإحساس بوجود بُعد لا يسري فيه الوقت، الشيء الذي يحاول بعض علماء الفيزياء برهنته. أنا موجودة خارج الزمن، تجسّدي في هذا الجسد ربما ليست أساسية، هذه الشذرة من النجوم التي هي أنا، هذه الشذرة من الكلّ ربما كانت توجد في حقيقة أخرى أبعد من هذا العالم الأرضي الوقتي، بتحرّري من الأنا التي تفرقني عن الآخرين وعن الكلّ، أخرج من الثنائية، وبمغادرة تلك الثنائية، أخرج من الوقتية. «قَبْلَ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ أَنَا كَائِنٌ»، كان المسيح يقول. ما كنت أعتقده خطأً في النحو ربما يكون في الواقع الجملة الأكثر عمقاً والأكثر إثارة.

ناحية الجنوب، كانت العاصفة قد بدأت تبتعد، انقشعت السماء ببطء، وعلى الهضبة أخذت الريح تخفّ شيئاً فشيئاً.

نظرت أليس إلى جيريمي.

- عندما حدثتك عن إنجيل توما، لم تسألني كيف اكتشفته.

لم يُجبها بشيء لكنها ظنّت أنها كشفت ابتسامة خفيفة على وجهه الهادئ.

- أنت الذي سخّرت الراهبة الصماء الخرساء! اعترف!

تنهد وهو يبتسم.

- جعلتني أعدك بألّا أحدثك أبداً عن الله. ووفيت بوعدي.

- لكن... هذا يعني أنك تتشارك ذلك التصوّر الذي يقول بالطبيعة الإلهية للإنسان؟

بقي جيريمي بلا حراك لحظة.

ثم قطّب.

أخيراً، أقرّ ببطء.

- إذاً أنا أتساءل لماذا تستمر في الانتماء إلى هذه الكنيسة التي فعلت كلّ شيء كي تقاومه.

- أنا لا أنتمي إلى كنيسة، أليس. أنا أنتمي إلى الله. الأنا هي مَن يدفع الناس إلى ادّعاء أنهم كاثوليك، أو بوذيون، أو مسلمون. الأنا تبحث عن الانتماء إلى معسكر كي تتميّز عن الآخرين وتنفصل. كلّ اندفاع روحي حقيقي يروم بالعكس إلى التحرّر من الانتماءات وتعيين الهُويات الخاصة بالأنا، كي يرتبط بالآخرين والكون والله...

وهي تعود من الطريق نفسه نحو سيارتها، فكرت أليس في قدرات المسيح الخارقة. منذ أن قرأت كامبل وتحليله لمئات الأساطير في العالم أجمع، لم تستطع أن تمنع نفسها من أن ترى في

تتابع الأحداث التي وصمَت حياة المسيح أسطورة محمَّلة بالرسائل. عدا أنّ المسيح، على خلاف الكائنات الأسطورية، كان شخصية تاريخية، رجلاً عاش بالفعل... مع ذلك، كانت تُحجِم بالتأكيد عن أن تأخذَ محمَل الجدّ إبراء الأكمه، والمُقعد، وإحياء الموتى، والقيامة... كانت عقلانيتها تجد صعوبة في الإيمان بما هو خارق، ولم تكن تستطيع أن تحبس نفسها عن أن ترى في ذلك حكايات مختَرَعة من أجل تدعيم رسائل المسيح.

عندما نقرأ في الكتاب المقدّس إن المسيح كان يبرئ الأكمه، كيف يمكن ألّا نرى فيها توضيحاً لرغبته بأن يفتح أعيننا؟ كان يأمر المُقعَدين بأن يرفعوا كيسهم وينهضوا ويسيروا. أليس هذا من أجل أن يحثنا على أن نتولى أمور حياتنا؟ عندما كان يوقظ الموتى، أليسَ ذلك من أجل أن يدعو إلى الصحوة بأن ندرك أنّ الحياة على المستوى المادي فقط ليست حياة؟ إذا كانوا يحكون لنا عن موته وقيامته، أليسَ من أجل دعوتنا لأن نموت ونحيا من جديد، يعني أن نطفئ الأنا كي نجعل طبيعتنا الإلهية تنفتح؟

إمّا أنّ تلامذته قد حكوا حكايته وعلّموها بأحداث متخيّلة بهدف تعزيز رسالة معلمهم، وكان إذاً مدهشاً أن يكون أناس ورعون قد استطاعوا الكذب إلى هذه الدرجة في حين أنّ الكنيسة تؤكد في مناسبات عديدة أنّ الكذابين يلعنهم الله.

وإمّا أن المسيح قد قام فعلاً بمعجزات، مسار حياته يوضح على أبعد مدى رسائله، وفي هذه الظروف، لا يمكن أن يكون كائناً بشرياً عادياً...

أو كما كان يقول: أنا الطريق، والحقيقة، والحياة.

28

وضع جيريمي ساقيه باتجاه منحرف في المعترف حتى يستطيع تمديدهما. سمع الستارة تسحب إلى جانبه.

- أيها الأب، جئت لأعترف... بنميمتي.

لم يستطِع أن يمنع نفسه من الابتسام وهو يسمع ذلك الصوت المألوف لامرأة عجوز، لهجة الندم عندها مُتكلّفة قليلاً...

- احكي، يا ابنتي، على ماذا تلومين نفسك؟

- ألوم نفسي...

استعادَ صوتها ثقته فجأة. استأنفت:

- فلنقل إنه يبدو لي أحياناً أنه من الضروري أن أحدِّث أبناء الرعية بآثام الآخرين، في حين ربما كان عليّ أن أدعهم في سذاجتهم.

- أسمع...

- أنت تفهم، البعض ينخدعون... يجب أن نفتح أعينهم!

- ابنتي، كان المسيح يقول «انْظُرُوا مَا تَسْمَعُونَ بِالكَيْلِ الذِي بِهِ تَكِيلُونَ يُكَالُ لَكُمْ ويُزَادُ لَكُمْ أَيُّهَا السَّامِعُونْ».

- لكن... أنا فقط أكشف أفعالاً هي ضدّ المحبة المسيحية.

- ابنتي، هل جئتِ لتعترفي بخطاياك أو من أجل أن تبرريها؟
وعندما لم تُجِبْه، أضاف:
- كان القديس يوحنا يقول: «فَمَنْ يَقُولُ إنَّهُ فِي النُّورِ وَهُوَ يَكرَهُ أخاهُ، فَإنَّهُ ما زالَ فِي الظَّلامِ».
لم تنبس بكلمة.
تذكر جيريمي التوبة الذي اقترحها ذات يوم كاهن آرس، مَثله الذي يحتذي به، لإحدى بنات الرعية: اذهبي واطلبي كيساً من الريش من خم كاناتا، ثم أفرغيه وسط أنقاض الدير. ثم عودي في اليوم الموالي إلى المكان وقومي بجمع الريش كله.
- كل الريش؟ مستحيل! ستكون الريح قد شتّتته. سيستحيل جمعه!
بقي جيريمي صامتاً، تاركاً إياها تتأمل كلامها.
غادرت وهي تتمتم أنه كان أسهل عندما كانوا يأمرونها بعشرة أبونا.

* * *

- إنها طريقة لتحدّي سلطتك، سيدي.
كان الأسقف يروح ويجيء أمام صف النوافذ المرتفعة في مكتبه. عندما يكون أمام قرار صعب عليه أن يتّخذه، يحتاج إلى السير. الحركة تحرّر الفكر.
- أنت متأكد أنه قد تحدّد تاريخ من أجل تعميد ذلك الطفل؟
أقرّ المعاون وشفتاه مزمومتان.
- الأحد 28 أغسطس، عند نهاية القداس.
- والأب جيريمي يعلم أنّ كاهن شارول رفض ذلك للأسرة؟
- أجل، سيدي.

- أنت متأكد؟

- أجل.

حدّق فيه الأسقف بضع لحظات قبل أن يستأنف السير.

عندما كان يحاول التحكّم في تضايقه، كان المعاون يختم جمله دوماً وهو يزم شفتيه، اللتين تكونان حينئذٍ شيئاً شبيهاً بمؤخرة دجاجة.

- هو يجرّبك، سيدي. إنه تحدٍّ لك. إذا لم تتصرف، لا شيء سيوقفه. وبعد ذلك سيكون الوقت قد تأخر.

- لن يتأخر الوقت أبداً.

- لديه العديد من أبناء الرعية خلفه. أكثر فأكثر. انتظر أيضاً، وسيجعلون منه قديساً. ستقيّد يداك حينئذٍ. سيكون عليك أن تتعايش مع الوضع. سيكون شوكة في قدمك، إلى الأبد.

جلس الأسقف إلى مكتبه. كان المعاون يحدّق فيه، فمه مزموم ونظرته متوترة. لم يكن مخطئاً. كانت السيدة دو سيردغو نفسها قد نبّهته مرتين في الماضي. لكنه لم يعد يراها مؤخراً.

- يمكن أن يسمح لنفسه بكلّ شيء، سيدي...

تنهّد الأسقف.

- يجب أن يعاقَب. وسيعود الهدوء إلى أبرشية كلوني.

تردَّد الأسقف. كيف يمكن أن يتلقى باقي الكهنة عقوبة؟ هل سيثبت ذلك سلطته أم أنه على العكس سيقوّضها؟

- فكّر في كلّ ما تجرأ على فعله خلال أشهر، ألحّ المعاون. دعه يعمل وسيصبح غير قابلٍ لأن يُضبط. سيطلب منا الكرسي الرسولي تصحيح ذلك وسنظهر غير أكفاء.

أدار الأسقف الجمشت في أصبعه.

بدأ يملّ المشاكل التي تأتي من كلوني. لا يجب أن يتحوّل صبره إلى حيرة سيدفع ثمن نتائجها آجلاً أم عاجلاً.

* * *

انتظر الرجل دوره بصبر. كانت هذه أوّل مرة يرى طابور انتظار أمام معترف. هو نفسه لم يضَع قدميه في أحدها. ولا في كنيسة، أيضاً. عدا من أجل الحفلات، أحياناً. والمرات الوحيدة التي صلى فيها كانت عندما كان والده مريضاً، ثم والدته، في محاولة يائسة. لكن هنا، كانت قريبته قد ألحّت عليه حتى وافق أن يقوم بالرحلة من ماكون.

عندما جاء دوره، اندسّ في الفضاء الضيق وأغلقَ الستارة خلفه. انتابه إحساس أنه في كشك. إلّا أنه لا يوجد مقعد. مصطبة وُضِعَت فقط على الأرض مباشرة وفي موضع سيئ. اضطرّ لأن يربض كي يستطيع أن يجلس عليها، وأحسّ بالرف يضغط على كتفه. رفاهية بدائية. لكن نظراً إلى أنه كان مجاناً، لا يمكن أن يكون المرء متطلباً. على الأقل هو لن ينام كما يفعل على أريكة الطبيب النفسي الذي ذهب مرة لاستشارته، قبل سنوات.

- أنا أسمعك، بني.

- صباح الخير سيدي، جئتُ لرؤيتك لأني أعاني من مشكلة مع الجار الذي يسكن فوق شقتي. أنا أسكن في عمارة، في ماكون، وجاري ينظر إليّ من فوق، إنه يتعاظم عليّ تماماً، ويصل بي الأمر إلى أن أحسّ بأني لستُ على ما يرام بمجرد أن أخرج من بيتي لأني لو التقيت به سأكون في حال سيئ طيلة النهار. ومن قلّة الحظ، نحن لدينا التوقيت نفسه. نحن نرى بعضنا تقريباً كلّ يوم...

- صِفْ لي السياق شيئاً ما.

- آه، الأمر بسيط، غالباً ما ألتقي به في المصعد. هو يسكن في الطابق الذي يعلو طابقي. يحدِّثني بطريقة متعجرفة. أحسّ جيداً أنه يحتقرني، وأنه يعتقد نفسه أعلى شأناً مني.

- أنت لست مسؤولاً عمّا يعتقده الآخرون...

- لكن ليس عليه أن يحسّ أنه أعلى شأناً!

- هذه مشكلته، وليست مشكلتك...

- لكن ذلك جد سيئ، ذلك يغيظني!

- هنا، هذه مشكلتك...

- كيف ذلك؟

- أن يعتقد نفسه أفضل، تلك مشكلته، أنت لا تستطيع في الأمر شيئاً، أنتَ لست طبيبه النفسي. أن يسيئك ذلك، فهي مشكلتك.

عمَّ الصمت بينما كان يفكِّر في مدى تلك الكلمات.

- لكن... ذلك طبيعي أن يحسّ المرء بالسوء... أنا لستُ غير حساس...

- هل يغيّر ذلك من قيمتك، أن يعتقد ذلك الشخص أنه أفضل منك؟

- لا، بالتأكيد.

- إذاً ماذا يغيّر ذلك؟

أخذ وقتاً للتفكير.

- ربما... إحساسي بقيمتي.

- لأنك لست مقتنعاً بقيمتك فأنت حساس لرأي الآخرين فيك.

- ربما...

- وإذا كان ذلك الجار يتصرّف بطريقة متعجرفة، تخيّل ماذا يمكن أن يكون السبب...

- لا فكرة لدي.

- السبب هو أنه يشك بلا شك في قيمته... في هذه الحالة، هو يعاني من مشكلتك نفسها. فقط الأنا خاصته تُظهر ذلك بشكل مختلف. هل يمكن أن تؤاخذ أحداً يعاني مثلك؟

- يمكن أن نعاني بالدرجة نفسها، إلّا أني لا أجعل الآخرين يدفعون ثمن ذلك.

- ربما.

- تشكّ في ذلك؟

- نحن لا نعي دوماً مقدار الألم الذي نسببه بشكل لاإرادي للآخرين...

- حسناً. إذاً ما هو الحل في هذه الحالة الراهنة مع ذلك الشخص الذي ينظر إليّ من فوق؟

- عندما تناديك أنا الآخر، إذا أجبتها فأنت تذكّيها. إذا استطعت أن ترى الشخص أبعد من الأنا وتخاطبه، ستحرّره من السجن الذي يحبس نفسه فيه: في العلاقات، الأنا قفص تنمحي قضبانه بمجرد أن تتمكن من رؤية الشخص عبرها.

- تنهّد الرجل.

- لكن بكيفية محسوسة، ماذا عليّ أن أفعل هنا؟

عمّت لحظات صمت قبل أن يجيب الكاهن.

- كان المسيح يقول: «فَكُلُّ مَا تُرِيدُونَ أَنْ يَفْعَلَ ٱلنَّاسُ بِكُمْ اِفْعَلُوا هَكَذَا أَنْتُمْ أَيْضاً بِهِمْ».

مساء اليوم الموالي، كان الرجل داخلاً من المكتب عندما التقى جار الطابق الأعلى الشهير، قرب علبة الرسائل في مدخل العمارة. حيّاه وهو يجهد نفسه على استعمال نبرة ودية. نظر إليه الآخر بازدراء وردّ عليه «صباح الخير» بشكل مقتضب من طرفي شفتيه وهو يرفع ذقنه بحيث تنحني إليه عيناه لحظة، في هيأة نتنة.

إذا أجبت على الأنا خاصته، فستذكيها.

قرّر أن يجيبه بابتسامة بشوشة.

أشاح الآخر بعينيه في الحال.

دخلا في قفص المصعد الخشبي، أخذ الباب الانزلاقي مكانه ببطء، وانغلق عليهما الباب الثقيل من الحديد المضروب ذي الواجهة الزجاجية.

استدار نحو جاره، الذي كان يحدّق في نقطة غير مرئية في السقف بينما كان المصعد يرتفع، في بطء لا متناهٍ. كان القرب مزعجاً، تماماً مثلما كان الصمت الذي يحيط بهما.

تناول الكلام بهدوء، وأحسّ بنفسه متأثراً لسماع كلّ اهتزاز في صوته يقطع الصمت.

- ذهبت أمس إلى الكنيسة...

أحسّ على الفورِ بتشنّج جاره، الذي استمر يحدّق بشكل مكثف في النقطة غير المرئية في السقف.

واصل:

- وصليت من أجلك.

اتسعت عينا الآخر اندهاشاً دون أن تغادرا النقطة غير المرئية، كأنه كان مُنوماً تحت تأثير كلام سحري.

سقط الصمت لكن الكلمات بدَت تواصل رنينها. واصل المصعد البطيء صعوده بمشقة.

- لقد صليت من أجل أن يتوصل الناس إلى رؤية طيبتك خلف قناع مظهرك.

رأى شفتي الجار ترتعشان، كأنما من أجل أن تتكلما، لكن لم يخرج أيّ صوت من بينهما. وصل المصعد إلى طابقه وانفتحت الأبواب بصعوبة.

خرج، التفت وأضاف:

- لأني أنا، أعرف أنك في العمق شخص صالح.

لم ينظر إليه الآخر بعدها أبداً من فوق.

29

بعد أن وضعت طبقاً من حلوى المادلين الساخنة وإبريق شاي يغلي أمامها على مائدة الحديقة، استغرقت أليس في كتابها المقدّس في ظلّ شجرة الجوز.

- تعال لتأخذ بعض قطع الحلوى! صاحت في تيو.

صعب أن تتنافس مع الأرجوحة...

- وإلّا أنهيتها كلها وزاد وزني كيلوغرامين، أضافت وهي تخفض من نبرتها.

- نزعت من كتابها المقدّس غلاف القانون المدني الذي تطايرت قطعه.

كانت متحمّسة بسبب ما فهمته للتو. كان المسيح يقدّم مسلكاً أساسياً من أجل التحرّر من الأنا، لم تدركه أبداً من قبل. وبالمرة، كانت تمسك في ذهنها كلّ حبكة موعظة جيريمي المقبلة.

سمعت وقع أقدام والتفتت.

- هذا أنت! كنت أفكر فيك! قالت له بينما كان يلتحق بها. عندي اقتراح من أجل قداس الأحد المقبل. خذْ كرسياً.

جلس وقدمت له طبق المادلين التي رفضها.

أشار بيده لتيو، وأجالَ ببصره حوله، في الحديقة كأنه كان يستمتع بمنظرها أو يريد أن يتشبّع به. انتهت عيناه بأن حطّتا عليها وابتسم لها، بابتسامته المشبعة بالطيبة... والتي اعتقدت أنها رأت فيها نقطة من الحزن.

- شيء ما ليس على ما يرام، جيريمي؟

واصلَ الابتسام بلطف، لكنها أحسَّت أنه يسعى إلى تمديد تلك اللحظة من الخفّة، وأقلقها ذلك أكثر. انتهى بأن تحدّث، بصوت هادئ وثابت.

- سيكون آخر قداس لي في كلوني.

- هيه؟

أقرّ.

- لكن... لماذا؟

- لقد تمّ تعييني في ياوندي.

نظرَت إليه أليس، غير مصدِّقة، قبل أن تدرك حقاً مغزى كلامه. بقيت من دون صوت.

كان كأنّ كل شيء يتهدّم فجأة. كلّ شيء. كلّ ما فعلته، كل ما شيدته، كلّ جهودها كي تأتي بأبناء الرعية، كلّ الفوائد التي أحسّها الناس...

أحسّت فجأة بشعور من الحزن والخيبة والقرف...

- لماذا؟ لماذا فعلوا ذلك؟

لم يجب.

- لكن... أمن حقهم أن ينقلوك إلى الكامرون بين عشية وضحاها، هكذا؟

أقر ذلك، وهو يهزّ كتفيه دلالة العجز.

- لقد ذكرني الأسقف أنّ الحواريين كانوا دوماً متنقلين.
- و... كلّ ما حققناه...
- سيتمّ تعيين كاهن آخر.
- سيهدم كلّ شيء.
- ليس بالضرورة...
أحسّت بالانهيار.
- فكرة إعادة تركيب الأغاني السخيفة وكلّ الضجيج يسبّب لي الغم. سيجعل الناس ينصرفون.
- لا يمكن أن نعرف، أليس.
هزّت رأسها، مشمئزة.
- متى ستسافر، بالضبط؟
- صباح الخميس عند الفجر. سيأتي معاون الأسقف كي يأخذني من بيت الكاهن إلى مطار جنيف.
- الخميس؟ لماذا بهذه السرعة؟
- ربما كان ذلك ضرورياً. سأعرف ذلك أكثر صباح الأحد، أنا مدعو إلى الأسقفية قبل القداس.
صعب عليها أن تتصوّر أنه عمّا قريب لن يكون هنا، وأنها ستراه نادراً... سيفتقده أبناء الرعية أيضاً، هذا أكيد.
- عائلة شارول محظوظة أن يكون التعميد قد حدِّد يوم الأحد. أسبوع إضافي وكل شيء كان سينتهي. هما اللذان كانا مرتبطين بذلك أكثر من أي شيء...
- أجل، أحسّ بذلك.
- في جميع الأحوال، شيء غير عادلٍ أن ينقلوك، فجأة في اللحظة التي نجني فيها ثمار كلّ هذا العمل!

تنهد ثم ابتسم بهدوء.

- الأساسي هو أننا تصرّفنا بكلّ ضمير، أليس، أكثر من جني الثمار بأنفسنا. كان المسيح يقول: «لاَ تَدَعْ يَدَكَ الْيُسْرَى تَعْرِفُ مَا تَفْعَلُهُ الْيُمْنَى».

- لا بد أني لم أصل بعد إلى هذا المستوى من الحكمة...

ألقى عليها نظرة مشبعة بالطيبة.

- مَن يعرف المدى الذي ستصله أعمالنا؟ من يعرف ما نكون قد تعلمناه من هذه التجربة؟ في الحياة، تبدو بعض الأشياء كأنها تفلت منا. صحيح، أننا في هذه اللحظة، نحن نجهل المعنى الحقيقي.

* * *

كانت جيرمين تمسك سلّتها بمحاذاة بطنها وهي تجتاز ساحة السوق.

- معالجة الريش، هذا سحر أسود!

- شيء لا يصدق، قالت كورنيليا. لو قال لي أحد إننا سنرى ذلك في كلوني، حتى ولو...

- لقد قال المسيح إنه سيكون هناك أنبياء كاذبون.

- صحيح، قالت كورنيليا.

أخفضت كورنيليا صوتها.

- الأب جيريمي وكيل للشيطان!

- اصمتي، أشعر بالخوف...

- ليس مدهشاً أن يذهب إلى أفريقيا. لا بد أن ذلك من أجل البحث عن السحرة فودو.

- آه! يا إلهي...

- منذ البداية، وأنا أقول ذلك، يجب أن نحذر منه. منذ البداية!

- نحن، على الأقل، لم نسقط في فخه، قالت كورنيليا. ولم نفتأ نحذِّر الآخرين.

- انظري السيدة دو سيردغو. لقد تولّت الدفاع عنه، ذلك اليوم!

- قبل ذلك، كانت صالحة، تلك المرأة...

- لا بد أنه سحرها!

- المسكينة...

هزت جيرمين رأسها بدراية.

فجأة، تحجّرت وأوقفت كورنيليا واضعة ذراعها كحاجز أمام جسدها.

- انظري مَن هناك!

من الجهة الأخرى للساحة، كان الأب جيريمي يهبط شارع الجمهورية، بردائه الأسود الطويل.

- يا إلهي، قالت كورنيليا وهي ترسم علامة الصليب.

حافظت جيرمين على برودة دمها، أخذت صليبها بكلتا يديها، وأشارت به ناحية الكاهن وهي تدمدم بصوت مفخم:

- Vade retro, Satana!(*)



(*) العبارة باللاتينية ومعناها: إلى الوراء يا إبليس!

30

أحسَّت أليس بالحنين المسبق عندما وصلت إلى ساحة الكنيسة.

كان هناك، مثل كلّ أسبوع، أيضاً عدد كبير من الناس في الفناء، في جو بهيج ولا مبال. لا بد أنّ خبر سفر جيريمي لم يبدأ بعد في الانتشار.

كانت شمس الصباح تضيء الواجهات القرن أوسطية في الساحة بإضفاء انعكاسات بنية ذهبية. أغلب النوافذ كانت لا تزال مفتوحة على أمل أن تدخل البيوت آخر لحظات الطراوة في اليوم.

حيَّت الوجوه المألوفة ودخلت إلى الكنيسة لموافاة جيريمي. كان بعض أبناء الرعية قد جلسوا على كراسيهم، خاصة القدامى، الذين كانوا يخشون أن يأخذ الجدد أماكنهم ويبعدوهم إلى أقصى الكنيسة.

قابلت نظرة زوجَي شارول الجالسين على مقعد قرب جرن المعمودية مع طفل في السابعة أو الثامنة، والرضيع بين ذراعي الأب، وكثير من الناس حولهم، بلا شك الأقرباء والأصدقاء. نهض الأبوان وجاءا لملاقاتها بأعين لامعة.

- نودّ أن نشكرك. بفضلك سيتمّ تعميده اليوم.

- أرجوكما.

اجتازت الصحن. لم يكن جيريمي قد وصل بعد، كان الموهف فارغاً. لا بدّ أنّ اللقاء مع الأسقف قد طال قليلاً...

سلكت الجانب المنخفض كي تخرج من الكنيسة. في الفناء، كانت الأحاديث في أوجها. كان هناك نوع من الخفة في الجو، وأحسَّت أليس بالألم للتفكير أنها آخر مرة يجتمعون فيها من أجل قداس جيريمي.

لكن متى سيصل؟

* * *

- فعلت كلّ ما كان في وسعي كي أمسكه، لكن هنا، من الأفضل أن تستقبله، سيدي، وإلّا فأنا لست مسؤولاً عن شيء.

جالساً خلف مكتبه الكبير وهو بكامل زينته، رفع الأسقف حاجبه.

- دعهُ يدخل.

انسحبَ المعاون إلى غرفة الانتظار.

- يجب أن أذهب، قال الأب جيريمي عندما رآه يدخل... ستعتذر للأسقف نيابة عني وتقول له إنّ عليّ أن أضحي تجاه أبناء الرعية. أنا مستعد لأن أعود بعد القداس لو رغب في ذلك. ستخبرني.

كان قد دارَ على عقبيه. لمسَ المعاون ذراعه.

- انتظر...

- لم أعُد أستطيع أن أنتظر.

- سيستقبلك سيدي في الحال، قال المعاون.

- أنا متأسّف، لكن لا وقت لدي.

كان قد استدار نحو باب الخروج عندما سمع صوت الأسقف في مكتبه.

- ادخل، أيها الأب جيريمي!

تسمَّر الكاهن.

- اتبعني، همس المعاون.

دخلا إلى المكتب.

- تفضل بالجلوس، أيها الأب جيريمي، قال الأسقف وهو يأخذ مكانه على كرسيه الأثري في طرف الطاولة المستطيلة الطويلة.

- من سوء الحظ لن أستطيع أن أبقى، سيدي، لأنّ قداس كلوني يبدأ خلال...

- استرخِ. لدينا كلّ الوقت. أنا أعتذر عن تأخري لكن يجب قطعاً أن نحضِّر سفرك.

- لكنهم ينتظرونني على العاشرة من أجل القداس.

- لا تهتم. سنعلن عن حالة اضطرارية. سيفهم الناس.

لم يُجِب الكاهن.

تنفّس المعاون، ارتياحاً.

لن يُقام القداس. لا خطابَ وداعٍ ولا دفقَ عاطفياً. لن تصنع الأسقفية ضحية.

من الأفضل أن نقطع الغصن بضربة خاطفة ونمرّ إلى شيء آخر.

* * *

العاشرة والربع.

أصبح تأخر جيريمي جدّ محرج.

كانت أليس قد فكَّرت أن اجتماعاً في الأسقفية قبل القداس الصباحي كان فكرة سيئة.

لمحت راهبة ضمن أبناء الرعية وتوجّهت نحوها، وقالت لها بصوت خفيض:

- الأب جيريمي ليس هنا، اذهبي إلى بيت الكاهن واتصلي بالأسقفية واسأليهم في أي ساعة خرج من عندهم.

بدت الراهبة متردّدة لحظة ثم وافقت.

كان الناس ينظرون إلى ساعاتهم ويظهرون علامات تدلّ على نفاد صبرهم. كان الفناء قد بدأ يصبح فارغاً والكنيسة تمتلئ.

جاء العجوز فيكتور نحوها. كان قد علم بخبر مغادرة جيريمي وأسف لذلك. بدأ يعدّ أسماء الكهنة الذين سبقوه. لكن أليس لم تكن تستمع إليه. كانت جد منشغلة بغياب صديقها.

أتمنى ألّا يكون قد حدث له شيء على الطريق...

العاشرة وخمس وعشرون دقيقة.

عادت الراهبة أخيراً، وأخبرتهم:

- استُبْقِي الأب جيريمي في الأسقفية. ألغِيَ القداس، وطلبوا مني أن أعلم أبناء الرعية.

- ألغِيَ القداس؟

هزّت الراهبة رأسها. كان يبدو عليها أنها تشاركها إحساسها بالخيبة.

- ألا يمكن أن تتكلفي... بإعلانه للناس؟ قالت بنظرة شبه متوسّلة.

وافقت أليس.

تبخّرت الراهبة ناحية بيت الكاهن.

استُبقِيَ في الأسقفية.

لا يمكن أن يكون الوضع أسوأ.
الوعد بالتعميد...
الموعظة التي كانت متشبّثة بها...
ضربة قذرة بالنسبة إلى الجميع. مسكين جيريمي، لم يعُد بإمكانه توديع الأوفياء المجتمعين. استدعاءه إلى الأسقفية، على بعد ساعة زمن من كلوني، صباح القداس، كان شيئاً غريباً جداً. لماذا ليس في الأمس، أو بعد الظهر، أو في اليوم الموالي؟ والآن، هو مستبقى هنا... غريب.
وماذا لو كان هذا من أجل منع التعميد؟
لم تكن تثق في أولئك الناس. خاصة بعد نقل جيريمي التعسفي. كانت تحسّ أنهم قادرون على كلّ شيء.
مكتئبة، دخلت أليس إلى الكنيسة كي تعلن، غصباً، الخبر السيئ. كان ذلك يعطيها الإحساس أنها شريكة رغماً عنها في مناورات الأسقفية.
انقبضَ قلبها عندما رأت مرة أخرى أسرة شارول. تحمّلت واقتربت منهم.
- يوجد مشكل، لقد استُبْقي الأب جيريمي في الأسقفية. سيُلغى القداس.
- سيلغى؟ قالت الأم وعيناها تتسعان.
- لكن... والتعميد؟ سأل الأب.
- أنا حقاً متأسفة من أجلكم، أنا خجلى...
ارتسمت على وجهيهما خيبة جعلت الشجاعة تنقصها لتضيف إنّ الأب جيريمي لن يحيي قداسات أخرى، وأنّ التعميد لن يحصل أبداً.

- من فضلك، افعلي شيئاً...

نظرت أليس، عاجزة، إلى الأعين المتوسلة.

كانا قد قاما بكلّ ما في وسعهما، وكانت قد وعدتها أن الطفل سيُعمَّد.

- أنا متأسفة...

انسحبت ومشت ناحية الخورس. كانت خيبة هؤلاء الناس تنضاف إلى خيبتها، إلى حزنها، إلى حيرتها، إلى غضبها.

مرّت قرب الشموع الطويلة التي كانت ألهِبَتها تترنح بكآبة. كان نَفَس مرارتها كافياً كي يطفئها.

كما العادة عندما تتجاوزها الأمور، أحسَّت برغبة في أن تتصرف، أن تأخذ بزمام الأمر، ألّا تستسلم أمام الأحداث، سواء كانت طارئة أو محسوبة من طرف أرواح سيئة النية. لكن في الحالة الراهنة، لم يكن هناك ما يمكن أن تفعله، وكان ذلك يزيد من استيائها.

عندما وصلت إلى قدم المنصة، قبل أن تصعد، استدارت نحو الحضور. كان الموهف مليئاً إلى ثلاثة أرباعه. أحسَّت بوخزة في القلب وهي تفكِّر في أول قداس حضرته، قبل خمسة أو ستة أشهر. اثنا عشر وفياً كانوا يحضرونه... اليوم، هم مائتين أو ثلاثمائة. وسيكون عددهم أكبر لو كان كلّ زوار المعترف حاضرين.

كم سيبقون إلى نهاية السنة؟

لمحت السيدة دو سيردغو، وفية لمكانها في الصف الأول، وتساءلت لماذا تبدو مضطربة. تعرفت على إتيان بعيداً شيئاً ما. التقت نظرة الزوجين مرة أخرى، وابنهما على الركبتين، والرضيع بين الذراعين، العرّاب، والعرّابة، والأقرباء والأصدقاء حولهما.

كلهم كانوا متأثرين. ربما كانوا قد خطّطوا لاحتفال، وهدايا، ومُلبس مطبوع على غلافه تاريخ اليوم... كلّ شيء يلغى.

هزّت أليس رأسها. هذا الوضع كان غير عادل من جميع النواحي.

تنفست كي تتخلص من عصبيتها. كلما أحسّت بالجور، كلما زادت رغبتها في أن تتصرف، كأنه أمر داخلي.

خطرت على ذهنها فكرة، فكرة تفوق التصور بحيث أبعَدَتها في الحال.

لكنها أحسَّت حينئذٍ بطاقة تتكون فيها، شيء يناديها ويحملها في الوقت نفسه...

لا. لا يمكن أن تسمح لنفسها بذلك، كان ذلك مرفوضاً.

أحسَّت بنفسها ممزّقة بين ذلك النداء الداخلي وعقلها، الذي كان يمنعها من اتّباعه. يجب أن تكون عاقلة، أن تكون متحفظة، أن تحترم القوانين ولو قليلاً...

تذكّرت حينئذٍ المسيح وهو يؤكّد أنّ الله يتقيأ الفاتر.

الله يتقيأ الفاتر، كرَّرت لنفسها خلال لحظات.

صعدت إلى المنصة واقتربت من الميكروفون المثبت في مِقرأ المنصة.

- صباح الخير للجميع.

سمعت صدى صوتها يرنّ في الكنيسة بكاملها.

- يؤسفني أن أعلن لكم أنّ الأب جيريمي قد تمّ نقله. سيسافر خلال أيام إلى بلد بعيد.

ولقد علمنا للتو أنه استُبقي في الأسقفية.

كنست بنظرها الجمع. كان الجميع ينظرون إليها في صمت مطبق.

أخذت نفسها.

- أنا... مَن سيقيم القداس مكانه اليوم.

اجتازت موجة من الهمهمة الموهف في جميع الاتجاهات. بعض صيحات الاستنكار أيضاً.

لمحت المتزمتتان على وشك الإغماء. منحوتاً في أعلى عموده الحجري، كان اليدو بيرلو يبدو مذهولاً أكثر من أيّ وقت مضى.

نهض بعض الأشخاص وانصرفوا، تبعهم آخرون أيضاً.

كان الوضع محرجاً، خاصة بالنسبة لها، هي التي كانت تعاني من الرهبة عندما تتحدّث أمام الناس. لكنها كانت قد تبعت ذلك الاندفاع الذي تملَّكها، وهي تستمع إلى قلبها، وقرَّرت أن تواصل، دون أن تلعب دور الكاهن، دون أن تبحث عن تقمّص دور أو شخصية، لكن أن تكون نفسها فقط تقدّم الخطاب الذي كانت تودّ أن تقدمه، والذي كانت قد حضَّرته من أجل موعظة جيريمي. بالتأكيد، هي نسيت النص، لكن في هذا الأمر أيضاً قرَّرت أن تثق بحدسها، وغريزتها، وقلبها، وأن تتخلى عن محاولة تذكر الكلمات التي كتبتها في الأيام السابقة. الأيام الماضية تنتمي إلى الماضي، وحقيقة اللحظة الراهنة هي دوماً أكبر من حقيقة الماضي.

علاوة على أنّ الأمر لم يكن عرضاً، كانت تقوم بالقداس من أجل أبناء الرعية وليس من أجلها، ولا تنظر شيئاً بالمقابل.

نظرت إلى كلّ الذين بقوا. إذا كانوا هنا، فذلك من أجل الصحوة الروحية، كما تبحث عنها هي أيضاً منذ عدة أشهر. كانوا

يتبعون البحث نفسه، وأرادت أن تقتسم ما بدأ يساهم في صحوتها الخاصة. لا يجب أن تحتفظ بذلك لنفسها، يجب أن يستفيد الجميع.

بينما كانت الرغبة في أن تُوْصِل ما تعلّمته، أخذت تحسّ بنوع من الصداقة تجاههم.

حدث حينئذٍ شيء مدهش، ذابَ هلعها كأنما حدث ذلك بفعل السحر، إلى أن اختفى تماماً. كانت قد أمضَت حياتها تقاوم الخجل، خجل كانت تخفيه ببراعة بالضغط على نفسها كي ترغم نفسها على إثبات نفسها وتتقدم، إلى حدّ أن تظهر كأنها متهورة... أحسَّت فجأة أنها تحرَّرت منه، من دون أدنى مجهود. وأدركت أنّ الخجل هو ابن الأنا، نتاج الأنا، الخجولة التي كانت تعتقد في كلّ لحظة من حياتها أنّ جميع الأنظار موجّهة نحوها كي تقوم بتقييمها. ألم تكن تلك الرؤية... نرجسية؟

بتخليها عن لعب دور وأخذ مكانها، بتخلّيها عن التألق بطريقة أو بأخرى، باكتفائها بالتعبير عمّا يعتمل في قلبها في اللحظة الراهنة، بانمحائها كي تضع نفسها في خدمة مهمتها والرسائل التي تسعى إلى تقديمها، بالتفاتها نحو الذين خصّصتها لهم، تحرّرت من خجلها.

- اسمي أليس، أنا صديقة الأب جيريمي منذ الطفولة. رغم أني غالباً ما رأيته يشتغل، لستُ متأكدة من أني سأعرف كلّ قوانين القداس لكن...

- لكن على الأقل أخبرينا، هل تؤمنين بالله؟

مزّق الصوت الجهوري صمت الصرح ورنّ صدى ذبذباته من كلّ جانب. بعد أن تمّ توقيفها في اندفاعها، نظرت أليس شمالها، من حيث جاء السؤال. لم تتبيّن الرجل الذي نطق به. بحسب

صوته، لا بد أنه في الستين من العمر. بلا شك جارٌ يعرف سمعة عائلتها الملحدة. . .

متحرّجة، بحثت أليس عن كلماتها، وأثار غياب جواب فوري موجة جديدة من الهمهمات في الكنيسة.

رفعت بصرها مرة أخرى ناحية الرجل المجهول.

- قل لي مَن هو الله وسأقول لك إنْ كنت أؤمن به.

طنين جديد سرى في الموهف، ثم عمَّ الصمت من جديد.

اتجهت كل الأنظار ناحية الرجل.

لكن الجواب لم يأتِ. الرجل الذي سارع بسؤال أليس عن إيمانها بالله لم يعُد قادراً على أن يقول مَن هو.

أخذت نفسها إذاً وانطلقت.

لقد اعتبرتُ لفترة طويلة نفسي ملحدة، ثم اكتشفتُ قيمة كلام المسيح الذي أدركتُ أنه حكيم عظيم. طبّقت مبادئه كي أجرّبها بنفسي، وكنت مذهولة بما عشته. فهمتُ أنه يقودني إلى التحرّر من الأنا، وخلال المرّات النادرة التي توصّلتُ فيها فعلاً إلى ذلك للحظات، لمستُ بيدي ما يشبه حقيقة أخرى، عالم حيث لا أبحث قسراً على أن أوجد بمعزل عن الآخرين، عالم حيث أحسّ على العكس أني متصلة بالآخرين، إلى درجة الانصهار معهم، مع الكون، مع كلّ شيء. ربما كان لمحة عمّا كان المسيح يسميه «ملكوت السموات»؟ لا أعرف شيئاً. ربما كان اتصالاً بالجزء الإلهي فينا؟ غالباً ما سمعت في الواقع أنه في داخلنا، توجد الخطيئة. اليوم، أنا أعرف أنّ هذا خطأ، في داخلنا يوجد ما هو إلهي. الخطيئة ليست سوى ما يحيدنا عنه. إذاً، هل الله موجود؟ لقد ضحكتُ طويلاً لتخيّل عجوز ملتحٍ على سحابة، يملك قدرات

خارقة. اليهود هم بلا شك على حقّ في رفضهم تسمية الله. التسمية تخلق صوراً في ذهننا، تشخِّص ما ليس شخصاً، تحوّل إلى مادة ما ليس مادياً. وحدها كلمة «الله» تذكّرني في الواقع بشخصٍ لديه وجود محسوس، يتوفّر على قدرات مطلقة، يتحكّم في كل شيء، من الولادات إلى الموت مروراً بأقدار كلّ واحد بالإضافة إلى مسيرة الكون. وهذا لا يمكن أن أؤمن به. من ناحية أخرى، ربما توجد قوة خلاقة، طاقة، وعيٌ نكون نحن دون أن نعلم ذلك أحد عناصرها، شذرة، حلقة. تماماً كما أنّ جسدنا غبار نجوم، شذرة من الكون، سيكون وعينا شذرة من وعي كونيّ وقوة خلاقة ننتمي إليهما رغم اعتقادنا أننا منفصلون ومستقلون، لأننا نتمتع زيادة على ذلك بوعي فردي.

كنست بنظرتها جمع الأوفياء.

- وعينا الفرديّ يجعلنا ننسى الوعي الكوني الذي هو أيضاً وعينا، وتفصلنا عنه الأنا بحثاً عن التفكّك، والتفرّق من أجل أن نتميّز للحظات.

أخذت نفسها بضع لحظات.

- إذا كانت هذه الطاقة غير المحسوسة، هذه القوة الخلاقة، هذا الوعي الكوني هو الذي نسميه الله، فالله إذاً ليس قوة خارجية عنا يجب أن ندعوها كي نحصل على أفضال كما لو أننا نخاطب سيداً للكون. هي ستكون بالأحرى قوة كونية لكن أيضاً داخلية يمكن أن نتّصل بها والتي يمكن أن نعيش من خلالها، على طريقة العودة إلى الحضن، بالتحرّر ممّا يفرّقنا، يعني من الأنا. في القرن الثالث عشر، كان المعلّم إيكهارت يقول: «يجب أن يكون الإنسان حراً على نحو أن ينسى نفسه ويتدفّق، مع كلّ ما هو عليه، في القاع بلا

قرار الذي هو منبعه». حتى ولو لم يستعمل أبداً هذا المصطلح، كان المسيح يدعو بلا توقف إلى التحرّر من الأنا. لقد حاولت شخصياً بجميع الطرق أن أتوصّل إلى ذلك، ولم أنجح سوى بطريقة آنية. كلما حاولنا التحرّر من الأنا، كلّما قاومت، وهذا ما يفسّر فشل التأثيم الذي مارسه المسيحيون خلال قرون. مقاومة الأنا تمّ توضيحها في الأناجيل في الصعوبة التي يجدها الحواريون في تطبيق مبادئ المسيح، في إيقاظ الجزء الإلهي الذي ينام فينا. في الواقع هم لم يتوصلوا إلى ذلك وكان المسيح يشتكي من ذلك طوال الوقت، إلى آخر مساء قبل إيقافه، حيث طلب منهم أن يسهروا ولم يستطِع أحد منهم أن يفعل ذلك، ناموا كلهم رغم نيتهم الصادقة، الشيء الذي جعل المسيح يقول: «أَمَّا الرُّوحُ فَنَشِيطٌ وَأَمَّا الْجَسَدُ فَضَعِيفٌ». لكن يوجد سر.

استراحت للحظات، وعندما توقف صدى صوتها في الموهف، غرقت الكنيسة في صمتٍ عميق.

– يوجد سرّ ويبدو أنّ المسيح بنفسه قد اكتشفه في نهاية حياته، بما أنه في تلك الفترة كان يكرّره، ووصل به الأمر إلى أن يقول، في النهاية، إنه إنْ لم يكن هناك شيء واحد للاحتفاظ به، سيكون هو. هذا السرّ، بدأت أفهم أنه يستطيع أن يجعلنا نتخلص من جحيم الأنا ويقودنا إلى جنة الحياة المتيقظة. هذا السر... هو المحبة. عندما نحب، عندما نحسّ بالحب، سواء تجاه كائن حي، أو حيوان، أو زهرة، أو غروب شمس، نحسّ أننا طوّرنا ذواتنا. رغباتنا، ومخاوفنا، وشكوكنا تتبخر. لا نسعى لأن نقارن أنفسنا، لأن نكون أفضل من الآخرين. ترتقي روحنا بينما نتشبّع بهذا الإحساس، بزخم القلب هذا الذي يتمدّد حينئذٍ طبيعياً كي يشمل كلّ الكائنات وكل

أشياء الحياة. كان آلان، الفيلسوف يقول إن الحب حركة رائعة للخروج من الذات. هو أيضاً حركة رائعة كي يجد المرء نفسه، بالالتحام مع الكون، في منبع الذات، هناك حيث لا تروج مشاكلنا وحيث يسود الفرح.

كنست أليس مرة أخرى جمع الأوفياء ببصرها. كانوا ينصتون، لكن هل ستتمكن حقاً من أن توصل إليهم هذا الخطاب الذي تعرف أنه أساسي كي يحقّق المرء السعادة والنجاح في حياته؟

- المحبة، هي قبلاً محبة الذات. محبة الذات تعطينا القوة كي لا ننجرح بالسهام التي ترميها أنا الآخرين، وألّا ندعها تحرّك الأنا خاصتنا بالمقابل. المحبة، هي محبة الآخر بالتوصل إلى تبين شخصه خلف أنا تكون أحياناً كريهة، وأن نرى هذه الأخيرة تتلاشى. المحبة، هي امتلاك القوة لأن نحب أعداءنا ونجعل منهم حلفاء. المحبة، تعني أن نحب الحياة رغم المشاحنات والضربات القاسية، وأن نكتشف أنها ليست سوى أدوات لاستغنائنا وتطورنا وصحوتنا. الحب هو مفتاح كل شيء. سرّ العالم.

رنّت كلماتها في الكنيسة، تحت القباب العالية الغارقة في الضوء.

استعادت نفسها، ثم واصلت القداس.

بعد ذلك، شرعت في التعميد.

31

الأربعاء، نهاية اليوم.

كان جيريمي يستعدّ لمغادرة المعترف، حيث كان يؤدي مهمته لآخر مرة في كلوني، عندما سمع حفيف ثوب من الجهة الأخرى من الحاجز الخشبي الرقيق.

لأنّ التائب ظلّ صامتاً، دعاه جيريمي للكلام. لكن الآخر ظلّ أخرس.

- أنا أسمعك، ألحَّ جيريمي. تحدّث دون خوف.

انتظر بصبر، إلى أن ارتفع صوت أنثوي بصعوبة، صوت متميّز تعرَّف عليه في الحال من دون عناء رغم التوتر الواضح.

- أيها الأب، لقد أسأتُ التصرف.

توقفت بضع لحظات. سمع تنفسها عبر الحاجز.

- لقد أسأتُ التصرف، وأنا ألوم نفسي.

كان جيريمي يسمع أحياناً اعترافات تقدّم بلهجة منعزلة، وكان يحدث له أن يتساءل إن كان الشخص قد أتى بحُكم العادة أو المعتقد الخرافي أو الرغبة في الثرثرة. لكن هنا، كان الصوت يشي بإحساس بالندم يبدو أنه يتسبب في معاناة حقيقية.

- لقد انتقدت شخصاً. . . وذلك آذاه.

تحجّر جيريمي. أحسّ بقلبه يخفق بشدة، بينما أصبح ذهنه، الذي كان عادة يركز على الاستماع، فجأة مشوشاً بسبب أفكار وعواطف. تنفّس بعمق كي يسترجع قوته. ألا تكون هذه المرأة في حاجة إلى التعاطف؟ كلّ توبة تستحق الغفران. . .

- آذاه ذلك بشدة. أردفت.

كان يحسّ أنّ كلّ كلمة تكلّفها الكثير، وأنها كانت غارقة في الندم.

- ربما. . .

- لا، ليس ربما. ذلك أكيد.

تنهد جيريمي مطوّلاً.

- من يستطيع أن يعرف ذلك؟ همهم. كان أبكتيتوس يقول «سيؤذونك بدءاً من اللحظة التي ستقدّر فيها أنّك تعرضت للأذى». لكن للحكم على وضع ما، يجب أن تستطيع أن تنتقل إلى المستقبل كي تتوفر على رؤية شاملة حول الحدث المعني، والنتائج الحقيقية المترتبة عنه، وما قدمه لنا رغم ذلك، وما جعلنا نتفاداه، وما جعلنا نتعلمه. . . فقط بعد مضي الوقت نستطيع أن نعرف هذه الأشياء.

بقيت صامتة للحظة طويلة.

- في جميع الحالات، أنا نادمة على مزاعمي. لم أكُن منصفة وألوم نفسي بشدة على ذلك.مكتبة .. سُر مَن قرأ

- الله يسامحك، يا ابنتي.

سمعَ بضع شهقات مكتومة.

أضاف بهمس:

- وأنا أيضاً.

* * *

- امرأة؟ امرأة؟
- أجل سيدي، قال المعاون بهيأة مقهورة.
- امرأة أقامت القداس!
هزّ المعاون رأسه بحزن وهو يغلق عينيه.
تهاوى الأسقف على كرسيه الضخم.
- امرأة. يا إلهي، أية فظاعة...
لماذا ألحق بي الله هذه المصيبة؟
في أبرشيته.
ستنقض الصحافة على ذلك. كلّ فرنسا ستعرف ذلك. الكرسي الرسولي أيضاً...
خارت قواه، مفسحة المجال للقرف.
أية إهانة...
رفع عينيه. المعاون، الذي كان عادة مستقيماً في ثوبه، بدا متدهوراً، كأنه انهار تحت ثقل الأحداث.
- امرأة أقامت القداس، كرّر الأسقف وهو يفكر.
- وصفت مصادري موعظة مصبوغة بتوفيق بين المعتقدات ووحدة الوجود جد بعيدة عن المذهب الكاثوليكي، قال المعاون بنبرة محتقرة.
- وعمّدت الطفل، كما تقول؟
هزّ المعاون رأسه من جديد.
تنهد الأسقف.
كان عليه أن يستجيب قبل ذلك للتحذيرات. أن يسمع معاونه. مرّت أشهر منذ طالب هذا الأخير بعقوبات. كان محقاً. منذ كلّ ذلك الوقت، هذا الكاهن وملهمته يتحدّيان سلطته.

انتظر كثيراً.

كان صبره هو الذي تسبب في الكارثة. وكانت مرارته أشد.

نظر إلى الجمشت الذي بدا له شاحباً. وداعاً السفير والأرجوان الكاردينالي.

أفسحت الضغينة المكان فجأة للغضب.

نهض دفعة واحدة.

- في جميع الأحوال، ذلك التعميد غير شرعي! هو إذاً باطل. اشطبه من السجلّ وأعلم الأبوين. على الأقل شيء معدل. ذلك الكاهن الملعون وشريكته لن تكون لهما الكلمة الأخيرة.

رفع المعاون عينيه نحوه.

- لقد سمحتُ لنفسي بأن أسبقك حول هذه النقطة، سيدي و...

- لقد فعلتَ حسناً.

- واستعلمت. بحسب مدوّنة القانون الكنسي، أنت محق، هذا التعميد غير شرعي تماماً...

- جيد!

- هو غير شرعي، لكن... ساري المفعول.

حَمْلَق فيه الأسقف.

- ماذا تقول؟

- لقد اتصلت بروما، سيدي. هذا التعميد رغم أنه ليس شرعياً لا يمكن إبطاله. القانون الكنسي حاسم، هو ساري المفعول.

* * *

كان الوكيل التجاري من وكالة رينو يشعر بالملل، في فترة بعد

الظهيرة تلك من شهر أغسطس. عندما سمع انزلاق الباب الأوتوماتيكي السلس، رفع عينيه وتفاجأ برؤية البارونة دو سيردغو.

كانت سيارتها الجاغوار العتيقة ذات اللون الأخضر الزيتي الغامق مركونة أمام الوكالة. مع قليل من الأمل، كانت الأرستقراطية العجوز تريد استبدال السيارة...

نهض وسار نحوَها ليستقبلها. كان يشعر بقليل من الرهبة. لا نقابل كلّ يوم أحداً من طبقتها.

- مرحباً بك في الوكالة، سيدة دو سيردغو.

- صباح الخير سيدي، أجابته وهي تنظر إلى السيارات.

على الشاشة الكبيرة المعلقة على الجدار، كانت وصلة الإعلان الإشهاري عن الماركة تمرّ باستمرار، أمام مقود رينو إيسباس، كيفين سبيسي يحدق في الزبون وهو يؤكد «I might even be President of the United States»(*).

راقب زبونته ورآها تضع يدها على سيارة كابتور.

- إنها سيارة تناسبك تماماً، ستعطيك صورة شابة، حركية...

عقدت حاجبيها.

- نظِّف نظارتك، أيها الشاب، لقد تخطّيت الستين، قالت وهي تبتسم.

أحسّ بنفسه مغفلاً مثل طفل ضُبِطَ متلبّساً بالخطأ.

بسرعة. يجب أن يستدرك. ألّا يظلّ على فشل.

- في هذه الحالة، سيارة كوبي ميغان أو حتى سيارة تاليسمان ستخدم صورتك الأنيقة...

(*) العبارة بالإنكليزية ومعناها: «يمكنني حتى أن أكون رئيس الولايات المتحدة».

لم تجِبْهُ في الحال، وواصلَت اللف حول السيارات.

- ليس هذا ما أبحث عنه، انتهت إلى القول.

عضَّ على شفتيه. دوماً الخطأ نفسه، كان يبرر قبل أن يعرف. تذكّر تعليمات المدرب التجاري، في البداية تطرح الأسئلة، تحدّد صورة السيارة التي تعكس أحلام الزبون...

- في الواقع... قولي لي: عن ماذا تبحثين؟

كانت تسير بهدوء بمحاذاة السيارات المعروضة وتوقفت أمام سيارة توينغو مستعملة.

- سيارة كي أتحرك بها.

بقي مذهولاً. كانت هذه أول مرة يسمع فيها جواباً على هذا النحو.

لم يكن هذا شيئاً عادياً.

كان متأكداً، لم يكن الجواب ضمن تصنيف الأجوبة في الكتاب الذي قدمه له المدرب. أين الخطأ؟

- سيارة قادرة على أن تأخذني لأتسوق في ماكون مرة في الشهر.

لم يعرف بماذا يجيب.

نظرت إليه متسائلة.

- هل تخشين ألّا توصلك؟

- آه... بلى، بلى...

حسمت رأيها بسرعة لصالح ذلك النموذج، وبعد دقائق جلسا إلى مكتبه كي يدخل المعلومات في الحاسوب.

- ذكِّريني كيف يُكتب اسمكِ، سيدة دو سيردغو...

- غروسارد. جوزيت غروسارد. تُكتب كما تُنطق، بدال في الأخير.

* * *

نهضت أليس قبل الفجر. ارتدت ثيابها بسرعة، شربت قليلاً من الماء، وخرجت في الليل. كان هواء الليل يعبق برائحة الندى الذي يتلألأ على أوراق الوستارية، قرب البيت. على طول الشارع المنخفض، نشرت المصابيح العتيقة من النحاس الصدئ بريقها المذهَّب في العتمة الخفيفة التي تسبق مطلع الفجر.

فوق الأسقف، هناك في السماء، كانت النجوم تختفي بصمت، يرافقها هلال مرهف كأنه شفرة منجل.

في أسفل الشارع النائم، كانت أولى انبثاقات الخبز تتسرب من نافذة الخباز المفتوحة.

سلكت يساراً شارع ميرسيير، ثم يميناً شارع لا بار، ووصلت إلى فناء الكنيسة.

كانت هناك سيارة مركونة، أضواؤها مضاءة، أمام بيت الكاهن المفتوح.

رجلا دين واقفين بالقرب، أحدهما بالأسود، والآخر بالبنفسجي، وذراعاه مشبكتان. بلا شك مرافقي جيريمي إلى المطار. تمنّت لو وصلت قبلهما.

وهي تقترب، كانت خطواتها ترنّ على البلاط القديم، وأشار إليها رجل الدين الذي كان بالأسود بحركة خفيفة من رأسه. نظر إليها الآخر بازدراء دون أن يقول شيئاً، لكن بنظرة تقول الشيء الكثير عن عداوته.

اقتربت وحيَّتهما باقتضاب وهي تتخطاهما، من دون فائدة. كانت بمحاذاة البوابة عندما رأته...

من الجهة الأخرى من الساحة، هبط جيريمي درجات المدخل في ثوبه الأسود، حاملاً في يده حقيبة صغيرة، حقيبة مراهق صغيرة، نصف مملوءة بالأوراق اللاصقة الملونة. تعرّفت عليها في الحال وانقبض قلبها بينما كانت تعود بها الذكريات إلى سفر مدرسي إلى إيطاليا عندما كانا معاً في الثانوية.

رآها فمشى نحوها مبتسماً، وقال لها:

- جئت!

أقرَّت، وحلقها معقود لم يسمح لها أن تتكلم.

بقيا وجهاً لوجه عدة لحظات، ينظران بعضهما إلى بعض دون أن يقولا شيئاً. ثم قامت بخطوة نحوه وطبعت قبلة على وجنته.

- اهتم بنفسك، همسَت له.

أذعن وهو يوجِّه نحوها ابتسامة مطمئنة. ثم توجّه نحو سيارة الأسقفية.

- كنت سأنسى، قالت أليس.

استدار.

- لقد رأيت السيدة دو سيردغو مساء أمس. كانت تعلم أنك ستغادر عند الفجر، وقالت إنها ستترك كلمة من أجلك في الموهف، من طرف شخص لا يستطيع أن يأتي لتوديعك قبل سفرك. لم تخبرني مَن، لكنها ألحّت كي تأخذها قبل أن تغادر.

- في الموهف؟ لماذا في الموهف؟

- لا فكرة لدي.

نظر في ساعته.

- فلنسرع، قال الأسقف.

تبادل جيريمي وأليس النظرات.

- تعالي معي، قال جيريمي.

ثم أضاف باتجاه الأسقف:

- سأعود في الحال.

تبعته أليس بخطوات حذرة في الزقاق الذي يحاذي الكنيسة. دخلا مباشرة إلى الموهف عبر باب ضيق يختبئ بين الدعامات الحائطية، صرّ بخبث وهو ينفتح. في الداخل، كان الظلام دامساً، مع وجود رائحة بخور خفيفة. أضاء جيريمي مصباح الأوبال الجداري الصغير.

كان المظروف موضوعاً على أثاث يشبه وعاء خبز القربان. أخذه وأخرج منه بطاقة كتب عليها ببساطة «شكراً» بخط منتظم.

لا توقيع، لا اسم على ظهر المظروف.

فجأة انتفضت أليس وهي تسمع دوي صوت الأرغن.

فتح جيريمي الباب الذي يفصل الموهف عن باقي الكنيسة قبالة الخورس كانت الأضواء مضاءة، فدخلا.

كل الأوفياء كانوا موجودين، مجتمعين، نهضوا عندما رأوهما. كان الصحن ممتلئاً.

كانت موسيقى باخ تملأ الكنيسة بالنغمات الآسرة يسوع فليدم فرحي.

فيكتور، إتيان، كل الوجوه المألوفة كانت حاضرة، كل أوفياء القداس وكل المرتادين على المعترف. وحده بقي مكان شاغر. يستحيل ألّا يراه المرء، في الصف الأول، قرب الممر الرئيس. لا أحد تجرأ على احتلاله.

تراجعت أليس كي تترك جيريمي يودّع الأوفياء لكنه أمسك يدها وتقدّما معاً.

غادر أبناء الرعية الصفوف لملاقاتهما والإحاطة بهما. تبادلت قبضات اليد، والقبل أيضاً، وكذلك كلمات الصداقة، والعرفان، والتشجيع، والوعود على البقاء على اتصال بطريقة أو بأخرى.

فتح أحد أبناء الرعية الباب الكبير على وجهَي الأسقف والمعاون المقروصين، واللذين تراجعا غريزياً في ظلام الشارع.

عندما وصل إلى طرف الممر الرئيس، رأى جيريمي السيدة دو سيردغو جالسة في الصف الأخير. لم يتعرّف عليها في الحال، كانت ثيابها بسيطة، وشعرها غير مصفّف، لا مساحيق تجميل ولا حليّ. لم تكن تحمل حول عنقها الصليب المذهّب والياقوتة الكبيرة. رغم الدموع التي كانت تتلألأ في عينيها، كان يلمع فيهما ضوء جديد.

أول مرة، يجدها جميلة.

في الخارج كانت تبزغ أولى ساعات النهار.

اجتازا الباب، التفت جيريمي نحو أبناء الرعية، نظر إليهم مرة أخيرة مجتمعين، وهو يقتبس من المسيح، تمتم بكلمات بالكاد سمعتها أليس:

- أنتم نور العالم.



حَيْثُ يَكُونُ كَنْزُكَ هُنَاكَ يَكُونُ قَلْبُكَ أَيْضاً

* * *

«كيف يمكن أن تدعوه ليشتغل على نفسه، على تطوير ثقته بنفسه، على أن يتعلّم أن يحب نفسه، دون أن تهينه؟

- هل سبق أن سمعتَ بتوبي كولينز؟

- لا.

- هو يقدّم دورات دراسية في التنمية الذاتية. عظيم، أودّ أن آخذك عنده ذات مرة...

ليس غريباً أنه لا يعرفه، قالت أليس لنفسها. لماذا سيهتمّ المرء بتنمية الذات إذا كان يعتقد أنّ الخلاص بين يدي الله وحده؟

- تبدو مستغرقاً في التأمل، قالت له.

أجبر جيريمي نفسه على الابتسام.

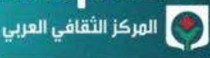
- باتّباع نصائحك، أتساءل ما إذا كنت قد أفقد روحي، فقط كي أجذب الناس إلى العبادة».

* * *

تسرد هذه الرواية الجميلة قصة أليس، امرأة شابة ملحدة، تسعى إلى مساعدة صديقها جيريمي، كاهن في إحدى القرى الفرنسية. في خضم مهمتها هذه، تجد أليس نفسها مدفوعة لطرح أسئلة وجودية، غنية بالاكتشافات، تُدخلها عالم الروحانيات، وتكشف لها حقيقة لم تشك أبداً بوجودها.

في روايته الجديدة هذه، العميقة والجذابة، يأخذنا لوران جونيل إلى عالم رائع، تتقاطع فيه الفلسفة والروحانية وعلم النفس وتنمية الذات، ويدعونا لأن نطرح الأسئلة الصحيحة، أن نجرب الحياة، وأن نعثر على ذلك الكنز فينا... الذي فقدناه.

telegram @soramnqraa



الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com



ISBN 978-9953-68-865-7



لوحة الغلاف: Vadim Georgiev / Shutterstock ©